

الشّيْطانُ يَعِظ





نجيب محفوظ

الشَّيْطَانُ يَعِظ

دار الشروق

الشَّيطانُ يَعِظ



الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

المحتويات

الرجل الثانى

جذبنى مقهى النجف فى سن المراهقة. كانت سنا يستهجن فيها غشيان المقاهى. الحق لم يجذبنى المقهى نفسه ولكن شدنى بقوة سحرية صاحبه موجود الدينارى الأسطورة الباقية. إنه آخر الفتوات، غير أنه بالقياس إلىَّ أول الفتوات وآخرهم. ذهبت لأحظى بمشاهدته فوق أريكة الإدارة فى شيخوخته المجللة بالمهابة والقوة والجمال. اخترت مجلسا بعيداً عن مجلسه، منعنى الإكبار، وجاء بى دوما ما استقر فى قلبى من حكايات فتونته، سحرتنى أكثر نوادره الغامضة التى تضاربت حولها التفاسير. طالما شعرت وأنا أحتسى قرفته المخلوطة بالمكسرات بأننى أعيش أبهج ما فى الماضى والحاضر والمستقبل.

* * *

يحكى أن..

يحكى أنه ألقى على أتباعه ذات يوم تحديا. عند الفجر من سهرة فى غرزة المنارة المسقوفة بالسماء. قلب عينيه فى وجوه الرجال فلم يبرح أحد مكانه. تبدت وجوههم غامضة على ضوء النجوم. تبدت وجوههم ذابلة من شدة السطول. تبدت وجوههم مخضلة بالندى. فى فصل صيف شهد له الآباء بالغلظ. قال لهم:

ـ لن ترجعوا إلى بيوتكم قبل أن تسمعوا.

تطلعوا إليه باهتمام. جاهدوا نعاس الخدر. توقعوا نبأ عن معركة.

موجود الدينارى قهقه حتى سعل. قال بتؤدة أضفت على بنيانه القوى وملامحه الواضحة جدية مثيرة:

ـ إنكم تتساءلون..

اشتعلت اللهفة ونفد الصبر، فواصل الرجل:

ـ ما من جماعة مثلنا إلا وفيها رجل ثان، على ذلك جرى عرف من غبر..

ندت عن «طباع الديك» حركة عفوية داراها بسعلة مصطنعة. لم تغب عن عين الرجال ولا عين الرجل. كان أقوى الأتباع وأشجعهم وإن لم يجهر بذلك أحد. وطالما اعتقد أن المنزلة الثانية بمثابة حقه المعتبر.

تساءل المعلم:

ـ ما رأيكم؟

أكثر من صوت أجاب:

ـ الرأى ما ترى يا معلم.

ـ كلكم أقوياء، كلكم شجعان، ولكن الفتونة الحقة لا تستند إلى القوة والشجاعة وحدهما!

عند ذلك قال طباع الديك:

ـ منك تعلمنا أيضًا مكارم الأخلاق.

فابتسم المعلم ابتسامة غامضة وقال:

ـ دعونا من الكلام، عندى مهمة، فمن منكم يقبل القيام بها؟

فبادروا قائلين:

ـ نحن رهن الإشارة!

وتساءل طباع الديك:

ـ ما المهمة يا معلمى؟

فقال الديناري باسمًا :

ـ إنها سر من الأسرار .

همدت ألسنتهم . تذاكروا ما عرف عنه من غرابة الأطوار . تذكروا الغموض الذى يخالط وضوحه . حذروا بغريزتهم أن يقعوا فى شرك لا قبل لأحدهم به . وسر الديناري بصمتهم فقال :

ـ إنها تتطلب أول ما تتطلب الطاعة العمياء!

وضح القلق فى حركات طباع الديك المتوترة ، ولكنه تجاهله قائلا :

ـ قد يحيق الهلاك بمن يتصدى لها ، لا يجوز إخفاء ذلك عنكم ، فإذا وفق فاز بالمكانة اللائقة ، وإن هلك تعهدت أهله بالعناية .

وخرج طباع الديك من صمته فقال :

ـ يا معلمى ، لقد خدمتك منذ . . .

ولكن المعلم قاطعه متسائلا :

ـ من منكم يقبل المهمة؟

من غشاء الصمت الثقيل انطلق صوت يقول :

ـ خدامك يا معلم!

تحولت الأبصار بذهول نحو شطا الحجرى . فتى جاوز العشرين بعام أو عامين . أحدث من انضم إلى العصابة . لم يشترك بعد فى معركة . قبل بناء على تزكية من طباع الديك نفسه . وجزع طباع الديك . إنه فى الحلقة الرابعة من عمره ويصغر معلمه بعام واحد . وعلى رغم سوء ظنه بالمهمة وحذره من مقالب معلمه فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر . لذلك هتف :

ـ لا أحد لها سواى .

فقال المعلم بهدوء :

ـ إنه شطا الحجرى .

ـ ولكنه . . .

فقاطعه المعلم :

ـ لقد سبق ، ولا حيلة لك !

غشيت الصمت كآبة . أيصير شطا الحجرى الرجل الثانى إذا لم يهلك؟ ترى ما المهمة؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيعهم؟ أيهلك شطا أم يفوز؟ وماذا لو تكشفت المهمة عن تكليف يسير لا يشق على أحد؟ لقد تمنوا فى أعماقهم أن يتقرر الهلاك مصيرا لشطا . وتلهفوا على معرفة المهمة ، فتساءلوا :

ـ لم يعد محظوراً أن تكشف لنا عن سر المهمة يا معلم .

فقال المعلم بمرح :

ـ كل شىء مرهون بوقته .

وقام الرجل نافضا عن عباءته ذرات الرماد ومضى نحو الحارة وهو يقول :

ـ تناسوا ما دار بيننا فى هذه الليلة الحارة فلا شأن لكم به !

٢

توارى المعلم عن الأعين . لزم الرجال أماكنهم من شدة الذهول . وجد شطا الحجرى نفسه فى بؤرة منصهرة بحرارة الأبصار والصيف . أراد أن يخرج من الحرج بكلمة اعتذار فقال :

ـ أعترف بأننى مازلت أحبو فى الذيل ، ولكنها إرادة الله .

فقال رجل مغلفا قوله بنبرة نذير :

ـ بل اخترت بإرادتك يا شطا!

فقال فى استسلام:

ـ إنما يجرى كل شىء بمشيئة الله.

فقال آخر بخشونة:

ـ للشيطان أيضًا دور فى رحاب الفتونة.

فتغير مزاج شطا وقال بعناد:

ـ لقد أعددت كفنى يوم انضممت إليكم.

فتلاطمت أصوات فى سخرية:

ـ عفارم.. عفارم! الطموح مهلكة ولكنه حلم الفتوات!

ضاق شطا بصمت طباع الديك أكثر مما ضاق بسخريات الرجال. استأذن ناهضًا ثم غاص فى الظلمة.

استقبلته أمه فى بدروم عمارة الجبلى. ستهم الشهيرة بالغجرية تستيقظ عادة مع الفجر لتتهيأ ليوم عمل كادح. قال:

ـ حدث الليلة أمر عجيب.

وقص عليها ما جرى. عكس وجهها المتجعد الكالح انفعالات متضاربة، تفكرت حتى وجمت ثم قالت:

ـ يا لك من متعجل!

فتحامى الجدل فقالت:

ـ إنك لمجنون يتحدى الجميع بلا تدبر.

فاتجه نحو منامه فوق الكنبة صامتًا فقالت:

ـ لم يبق لى من ذكر سواك، أخواتك فى بيوت أزواجهن، لعنة الله على شيطانك.

فتمتم بامتعاض:

ـ لا تتوقعين إلا الشر؟!

ـ أتحسب أن الفتونة لهو؟!

على رغم قلقه واضطرام أفكاره فقد أسلمه الإرهاق إلى نوم عميق.

٣

استيقظ شطا الحجرى عند الضحا. اجتاحته ضوضاء الحياة. ما زال الصيف يزفر نارا. استيقظت معه ذكريات الليل. لم يلق إليه المعلم بأى إرشادات. هل ينتظر حتى تجيئه إشارة؟ كلا، عليه أن يتحرك. ليتحرك حتى لا تنفرد به الأفكار. قرر أن يذهب إلى دار الدينارى. أول مرة يعبر البوابة العملاقة. اخترق فناء واسعًا. إلى اليمين مجمَّع نخلات مثقلة بالبلح الأحمر وإلى اليسار إصطبل. سمح له بالانتظار فى منظرة. طالعته فى الجدار الأوسط بسملة مذهبة تشرف على الأرائك والبساط السنجابى. حتى أذان الظهر انتظر، ثم جاء الرجل. خيل إليه أنه يرى رجلا آخر. لأول مرة يرى شعر رأسه الأسود، ولأول مرة يخطر أمامه فى جلباب فضفاض أبيض، أما رائحة المسك فهى دائمًا تنتشر منه. تربع فوق الكنبة الوسطى ثم أشار إلى الأرض قائلاً:

ـ اجلس.

فتربع على مبعدة قصيرة من موطئ قدميه، ثم قال كالمعتذر:

ـ جئت بلا دعوة.

قال ووجهه لا ينم عن شىء:

ـ لو لم تفعل لاعتبرت الأمر كأن لم يكن.

فحمد الله فى سره على أول توفيق يصيبه. وسأله الرجل:

ـ ماذا قال الرجال أمس عقب ذهابى؟

ـ اتهمونى بتجاوز الحد.

ـ هى الحقيقة بالقياس إليهم هم!

فحمد الله فى سره مرة أخرى على حين رجع المعلم يسأل:

ـ ماذا عن أمك الغجرية؟

ـ قلقة وخائفة.

ـ لو لم تقدم لاتهمتك بالجبن!

انقطع الكلام قليلا حتى قال شطا:

ـ إنى رهن إشارتك.

فمد ساقيه قائلاً:

ـ دلك ساقىَّ.

فشمر شطا عن ساعديه وراح يدلك الساقين المدمجتين بارتياح وفخار. تواصل الصمت حتى تساءل المعلم:

ـ ما الذى دفعك إلى القبول؟

فبادره شطا بحماس:

ـ أن أحظى برضاك.

ـ كاذب، أو نصف كاذب. إنه الطموح، ولكن لا فتونة بلا جنون.

لم يدر ماذا يقول. ترامت من بعد صيحات الغلمان ونداءات الباعة وحوار النساء. ثم تساءل المعلم:

ـ مستعد؟

ـ رهن الإشارة.

فقال الرجل بوضوح:

ـ اغتسل، ارتد ملابس جميلة، اعثر على أجمل بنت فى الحارة، ثم اذكرها لى!

ثقلت يداه وأوشكتا أن تتوقفا عن التدليك. ما سمعه لم يتوقعه قط. ظن المهمة مغامرة لا يطيقها إلا الأفذاذ. ما تصور أن تكون مهمة خاطبة. بل الخاطبة أشرف. لا يمكن أن تقتصر المهمة على ذلك. ما هى إلا مقدمة لاختبار الطاعة. الحذر.. الحذر من التردد. الطاعة أو الضياع. ما يعرف من قسوته مثلما يعرف من مكارمه. إنه ولا شك لم يقل كل شىء فلينتظر. لكن وجهه لا يعد بمزيد! أخيراً تساءل:

ـ أهذه هى المهمة بلا زيادة؟

قال المعلم ببرود:

ـ لا أسمح بأى سؤال.

تركه يدلك ساقيه فى صمت، ثم سحبهما قائلا:

ـ مع السلامة.

٤

وهو يغادر الدار شعر بالندم. بل بالغضب. ربما ضرب يوما مثلا للحماقة والسخرية. الفتى الذى طمح إلى السيادة فعمل خاطبة. أو قوّاداً ذا قرنين. وسيكون نادرة أخرى إذا هرب. ولكنه وعده بالمكانة الثانية إذا نجح. وهو الوفاء إذا وعد. فكيف يشك فى جدارة العمل؟ إنه لأحمق إذا تهاون مع سوء الظن. إنها محنة حقا ولكن وراءها ما وراءها. فليصمد وليصمد وليمحق الريب.

وسألته أمه ستهم الغجرية بلهفة:

ـ خبرنى ما المهمة؟

أجل إن المعلم لم يكلفه بالكتمان ولكنه شعر بأن الأمان فى الكتمان. والكرامة أيضًا تلزمه به. فليذعه المعلم إن شاء أن يبلوه. لذلك قال:

ـ الأسف والمعذرة.

فصرخت المرأة:

ـ من يخف عن أمه سرّا فهو ابن حرام.

وهتفت أيضًا:

ـ أنت وشأنك ولتتجرَّعَنَّ الندم!

وقال لنفسه: «تقدم بلا تردد». ذهب إلى حمام الأمير وأسلم جسده إلى المغطس. ارتدى جلبابا جديداً ولاثة منمنمة ومركوبا أخضر ومضى منور الشباب كالبدر. استحال عينين حذرتين، تسعيان وراء الجمال حيث يكون. فى النوافذ، عند صنبور المياه، فى سوق الخردوات والحلى. كلما لمح حُسْنا سجله فى ذاكرته وواصل السعى. وصادف فى سعيه رجالا من العصابة يراقبون ويتساءلون. ضاعف من حذره مطمئنا إلى أنهم لم يقفوا على سره بعد. تمنى أن يحافظ المعلم على السر كما يحافظ عليه هو. تمنى أن يعثر على ضالته حتى تنجلى الحقيقة عارية. أجل ستنكشف مهمة الخاطبة عن المجد لا الندم.

وكان يستريح فى مقهى النجف عندما جلس إلى جانبه طباع الديك. انقبض صدره ولكنه ابتسم. هو الذى زكاه عند المعلم يوم قبل. صديق أسرته الذى يعتبر ستهم الغجرية أمّا له. قدم له الشاى حبا وكرامة. ابتسم الرجل وقال:

ـ أصبح لك مظهر الوجيه لا الفتوة!

إنه يستدرجه ولكن هيهات. وتمتم الرجل:

ـ لا تستقر فى مكان!

بادله الابتسام دون أن ينبس فقال طباع الديك:

ـ لا أريد إحراجك، هذا أول ما تطالبنى به علاقتنا الطيبة.

فتمتم شطا بأسف:

ـ معذرة يا صاحب الفضل.

ـ إنى عاذرك، ومقدر لحالك، ولكن واجبى كصديق للأسرة يطالبنى بأن أحذرك.

ـ تحذرنى؟

ـ معاذ الله أن أحرضك على إفشاء سر، ولكنك حديث عهد بنا فلا تعرف فتوتنا كما أعرفه.

فقال شطا بصدق:

ـ الحارة كلها تعرفه.

ـ لعلها لا تعرف مثلى حبه الدعابة والعبث.

ارتعد قلبه ولكنه قال بقوة يغطى بها على ارتعاده:

ـ الدعابة لا العبث، إنه جاد كل الجد..

ـ لم صفح عن زميلنا الأعجر؟ ولم أصر على عقاب شعراوى القفا؟

ارتعد قلبه مرة أخرى ولكنه قال:

ـ ثمة سبب يعلمه ونجهله، إنه أبعد ما يكون عن العبث.

ـ إذا أردت الاستشهاد بالأدلة ستجد ما يؤيد جديته وستجد ما يؤيد عبثه.

ـ لا، لا تقس ما يقع فى حارتنا بما يحدث أحيانًا فى الغرزة.

ـ ولكن المغامرة التى تقدمت لها حدثت فى الغرزة.

فقال مجاهداً غيوم القلق :

ـ لكن نتيجتها ستطبق على الحارة!

ـ صدقني يا شطا، لم لَم أقدم على المهمة على الرغم من أنني أجدر الرجال بها؟! حدثَني قلبي بأنه يهيئ للعبث مقلبا!

هز شطا رأسه نفيا واحتجاجا فقال طباع الديك :

ـ ثم إنه لا يتأثر بالعواطف، وهو قوي كما نعلم جميعًا، فمنذا يضمن وفاءه؟ بل هبك هلكت لا سمح الله فلم يعن أمك فمنذا يحاسبه؟!

لزم شطا الصمت بنظرة رافضة فنهض طباع الديك قائلا :

ـ الله معك!

فقال شطا :

ـ هيهات أن تتزعزع ثقتي به.

وأتبعه ناظريه وهو يلعنه.

٥

الوساوس والهواجس تخامره. طباع الديك لا يذكر العبث بلا دليل. أجل إنه مغرض وحاقد وخائف، ولكنه لا يهذي. على ذلك فهو يصر على جدية معلمه، على رغم غرابة ما كلف به. على رغم الغموض المتعمد من الآخر. رباه.. ما العمل لو كان يعبث به حقّا؟! ما العمل لو تبدد الجهد نظير لا شيء؟ ما العمل لو تناثرت قوائم حياته فيما يشبه المزاح؟!

وهو يحاور نفسه طالعه فجأة وجه يمرق من الملاءة السوداء كالضوء. وجه نفاذ الحلاوة بهيج الأثر. ما تمالك أن قال لنفسه وهو ينتفض بانتعاش غامر: «لعلها هى». فى الحال تناسى وساوسه وهواجسه وحل بقلبه الظفر. لعله رآها قبل ذلك ولكنها عبرت فى غفلته بلا أثر. سرعان ما تبعها عن بعد على إيقاع تموجاتها الراقصة. حتى عطفة البرادة وحتى غيابها فى عمارة ريحان المتهالكة. هى هى ضالته المنشودة، فمن تكون؟ عليه أن يجمع المعلومات الكافية. الناجح من يحافظ على السر ويجمع المعلومات الوافية. أفعم قلبه بالإلهام والثقة. وحلم بالمكانة الرفيعة الثانية. ودعا الله أن يتم المهمة دون مساس بكرامته. ومن حظه السعيد لاحت فى النافذة، لمحها ولمحته أيضاً بنظرة خاطفة. فى العطفة كواء بلدى وبياع طعمية ولكنه تجنب سؤال الأنفس المتطفِّلة. استدرج غلاما يلعب فسأله:

- يا شاطر من يسكن فى الدور الثانى؟

فأجاب الولد:

- عم طناحى بياع الطعمية..

آه.. ثمة شبه بين الكهل والبنت الفاتنة. رجع إلى بيته مستوصيا بالحذر. وعلى رغم ما بينه وبين أمه من جفاء سألها:

- هل تعرفين أسرة عم طناحى بياع الطعمية؟

فتجاهلته حتى كرر السؤال، فسألته بدورها:

- لماذا تسأل؟

- حديث دار فى المقهى حول بنت جميلة له.

- زوجت له بنتين وبقيت الصغرى وداد، صغيرة ولكنها أجمل البنات.

فقال مخفيا انفعاله:

ـ ذاك ما قيل عنها .

ـ قل لمن يتحدث : إن الطائر قد حلق فى السماء .

ـ السـماء؟!

ـ ما زال الأمر سرّاً ولكنى الوحيدة من غير الأسرة التى تعرف أن معلمك الدينارى خطبها منذ أسبوع!

ـ حقـّاً؟!

ـ حظها السعيد، لا أهمية للسن ولا لكثرة الزوجات! ابعد إن كنت فكرت فى القرب .

إذن قد خطبها الرجل قبل أن يكلفه بالبحث عنها . ولكن هل يغير ذلك من موقعه من المهمة؟ عليه ألا يضيع وقته وأن ينسى ما سمع .

٦

قبع فى مجلسه عند قدمى المعلم وراح يدلك ساقيه . الرجل يرتاح لذلك وهو يجيده . مهما يكن من أمر العاقبة فهو اليوم ألصق الجميع به . غير أنه لا يستطيع أن يقرأ وجهه . ألا ما أكبر الفارق بينه وبين البنت، فى العمر والحجم وكل شىء! والرجل صامت يضن بالسؤال فعليه هو أن يتكلم . قال :

ـ عثرت على البنت المنشودة يا معلم .

بعد هنيهة صمت قال الرجل :

ـ انطـق .

ـ الاسم وداد، كريمة عم طناحى، بالدور الثانى من عمارة ريحان القديمة.

ـ ألم تفتك فرصة؟

ـ كـــلا.

ـ هل فطن أحد إلى مسعاك؟

ـ كـــلا.

ـ الكتمان فى صالحك أنت.

ـ حرصت عليه بحسن تقديرى.

ـ إنك معجب بنفسك.

فتورد وجهه الأسمر حياء، تفاءل بالصمت، ثم تساءل:

ـ انتهت المهمة يا معلمى؟

فقال الرجل بلا مبالاة:

ـ الآن عليك بمغازلتها!

كأنما تلقى ضربة على يافوخه. هتف:

ـ مغازلتها؟!

قال الرجل ببرود:

ـ مع السلامة.

فى الخارج لم يسمع صوتا على رغم الضوضاء، لم ير أحدًا على رغم الزحام، لم يلق بالا إلى متربص. المهمة تتعقد والمخاوف تتجسد والأشباح تتخايل. ها هو ذا يحمل أمرًا من معلمه بمغازلة خطيبة معلمه. وهو مطالب بإبلاغه بالنتيجة. هيهات أن تؤاتيه الشجاعة على الكذب. أهى طريقة لاختيار الرجل الثانى حقًا أم أن الأمر عبث فى عبث؟ الليل تتكاثف ظلمته وتتوارى نجومه وراء السحب.

٧

وجد نفسه بعد ذلك بين اثنتين : الهرب أو الصمود . قرر أن يصمد . ليس وراء الهرب إلا السخرية والضياع ، أما الصمود فإنه يمارس فيه رجولته وليكن بعد ذلك ما يكون . ربما انتهى به الصمود إلى شماتة الحاسدين ولكن الهرب ينذر بما هو أفظع . وكلما تعقدت الأمور وانبهم المغزى على إدراكه قال لنفسه مستهينًا :

ـ ليست السلامة بالغاية المفضلة فى هذه الدنيا .

وانطلق فى أثرها يخط بالقدم مصيره ومصيرها . تعرض لها فى نافذتها ، تبعها إلى دكان الخردوات وهى بصحبة أمها ، وهبها عينين حادتين وهى تمر أمام مقهى النجف . تطايرت نظراته الموشاة بالبسمات الخفية معلنة عن عاطفة لا وجود لها . وفى فرح شهده وكانت وداد بين المدعوات قاربت بينهما نظرة طويلة فغمز لها بعينه ملقيا بنفسه فى فم القدر . إنها الآن تعرفه تمامًا وتخمن مقصده فليتها تغضب ، ليتها تشى به عند والديها فتنقذه من المجهول ، وتنقذ نفسها . لكنها لم تغضب . بل مرحت فى دلال معلنة محاسنها كاشفة عن استجابة واضحة . قال لنفسه بحزن إنها لا تهمها الفتونة ، إنها تؤثر الحب على الجاه ، إنها حلم الشباب المثالى وأسفاه .

ومضى فى الطريق مستسلما لاغيا عقله . حتى ضمهما يومًا زحام يحدق بالحاوى . تزحزح خفية حتى استقر جنبها . ولما التفتت نحوه همس :

ـ يا جميلة .

فالتفتت عنه فى دلال مشجعة على المزيد فهمس :

ـ أقول إن جمالك . . .

ولكنها قاطعته هامسة ومعلنة استجابتها فى الوقت نفسه :

ـ الناس . . الناس!

ـ صدق من قال إن العاشق مجنون .

ـ أنت لا تعرف كل شىء .

فهمس متخطيا أشباحه :

ـ أعرف أنك مخطوبة للديناري .

فرمقته بدهشة وإكبار وهمست :

ـ إنه سر .

ـ لكنى أعرفه . .

ـ لن تحظى بأحد يقبلك .

ـ المهم رضاك أنت .

فتساءلت متظاهرة بالتركيز على يد الحاوى وهو يلاعب الحية :

ـ أى فائدة ترجى؟

ـ لنتقابل على انفراد .

ـ أمر عسير .

ـ الشمس تقترب من المغيب ، زاوية الدرمللى مكان آمن .

ـ ولكن . .

ـ سأسبقك . . لا تضيعى فرصتنا الوحيدة .

ومضى نحو الميدان ثم انعطف إلى الزاوية . اضطرب خافق القلب . ثمة أمل ضعيف فى أن يستردها العقل فى آخر لحظة . أن تثوب إلى رشدها وتندم .

لكنه رآها مقبلة فى شجاعة تثير الدهشة .

٨

استغرق اللقاء الخفى دقائق معدودة فى الركن المتوارى المعتبر مأوى للمجاذيب . سألها :

ـ لديك فكرة عن الخطر الذى يتهددنا؟

فأجابت بثبات أكبر من سنها بكثير :

ـ نعم .

ـ لا سبيل أمامنا إلا الهرب إلى الأبد .

فتمتمت :

ـ ليكـــن .

وبانتهاء اللقاء الأول انعقدت سحب التعاسة فوق رأسه . وقع فى حفرة لم يقدر مدى عمقها من قبل . غزاه صدقها وشجاعتها وبراءتها . صدقته تمامًا ، وهبته قلبها النابض ، وضعت مصيرها بين يديه . دهمته أيضًا استجابتها غير المتوقعة . هاله الدور القذر الذى يمثله بمهارة فائقة . ألم يخش لحظات من جانب معلمه العبث؟ ها هو ذا يعبث بالطهارة والبراءة! لماذا؟ من أجل أن يعتلى الموقع الرفيع الثانى فى جماعته . أيهون عليه حقًا أن يتم مهمته فيدفع بالبنت إلى الهاوية؟ كلا . . لم يكن يومًا من أهل ذاك المنحدر . وما أغراه بالانضمام إلى جماعة المعلم إلا استزادة من الشرف . وهيهات أن ينسى نظراتها المحبة الواثقة . ولا صوتها العذب وهى تتمتم :

ـ ليكن .

ـ هل يبيع ذلك كله من أجل مهمة غامضة كلفه بها رجل عظيم حقا ولكنه معروف بأطواره المحيرة؟! كلا، فليقدم على ذلك وغد من الأوغاد لا رجل يهيم بالحياة السامية.

هكذا جلس عند قدمي معلمه وقد قرر أن شرفه أعلى من المهمة الغامضة.

٩

قال واعيًا بإقدامه على ما هو أخطر من قبول المهمة نفسها:

ـ البنت عاقلة لا سبيل إليها!

فقال موجود الديناري بهدوء:

ـ أنت كذاب.

تطلع إليه بذهول مؤمنا بأنه قد انتهى. السر افتضح وفاته أن يفترض ذلك. إنه لم يخنه فقط ولكنه أساء الظن أيضًا بقدرته. وانقلب أتفه من لا شيء. وراحت يداه تدلكان ساقي الرجل بآلية في صمت ثقيل. حتى قال الرجل بجفاء:

ـ انطـــق.

فقال باستسلام:

ـ الصدق ما قلت يا معلمي.

ـ كيف غفلت عن أنني أمتحنك أنت لا هي!

فقال بأسى:

ـ إني غبي ولكنني لم أستطع أن أكون وغدا.

ـ فلتهنأ بالشهامة والعصيان!

فقال بيأس:

ـ أعترف بأننى أخفقت فى القيام بالمهمة.

فتساءل المعلم بسخرية:

ـ ما المهمة؟

ـ ما كلفتنى به يا معلمى.

فصمت الرجل قليلا ثم قال:

ـ أقول لك يا أعمى استمر!

فتمتم شطا بذهول:

ـ أستمر؟!

ـ وأبلغنى عن كل خطوة فى حينها.

فاشتد الذهول بشطا وتساءل:

ـ أيعنى ذلك أننى ما زلت مكلفا بالمهمة؟

فندت عن يد المعلم حركة تدل على ضيقه وقال بحزم:

ـ اذهب.

١٠

إنه يغوص فى الظلمات بلا مرشد. خلا إلى نفسه فى البدروم الذى تهجره أمه طيلة النهار سعيًا وراء الرزق. تجرد من ثيابه دفعا لحر ذاك الصيف. فليفكر وليفهم. لقد أخفق فى المهمة واستحق غضب الرجل. كان عليه أن يدرك أن للمعلم عيونه أيضًا. لماذا إذن يأمره بالاستمرار

عوضا عن أن يعلن فشله أو ينزل به عقابه؟ أيمنحه فرصة جديدة؟ كلا . . لا تمن نفسك بالأوهام . هل المهمة شيء آخر غير ما وضح له؟ أيريد أن يخفف من عقوبته بعد أن خسر الثمرة؟ هل يسوقه إلى العقوبة من حيث لا يدرى؟! ثمة أمرٌ يقينى وهو أنه يتعمد إلقاءه فى الحيرة . ما أعجزه عن الإدراك المطمئن! ولكن لا مفر من الاستمرار . إنه يفهم الآن مغزى تردد طباع الديك على رغم قوته وشجاعته . أما هو فما أشبهه بلاعب السيرك الذى يترصده الهلاك عند الخطإ . فليذهب إلى الموعد المرتقب . لن يخفَى شيء عن الرجل . عليه أن يهتدى إلى ما ينبغى له فعله قبل أن تتبدد حياته هباء .

* * *

وعندما أقبلت نحوه قبيل المغيب، عندما منحته ابتسامة اللقاء، نسى مخاوفه، استهان بالعواقب، محق شكوكه، غمره رضا وسلام، خفق قلبه بعمق، اكتشف أنه يحبها . أجل إنه يحبها كما تحبه وأكثر . لعله أحبها من بادئ اللعبة وهو لا يدرى . وفى ظل الحب حظى باليقين . ومهما يكن من غموض معلمه أو عبثه فقد هداه إلى الحب . عليه أن يدمجه فى مصيره ويحملهما معًا . لقد محاها مرضاة لضميره وها هو ذا الحب يلحق بالضمير ويجاوزه . لا أهمية الآن للمهمة ولا للدفاع عن النفس ولا للبقاء فى الحارة . الهرب . . الهرب . . ! إنه الحقيقة الباقية . تلقاها بحرارة وسط ضوضاء المجاذيب . يوجد حتما من يراقبهما ولكنه سيلوذ بالمفاجأة .

- أهلا بك يا وداد .

ثم بجدية بالغة :

- ليس لدينا وقت نضيعه .

تساءلت بنظرة من عينيها السوداوين فقال :

ـ الآن وجب الهرب!

فاضطربت متمتمة:

ـ الآن؟!

ـ قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد.

فتفكرت وهى تعبث بأناملها بقلق ثم تساءلت:

ـ أأنت مستعد؟

ـ معى من النقود ما يكفى فى البداية.

ـ إلى أين؟

ـ أقرب وآمن مكان، الدرب الأحمر.

ـ لا صديق لنا فيه.

ـ جميع الدروب معادية ولكن فتوته الشبلى خير من غيره.

ـ وإذا أبى حمايتنا؟

ـ لا أظن، سأجعل نفسى فى خدمته، وإلا ولينا وجهة أخرى.

فوجمت كالمترددة، فقال:

ـ لا اختيار لنا وثمة أعين ترقبنا!

تقلقلت عيناها من الخوف فقال:

ـ سنمضى من تونا وسوف تكون مفاجأة لم يتوقعها أحد، هذه هى فرصتنا.

ـ إنى معك، ولكن فلنؤجل التنفيذ حتى أستعد.

ـ إنها فرصتنا الوحيدة.

هكذا مضيا فى الطريق الجديد مضطربين مصممين سعيدين، يموتان ويولدان من جديد.

١١

مضى شطا الحجرى من فوره إلى مقابلة المعلم الشبلى فى داره القديمة . صدمه الفارق الشاسع بين دارى الدينارى الباهرة وهذه الدار الهرمة ، بين هيكل معلمه المترامى وجسم هذا الرجل النحيل الذى تأهل للفتونة بخفة النمر ودهاء الثعلب .

قال شطا :

ـ جئتك مقدما الولاء وطالبًا الحماية .

سر الفتوة للجوء أحد أتباع الدينارى إليه ولكنه قال :

ـ حدثنى عما ألجأك إلى .

ولم يجد شطا بدا من الاعتراف الكامل بحكايته ليسوِّغ ما أقدم عليه من سلوك غريب . . وضحك الشبلى طويلا وقال :

ـ معلمك يحيط نفسه بالغموض ، فى الظاهر استجلابا للاهتمام وفى الحقيقة ليدارى جنونه المؤكد .

فأحنى شطا رأسه ليخفى ضيقه ولاذ بالصمت ، فقال الشبلى :

ـ لك الحماية والإقامة ، ماذا تريد أيضًا؟

ـ أن تقبلنى فى جماعتك .

فقال الفتوة بصراحة جارحة :

ـ أما هذا فلا ، لا أمان لرجل خان معلمه!

أصابت الطعنة مقتلا فقال بحرارة :

ـ أردت ألا أكون وغدا .

ـ نحن نفضل الوغد المطيع على الشهم المتمرد .

ـ لك ما تشاء وعلى الرضا بالمقدور .

ـ ألك حرفة؟

ـ كنت نجاراً قبل أن ألتحق بالجماعة .

ـ مارس حرفتك واحذر أن تلعب بذيلك .

فقال بانكسار :

ـ إنى أنشد السلامة يا معلم .

رجع شطا إلى وداد وقد خسر أشياء لا تعوض . ومن نقود الديناری المدخرة لديه تزوج واكترى حجرة وأثاثا بسيطا . استقر فى مسكن وعمل كما استقر الحزن فى أعماق نفسه . لقد اعتبر فى الدرب آية على تفوق فتوة الدرب ولكنه عومل كغريب . وأراد أن يهتك ستار الغربة فقال فى المقهى :

ـ كان أحد أجدادى من الدرب الأحمر .

فسأله شيخ الحارة متحديًا :

ـ أجئت من أجل ذلك؟

فبادره وقد فطن إلى ما وراء السؤال :

ـ بل جئت طلبا لحماية فتوة معروف بشهامته!

وتساءل فى نفسه ترى كم من زمن سيجرى قبل أن ينهضم مقامه ويألف ويؤلف ثم يتناسى أحزان الماضى كله؟!

وقال لوداد :

ـ دفعنا إلى المر ما هو أمر منه .

فقبلته قائلة :

ـ إنى غير نادمة .

ـ لقد اعترفت للشبلى بحكايتى ، والآن آن لى أن أعترف لك .

وقص عليها قصة علاقته بها منذ خرج للبحث عنها حتى وقع فى حبها . وصغت وداد واجمة ، وصمتت مليا ، ثم قالت :

ـ قصة جميلة ولكنها لا تخلو من رعب .

فقال بحرارة :

ـ لم يبق لنا إلا أن نسعد .

ولكن حتى الليلة الأولى لم تخل من تنغيص ومن حزن . لقد حظى بالحماية ولكنه باء بسوء الظن والاتهام كما ثبت أنه غير أهل للثقة . وتساءل أناس : هل يرجع الدينارى إلى المعارك غضبا لكرامته خارقا ما التزم به من تعهدات سلمية ـ هو والشبلى ـ أمام الشرطة؟ ! هل يثبت شطا الحجرى أنه شؤم على المكان الذى وفر له الحماية كما كان عاراً على المهد الذى ولد ونشأ فيه؟ !

وانعكس ذلك كله على شطا وتسرب إلى حنايا وداد فلم تخل الليلة الأولى من شهر العسل من تنغيص ومن حزن .

١٢

فى صباح اليوم التالى ترامت إليهما أنباء عما لحق بأهلهما من تحرش وتضييق فى الرزق وتعرض لشتى ألوان الإهانات والقهر . فى السوق أيضًا سمعت وداد اللعنات تصب على جمالها الذى يهدد الحارة والدرب . رجعت إلى مسكنها شاحبة الوجه منهزمة وهتفت بعين دامعة :

ـ أبى وأمى وأخواتى!

فتمتم شطا بنبرة حزينة:

ـ أمى وأخواتى أيضًا!

تبادلا نظرة طويلة حائرة. أفصحت النظرة عن أشياء انحبست وراء معانيهما. قالت النظرة إنهما اندفعا مع عاطفة طاغية دون تفكير فى العواقب. الحق إنهما لم يشعرا بصفاء السعادة إلا فى رحاب الاندفاعة المذهلة. الآن يعترضهما جدار سميك من الحقائق المرة بأنيابها الحادة. وكالغريق الذى يتعلق بقشة قال شطا:

ـ وراءنا طريق مسدود، وعلينا أن نستخلص من القمامة جوهرة السعادة المفقودة..

فتأوهت قائلة:

ـ اللعنات تطاردنى فى الطريق.

ـ علينا أن نجعل من الحاضر ماضيًا.

فنكست وجهها صامتة فرجع يقول:

ـ فعلنا ما هو صواب ومشرف.

ـ ولكننا نسينا العواقب.. دعنا نبحث عن رزقنا فى مكان آخر.

ـ لن يخفف ذلك البلاء عن أهلنا.

ـ والعمل؟

ـ لا مفر من مواصلة الحياة.

ـ لكنها مليئة بالمرارة.

فقال بضيق:

ـ لا مفر ولا حيلة.

١٣

في مساء اليوم الثالث استبقاه الشيخ ضرغام إمام الزاوية عقب صلاة العشاء وقال له :

ـ عندى رسالة إليك من الشيخ عقلة إمام حارتكم .

أصغى شطا بفتور وتشاؤم فقال الشيخ :

ـ إنه يخبرك بأن ما يعانيه أهلك وأهل زوجك فوق ما يحتمل البشر .

فتقبض وجه شطا وهو يقول :

ـ الحزن يمزق قلبى .

ـ أيكفى ذلك؟ الناس هنا يتساءلون كيف تنعمان بالحب على حين يؤدى أهلكما عنكما ضريبة العذاب؟

ـ أهل الدرب هنا يكرهوننا يا مولاى .

ـ إنهم معذورون .

فقال شطا متنهداً :

ـ من الأوفق أن نذهب .

ـ إلى أين؟

ـ إلى أى مكان .

ـ والمعذبون وراءكما؟

فقال شطا باستياء :

ـ كأنما تدعونا إلى الموت!

ـ إنى أخاطب ضميرك .

ـ ضميرى هو ما ساقنا إلى هنا ، والمسألة أننا ضحية عبث .

ـ عبث؟!

ـ أجل . . عبث لا معنى له .

ـ ولكن . . انظر . . ما من فعل إلا وله سببه وله هدفه أيضًا .

ـ لقد خدعت فكلفت بمهمة عابثة .

ـ ألم تكن تطمح إلى أن تكون فتوة حارتكم ذات يوم؟

ـ أيعنى ذلك أن أكون ألعوبة فى يد الغير؟

ـ من أجبرك؟

ـ عظيم ، لقد اخترت بعد ذلك أن أفعل ما رأيته صوابا .

ـ وها هو ذا يتكشف عن أخطاء ، فمنذا يصلحها؟

ـ وإذا سرت إلى الهلاك بقدمى فهل تدافع عنى أنت؟

فقال الشيخ ببرود :

ـ الهلاك نهاية كل حى ولكن يوجد الخطأ كما يوجد الصواب أيضًا .

شكره بجفاء وقام ماضيًا نحو مسكنه . شعر بأنه يمضى إليه كارها فتعجب من ذلك غاية العجب .

١٤

وجد فى الحجرة غَشاوة صفراء ـ مشبعة بحرارة الصيف ـ لا تستطاب فيها لقمة ولا يخفق قلب بالحب .

تبادلا النظرات فى صمت مشحون بالكآبة . أعاد على مسمعها حديث الشيخ . وتبادلا النظر أيضًا . كأنما تقول له «أنت السبب» .

إنهما تعيسان وما بينهما يتدهور كلبنات البنيان الآيل للسقوط . تنهد قائلا :

ـ الحياة لا تطاق .

فأمنت قائلة :

ـ هى كذلك .

اعتراف ينذر بالمأساة . تساءل كمن يتحسس ضرسًا مريضًا :

ـ هل نهجر الدرب ونعيش بلا مبالاة؟

ـ تقول ذلك بلسانك لا بقلبك .

فتساءل متحديًا :

ـ ما عسى أن نفعل؟

ـ أرشدنى فإنك أنت الرجل .

استشف فى قولها سخرية أثارت غضبه فقال غاضبًا :

ـ ما من شقاء إلا وراءه امرأة .

ـ فليسامحك الله ، ولا تنس أنك بدأت بخداعى .

ـ ستصبين الأخطاء فوق رأسى .

ـ كنت القائد وكنت التابعة .

ـ هذا هو الظاهر . . اللعنة!

فهتفت محتجة :

ـ ما دمت قد أحببت فإنى أستحق أكثر من ذلك .

ـ ما أعجب أن نذكر الحب فى مثل حالنا .

ـ لك علىّ ألا أذكره .

وندم على ما فرط منه . ما جدوى الغضب؟ وكبح جماح نفسه قائلاً وهو يجفف عرقه :

ـ نحن نهرب فى الغضب من مواجهة أنفسنا .

ـ طيب أن تذكر نفسك بذلك .

فقال كالمعتذر :

ـ وداد، إنك امرأة ناضجة على رغم صغر سنك، لك مزايا عظيمة، الفتونة لم تخلب لبك فأخلصت لنداء قلبك، تحديت الحارة وهربت معى، ناضجة ومحترمة، عظيم، اقترحى على .

فقالت متأثرة بندمه :

ـ اقترح أنت .

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ الشك يمزق قلبى، أأنا ضحية عبث؟ أم العبث من خلق تعاستى؟ فى مثل حالى هذه لا يحسن بى أن أتخذ قرارًا!

ـ تستطيع أن تتخذ قراراً فى جميع الأحوال .

فتنهد قائلاً :

ـ سأحمل الشيخ ضرغام رسالة إلى معلمى القديم موجود الدينارى أسأله عن شروطه لكى يعفو عنا .

فصمتت غير قليل ثم تمتمت :

ـ افعل، لا حيلة لنا، لا أتوقع خيراً .

١٥

جاءها بالرد فى مساء اليوم التالى أو اليوم الرابع فى مقامها الجديد .

قال لها بوجه ناطق بحيرته :

ـ كما توقعت .

فقالت بأسى :

ـ لم أتوقع خيراً .

ـ إنه أفظع من ذلك . لقد قال للرسول : «قل للأعمى أن يستمر» !

فانتقلت الحيرة إلى وجه وداد وغمغمت :

ـ أن تستمر ؟ !

ـ هذا ما ردده فى آخر لقاء لى معه .

ـ تستمر فى ماذا؟

ـ لم يزد عما قلت ولم ينقص .

ـ أهذا هو شرطه ليعفو عنا؟

ـ لم يجر للعفو ذكر فى جوابه .

ـ لا شك فى أنك تفهمه خيراً منى .

ـ إنه يتعمد إبقائى فى الحيرة حتى أجن !

ـ ليته يقنع بذلك ويعفو عن أهلنا .

فضحك ضحكة جنونية وقال :

ـ لن يكف يده عنهم قبل أن أصدع بأمره وأستمر .

ـ إذن فعليك أن تستمر .

ـ فى مـــاذا؟

ـ لم لا تستوضحه؟

ـ فعل الرسول ولكنه لم يرد، الشيخ ضرغام نفسه قال عنه إنه يتعذر التفاهم معه بيد أنه نصحنى بأن أفعل ما يمليه علىّ ضميرى .

ـ رجعنا إلى ما قبل السؤال .

ـ توهمت مرة أنه يعنى أن أستمر فى المهمة !

ـ ولكنك أخفقت من أول خطوة .

ـ لا أستطيع أن أحكم لأننى لم أطلع على كل ما يدور فى رأسه .

فتساءلت نافذة الصبر :

ـ أهلنا هل ينتظرون حتى نحل هذه الألغاز؟

فقال متجاهلا مقاطعتها العصبية :

ـ توهمت مرة أخرى أنه يدعونى إلى إصلاح الخطإ .

ـ هل يقبل الحل الذى ترتئيه؟

ـ لا أدرى ألبتة!

فهتفت :

ـ ثمة مهمة عاجلة وهى أن نرفع العذاب عن أهلنا وأن نبعد عن هذا الجو المعادى لنا .

ـ هذا يعنى أن نذهب .

ـ بل يعنى أن نرجع إلى الحارة .

ـ لا يمكن أن نرجع ونحن زوجان وإلا عد ذلك تحديًا له .

ـ يجب أن نرجع .

قال بأسى :

ـ وداد ، إنك تفكرين فى التخلى عنى .

فشهقت بالبكاء ولم تدر ما تقول ، فقال :

ـ هبنا انفصلنا فهل يعفو عنا؟

ـ ثمة أمر مؤكد وهو أنه سيكف عن أهلنا وسننجو من هذا الدرب البغيض .

فتمتم كالمتردد :

ـ من يدرى؟

فقالت بوضوح :

ـ إنى راجعة . .

ـ يلزمنا مزيد من التفكير .

ـ نحن نزيدهم عذابا ، ونتعذب أيضًا ، فلنقدم ولنكل أمرنا إلى الله .

١٦

عليه أن يستأذن المعلم الشبلى صاحب الفضل والحماية . إنه حريص على النزاهة بقدر ما هو متهم بالخيانة . شعر مرة أخرى بالفارق الكبير بين الدارين ، دار الشبلى ودار الدينارى . هنا فناء واسع ولكنه موحش ولا زرع فيه والإصطبل تفوح منه روائح أليمة . وتجرى الأبراص بين عمد الأسقف البارزة . الشبلى نفسه لا ينعم جسده بالنظافة إلا حين انطلاقه إلى المقهى . أجل إنه ـ بخلاف الدينارى ـ واضح ، ولكنه وضوح الابتذال والتفاهة . والحق أنه على رغم كل ما كان لم يحب الشبلى ولم يبغض الدينارى . وقد مهد لمطلبه قائلاً :

ـ لن أنسى فضلك ولا ما وجدته فى دربك من أمن .

فقال المعلم ببرود :

ـ لعله يثمر معك .

فقال متصبراً على اللطمة :

ـ لن أنسى فضلك أبدًا .

ـ ماذا تريد؟ . . أراهن على أنك لم تحضر للسؤال عن صحتى !

ـ صحتك دائمًا عين المراد ، المسألة أننا لم نعد نطيق البقاء مع ما بلغنا عن انتقام الدينارى من أهلنا .

فتساءل الرجل فى سخرية :

ـ أجئت تطالبنى بحماية أهلكم؟!

ـ ما إلى هذا قصدت ، ولكننا قررنا الرجوع إلى حارتنا وليفعل الله ما يشاء .

ـ هل ترجع بخطيبة معلمك وهى على ذمتك؟

ـ سيكون الطلاق ضمن ما نقدّم من تضحية .

فتهلل وجه الرجل وقال :

ـ هو الصواب ولا لوم عليك .

ـ لذلك جئتك مستأذنًا فى العودة .

ـ لك ما تشاء ، ولكن يجب أن يتم الطلاق هنا!

ـ لكن حدوثه فى الحارة خير لنا .

فقال بإصرار :

ـ أرى أن يتم هنا .

فتساءل شطا فى ارتباك :

ـ وما وجه الحكمة فى ذلك؟

ـ لترجع زوجتك إذا رجعت بمشيئتها لا بحكم كونها زوجتك .

ـ ولكنها صاحبة الاقتراح .

ـ ولو ، قد تغير رأيها وتؤثر البقاء وحدها!

قالها بوضوح غليظ فأدرك شطا من فوره أن الرجل يريدها لنفسه! فقال بقلق :

ـ هيهات أن أنال العفو عن الأهل إذا رجعت وحدى .

فقال بقحة ونبرة منذرة :

ـ لا يهمنى ذلك!

فقال متوسلاً :

ـ معلمى . . .

ولكنه قاطعه قائلاً بخشونة :

ـ لقد قدمت لك خدمة لا توزن بثمن وجاءت نوبتك لترد إلىّ بعض الجميل .

تردد شطا فواصل الرجل غاضبًا :

ـ اذهب وطلق !

١٧

اهتز عودها الرشيق من الغضب وهتفت :

ـ لن يكون هذا أبدًا .

فرمقها شطا بحزن ويأس مدركًا عمق المأزق الذى وقع فيه فهتفت :

ـ فلنهرب !

فقال بذهول :

ـ هيهات أن يتيسر لنا ذلك .

فحدجته بنظرة غاضبة وقالت :

ـ لقد أخطأت بذهابك إليه .

ـ فعلت ما يقتضيه الواجب .

ـ دائمًا يقودك تصرفك إلى مشكلات لا حل لها .

ـ إنى أفعل ما يمليه علىّ ضميرى !

فقالت بحنق :

ـ لا شك فى أنه يطالبك بأن تحمى أيضًا زوجتك .

فهتف بغضب :

ـ أجل ، ولكن ما حيلتى؟

ـ هل يمكن أن تتركنى له ثم تذهب؟

فتمتم شاردًا :

ـ غير ممكن .

ـ ماذا تنوى أن تفعل؟

ـ لا أدرى .

ـ إنه يتوقع أن تصدع بأمره .

ـ أجل .

ـ هل تصدع بأمره؟

ـ كلا!

ـ ماذا تنوى أن تفعل؟

ـ لا أدرى .

ـ أكاد أن أجن .

ـ ما أنا إلا رجل مفرد أمام عصابة فى درب لا صديق لنا فيه .

ـ إنك تفكر فى التسليم .

ـ إنك لا تفكرين إلا فى ذاتك .

فقالت محذرة :

ـ شر ما نفعله فى موقفنا الحرج أن نتشاجر معًا .

ـ من الخير أن نذكر أنفسنا بذلك .

عند ذاك دق الباب فنهض شطا إليه يفتحه فدخل الشبلى يتبعه مأذون الحى ونفر من رجال العصابة .

١٨

ابتسم الشبلى عن ثنيتين ذهبيتين وقال :

ـ جئنا لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه!

تراجعت وداد إلى ركن الحجرة وهى تحبك جلبابها حول جسدها متسائلة :

ـ أى اتفاق؟

ردد الشبلى عينيه بينهما ثم قال بهدوء منذر :

ـ ها هو ذا المأذون، واختر من الرجال شاهدين.

فغلى دم شطا فى عروقه وملكته نشوة كالتى دفعته إلى قبول المهمة فى غرزة المنارة فقال :

ـ لا اتفاق بيننا يا معلم.

فاربد وجه الشبلى وتساءل :

ـ ألا تريد أن تطلق؟

فقال شطا وهو يفتح صدره على مصراعيه للمجهول :

ـ كلا.

فرنا إليه مليا بين رجال متوثبين فى صمت يشل الخواطر، ثم التفت نحو المأذون قائلاً :

ـ اذهب فلا حاجة بنا إليك.

ولما أغلق الباب وراءه قال :

ـ لى طريقتى ولكل شيخ طريقة، ولدى دائمًا ما هو أفتك من القتل!

وتنحى جانبًا وشطا يتابعه بعينيه أما الرجال فاتجهوا نحوه متحفزين فصرخ به شطا :

ـ تقدم أنت يا جبان .

انقضوا عليه فدارت معركة حامية . كال لهم ضربات صادقة وتلقى ضربات مجنونة . صارع بقوة وشجاعة ولكن توازنه اختل فهوى . ارتمى عليه الرجال فأشبعوه حتى نزف الدم من بين أسنانه وأنفه . وأوثقوا يديه وقدميه وجلس أثقلهم فوقه . مضى الشبلى نحو وداد وهو يقول مخاطبًا شطا :

ـ فلتر بعينيك عاقبة عنادك !

١٩

أخيرًا خلت الحجرة لهما . تحطمت قوائم الكنبة الوحيدة وتفزر حشوها وتغطت الحصيرة بالطين والتراب ، وفاحت رائحة العرق . ذهب الرجال مخلفين روائحهم والجريمة . تكومت وداد ممزقة الملابس وطرح شطا على الأرض ملوثًا بالدم معذبا بالوعى . حجز بينهما صمت وشعور عميق بالحرج . أما الحزن والغضب فقد استقر فى أعماق الروح . وتملص من الصمت فقال :

ـ لا تحزنى ، أنت بريئة وطاهرة .

تحجرت نظرتها أكثر فقال متأسفا :

ـ بذلت المستحيل !

تحركت من مرقدها . سوت ثوبها ، مضت مترنحة إلى الدهليز . عادت قابضة على سكين . تمنى لو تغمدها فى قلبه . راحت تقطع

وثاقه. تحرك متأوها وراح يجفف دمه بطرف جلبابه. أخذ راحتيها بين يديه مغمغما:

- يا للتعاسة!

فقالت بصوت غريب:

- لنذهب.

فقال متوعداً:

- لأقتلنه ذات يوم!

- قد تقتل قبل ذلك، فلنذهب.

- لا شك فى أن الحكاية تتردد الآن فى سوق الدرب.

فقالت بكآبة:

- ستسبقنا إلى الحارة أيضًا.

ثم رفعت منكبيها استهانة وتساءلت:

- أين يتم الطلاق؟

فصرخ:

- لن أطلق أبدًا.

فاتسعت عيناها فى ذهول فقال بإصرار:

- أبدًا.. أبدًا..

- وعذاب الآخرين؟!

- إنى ماض إلى مقابلة الدينارى ومواجهة المستحيل!

٢٠

غادر شطا الحجرى ووداد مسكنهما فيما يشبه الزفة . أحدق بهما الرجال فتبعوهما حتى عبرا بوابة المتولى مخلفين وراءهما الدرب الأحمر وذكرياته الدامية . قال شطا :

ـ لم يبق لنا إلا أن نواجه مصيرنا بشجاعة .

فتمتمت وداد :

ـ من يصدق أننا لم نلبث فى الجحيم إلا خمسة أيام !

ـ ساعة واحدة كافية إذا حم القدر .

ونفخ غاضبًا ثم استدرك :

ـ ليت فى الوقت متسعًا للصبر حتى يزول الورم عن أنفى وشفتى لأرجع إلى الحارة على الحال التى تركتها عليها .

ـ هيهات أن ترجع تلك الحال !

فقال متوعدًا :

ـ لى رجعة إلى الدرب الأحمر !

ـ فلنفكر فيما نحن مقبلون عليه .

ـ لن أعرف الجبن والتردد بعد اليوم .

وقبيل مدخل الحارة بخطوات وشمس الظهيرة تصب على الميدان نارًا ، رأى طباع الديك يدخن نارجيلة أمام دكان النجار . انقبض صدره ، وانقبض أكثر عندما نهض الرجل طارحا خرطوم النارجيلة على المقعد مقبلا نحوه فى ترحاب ظاهر :

ـ أهلا، لم تخلق الغربة لنا.

صافحهما ثم وقف يردد عينيه بينهما ثم قال:

ـ قلبى معكما، إنها لمأساة حقّا!

فتساءل شطا نافد الصبر:

ـ أتنوى الشماتة بنا؟!

فقال مستفظعا:

ـ الشماتة؟! أنسيت أنى أعتبر أمك أما لى؟ أنسيت تزكيتى لك عند المعلم؟ أنسيت تحذيرى لك فى الوقت المناسب؟ أنسيت أيضًا أننى أعتبر الاعتداء على عرضك اعتداء على عرضى أنا؟!

آه.. إذن وصلت الحكاية مع أشعة الشمس! وهتفت وداد محتدة:

ـ إنى شريفة على رغم أنف الجاحدين.

فقال طباع الديك:

ـ وجه زوجك يشهد بشجاعته فى الدفاع عنك.

فهتف شطا:

ـ لن ينجو المجرم من العقاب.

ـ شهم ابن شهم، ما عليك الآن إلا أن تنال عفو المعلم.

ـ هذا ما جئت من أجله.

ـ الأمور معقدة ولكن متى كانت الدنيا يسيرة؟ وكلما ازداد الرجل همة ازدادت الدنيا له تعقيدًا، ولكن لن ينسى أبدًا أنك كنت السابق إلى قبول المهمة!

فقال شطا بعصبية:

ـ لن يخدعنى كلامك المعسول. لقد علمتنى المصائب فى أيام ما لم أتعلمه فى عشرين عاما، وهيأتنى لمواجهة المصير أيا يكون.

ـ عفارم، لا يعيبك إلا سوء ظنك بالناس، وشر سوء الظن ما حاق بالأصدقاء، وكان يجب أن تعلم أن الشماتة ليست من شيم الفتوات!

٢١

قال شطا لوداد وهما يمضيان نحو الحارة:

ـ إني لا أصدقه ولا أثق به.

فقالت وداد بعدم اكتراث:

ـ ولا أنا.

وهما يدخلان الحارة همست وداد بخوف لأول مرة:

ـ ما أفظع لقاء الناس.

فقال شطا بتحد:

ـ ليكن ما يكون.

انتبه لهما قليلون راوحت نظراتهم بين الشماتة والازدراء. همس شطا:

ـ فلنسرع نحو دار المعلم.

ترامت إلى أذنيهما تعليقات:

ـ الهاربان.

ـ الخائنان.

ـ المهتوكان.

أخيرًا طالعتهما البوابة العملاقة.

٢٢

ها هو ذا موجود الدينارى . ها هو ذا وجهه الذى لا يفصح عن شيء . مثلا أمامه فى ذل واستسلام . ولما لم يتكلم أو يوح برغبة فى الكلام قال شطا :

- ليس فى نيتى الاعتذار ، ذنبى أكبر من ذلك ، ولكنى جئت مسلما نفسى لتقضى بما تشاء .

لزم المعلم الصمت . ترى أيخفى وراء الصمت غضبا؟ أم سخرية أم عبثا؟ . ونفد صبر وداد فقالت :

- لن نسألك شيئًا لأنفسنا ، ولكننا نطلب الرحمة لأهلنا الأبرياء .

لم يتغير مظهره ولكنه تساءل بهدوء :

- ماذا يشكو أهلكما؟

- إنهم يعانون العقاب الذى استحققناه نحن .

- هل تحريتم ذلك عند أهلكما؟

- كانت دارك مقصدنا الأول ولكن ذلك ما بلغنا فى مهجرنا .

- كذب ما بلغكما!

فذهل شطا كما ذهلت وداد . أما المعلم فقال :

- إنى فتوة الحارة وحاميها وليس من مذهبى أن آخذ البرىء بالمذنب .

فقال شطا بحماس :

- هذا هو المأثور عن شهامتك .

- ولكنكما صدقتما ما بلغكما مما يقطع بسوء ظنكما بى .

فتمتم شطا استحياء :

ـ الغربة أفسدت عقلنا .

ـ ما دام هذا التصور الخاطئ هو ما دفعكما إلى المجيء ، فلكما أن ترجعا ولن يتعرض لكما أحد .

فهتف شطا الحجرى :

ـ لا حياة لنا إلا أن تقضى فى أمرنا بما أنت قاض .

ـ لا أصدقك فقد عهدتك تقول قولا وتفعل نقيضه .

ـ كان الحرص على الشرف وراء كل فعل فعلته .

ـ إذن أنت تتهمنى بأننى أكلفك بما يناقض الشرف؟ !

فقال شطا بحماس :

ـ معاذ الله يا معلمى ولكنك تضن على بإدراك مطالبك .

ـ إما أننى عاجز عن التعبير وإما أنك عاجز عن الإدراك .

فقال شطا وهو يعانى مرارة القهر :

ـ أعترف بعجزى ولكن ما حيلتى؟ . . لقد أرسلت إليك من يسألك عن شروطك للعفو عنى فكان الجواب «قل للأعمى أن يستمر» ، أستمر فى ماذا؟ فكرت فى إصلاح الخطإ فماذا كانت النتيجة؟ !

عند ذلك قالت وداد وكأنما تجيبه عما يسأل :

ـ كانت المأساة الدامية والفضيحة التى سبقتنا إلى الحارة .

ـ لعلكما تتصوران أننى المتهم !

فهتف شطا :

ـ معاذ الله ، حسبنا الآن أن نتلقى حكمك .

فأشار المعلم إلى وداد وهو يسأل شطا :

ـ ما زالت على ذمتك؟

ـ اتخذنا قراراً بالطلاق والرجوع، ثم كان الاعتداء الأثيم فأقلعت عن فكرة الطلاق إلى الأبد.

ـ وإذا أمرت بتطليقها؟

فأحنى شطا رأسه صامتًا ويائسًا فقال المعلم:

ـ في الصمت جواب.

فقال شطا:

ـ إني أنحدر من خطإ إلى خطإ، ولن ينتشلني من العذاب إلا أن تقضي فيّ بما ترى.

فقال المعلم مخاطبا وداد:

ـ إني أقرأ في عينيك فكرة أخرى، ما هي؟

فقالت وداد بجرأة غير متوقعة:

ـ أن تعفو عنه وأن تعيده إلى جماعتك!

ـ حقًا إنك أنسب شريكة لمن كان مثله.

فقالت ثملة بجرأتها:

ـ حسبنا ما ذقنا من عذاب وحسبه ما أبدى من شجاعة.

فالتفت المعلم نحو شطا متسائلاً:

ـ أهذا رأيك أيضًا؟

فقال شطا بانكسار:

ـ إني منتظر قضاءك!

ـ يا لك من ماكر.

ـ مثولي بين يديك يقطع بصدقي.

ـ بل أنت تريد أن تتوسل بالحكم إلى إدراك ما غمض عليك.

فقال مغلوبًا على أمره:

ـ أروم حياة مطمئنة . .

أمسك الرجل عن الكلام حتى تشبع الصمت باللهفة والأشواق، ثم قال :

ـ استمر !

فتطلع إليه شطا فى حيرة بل فى فزع فقال الرجل :

ـ هذا هو الحكم، استمر . .

فقال شطا بحرارة :

ـ أريد كلمة واضحة محددة .

فقال المعلم :

ـ لقد أضجرتنى فاذهب .

٢٣

مضى بزوجه إلى بدروم عمارة الجبلى . كانت أمه ـ ستهم الغجرية ـ فى الخارج فجلسا وحيدين . اجتاحته الحيرة والتشاؤم بخلاف وداد التى راحت تقول :

ـ كان بوسعه أن يضربك أو يطردك من الحارة أو يصر على طلاقنا، الحق أنه عفا عنا . .

فتساءل :

ـ ماذا منعه من النطق بالعفو؟

ـ لعله عز عليه أن ينطق به بعد ما كان منك، ولكن ألا ترى أنك حر، لم ينلك أذى، وأنك ستواصل الحياة مثل بقية الناس؟

ـ لم يتركنى حراً، أمرنى أن أستمر، ثبتنى فى أعماق الحيرة، لم يطردنى من العصابة ولم يرجعنى إليها، لم يعاقبنى ولم يعف عنى، لم تند عنه كلمة واحدة تدل على الرضا ولا على الرفض.

فقالت بحرارة:

ـ عش حياتك ولا تشغل بالك بألغاز لا حل لها.

ـ ولكن كيف؟! ألا يجوز أن أحاسب فجأة على أننى «لم أستمر»؟ ما زلت أشعر بأننى مكلف بأمر ما، غير أننى أجهله هذه المرة جهلا تاما.

ـ يخيل إلى أن محور همك يدور حول إيمانك بجديته المطلقة، أليس هو فى النهاية رجلا يجدّ حينا ويلهو حينا آخر؟ أليس من المحتمل أنه يميل إلى العبث وأنه وجد فيك مادة صالحة لعبثه؟! أبعده عن ذهنك وعش حياتك ولن تلقى مكروها أبداً.

ـ لو افترضت به العبث لانقشعت الحيرة من أساسها، ولكنه رجل أقوى من الطاحونة وأدق من الساعة.

ثم رماها بنظرة مقطبة وتساءل:

ـ أيرضيك أن ترجعى ما حل بنا من شقاء وتضحية إلى اللهو والعبث؟!

* * *

ولما رجعت ستهم فرحت بعودته ولكنها رحبت بفتور بوداد. وقبل مضى يوم راحت تعاتبه على ما جر على نفسه من سوء السمعة. والحق أن أقرانه لم يداروا عنه احتقارهم، وكاد أهل الحارة يقاطعونه مقاطعة كاملة. اضطر إلى أن يبحث عن رزقه بعيداً عن الحارة وتجرع الغربة وهو بين الأهل والجيران.

وتساءلت وداد بمرارة:

ـ متى تنسى حكايتنا؟

فقال لها:

ـ إنه عقابه الذى لم يعلنه.

فصرخت:

ـ بل إنهم أوغاد ولا رحمة فى قلوبهم.

فغمغم شطا وكأنه يهامس نفسه:

ـ استمر.. استمر.. ما معنى هذا؟!

٢٤

مضت الحياة بمرها الكثير وحلوها القليل. ظل شطا يسعى خارج الحارة ويعيش فيها بلا صاحب. وقبل أن ينقضى الصيف الثقيل وقع الشبلى فتوة الدرب الأحمر فى خطإ لا يغتفر. راح يتباهى بأنه اغتصب وداد خطيبة الدينارى على مرأى من شطا الحجرى «رجله الثانى». ترامت الأنباء إلى الحارة مصحوبة بأغان داعرة صاغت الحادثة فى قالب مزاح ساخر. وإذا بالحارة تشهد تعبئة لم تشهدها من قبل. تسلح الرجال بالنبابيت والخناجر، وشحنت عربات بالزلط والقوارير وخردة الحديد. وانضم شطا الحجرى إلى الرجال دون أن يدعى إلى ذلك وهو يقول لنفسه: «جاء اليوم الذى أحلم به».

وكانت غزوة مفاجئة وفى رابعة النهار. نشبت معركة حامية ما زالت ذكرياتها حية فى رءوس الكهول ودوائر الأمن. وحقق شطا حلمه فطعن الشبلى طعنة قاتلة متلقيا فى الوقت ذاته عشرات الضربات القاتلة. وكان من جراء ذلك أن ثار غضب المحافظة فاتخذت قرارها الحاسم.

٢٥

عندما درجت فى مدارج الوعى، كانت حكاية الدينارى قد انطوت فى أعطاف التاريخ ولكنها كانت ما تزال حية فى القلوب. لقد قضى على المعلم بالسجن عشرة أعوام، ولما أفرج عنه فرضت عليه رقابة دائمة فابتاع مقهى النجف ومارس حياة مواطن كسائر المواطنين. جلس على كرسى الإدارة مجللا بالشيخوخة والمهابة والذكريات الباقية. وقد قتل شطا الحجرى فى مواجهة بطولية محت العار عن سمعته وكفرت عن زلته، فنشأ ابنه الوحيد رضوان محوطا بالاحترام. وقيل إن الدينارى تكفل بدفنه فأول ذلك بأنه تقدير أخير له وبولغ فى التأويل حتى قيل إنه اعتبر رجله الثانى. وقد رأيت بعينى وداد وهى امرأة تجاوز الأربعين وكانت تبيع الخوص والريحان فى مواسم زيارة المقابر. وأدركت موجود الدينارى وهو يدير النجف وقد مضى عهد الفتوات والفتونة. اختفى الرجال وبطلت الشعائر فأصبح الرجل فى نظر القانون صاحب مقهى وتحت المراقبة الدائمة، ولكنه ظل فى نظر العباد فتوة الحارة وحاميها، حتى الشرطى وشيخ الحارة لم ينجوا من دفقة الشعور العام فكانا يختصانه بالاحترام وحسن المعاملة. أجل زالت عنه تقاليد الفتونة ولكن بقى له السحر الخفى الذى لا يبالى بالقوانين والأوامر الإدارية، بقى له التاريخ والمهابة والأثر الحى.

هكذا جذبنى مقهى النجف قبل أن أبلغ سن الشباب. وكنت أجلس فى ركنى المنعزل أسترق إليه النظر بشغف المعجبين وخيال العاشقين.

وكان بهاؤه يتجلى فى الأعياد فكأنها لم تخلق إلا له. كان يجلس

على الأريكة متلفعا بعباءة جديدة، ممشطا اللحية والشارب، وتمر أمامه عربات الكارو محملة بالنساء والرجال والأطفال فى أثوابهم الجديدة الملونة فى هالة رائعة من الطبل والزمر والرقص:

يا فتوتنا يا دينارى

يا حبيبنا يا دينارى

يا حامينا يا دينارى

ثم تدوى الهتافات والزغاريد، ويثمل العاشقون بكئوس المجد والعشق والحنين العارم إلى النصر.



أمشير

١

المارون بشارع رأس الحكمة بزيزينيا يجذب أنظارهم القصر الأبيض. عم عمارة الجعفرى البواب يجلس عادة على أريكته أمام الباب الكبير، هادئ النظرة تتحرك شفتاه الغليظتان بتلاوة غير مسموعة، لا يكاد يرى ما يجرى أمامه، ولا يبالى بما يقوم خلفه. والقصر الأبيض قابع بطابقيه بين أشجار دائمة الخضرة تتخللها نخلات طويلة رشيقة مغطاة الجذع بأردية بيضاء. وعندما يدور السمر بين البواب والسواق والطاهى حول القصر الجميل يثنى عم عمارة على صاحبه جندى بك الأعور قائلاً: إن الله يزيده ثراء جزاء ما طبع عليه من إحسان وخلق كريم، إنه يرد تحيات الفقراء بأحسن منها ويوزع الزكاة فى الأعياد والمواسم. ولكن أى غمامة تلك التى تنداح فى الأفق؟ ماذا يحدث بين الناس الطيبين؟ لم يخيل إليه أن وراء الستائر المسدلة قلوبا تردد أصداء الأمواج الهادرة؟ ويدعو الله مخلصا: «اللهم احفظ القصر وأهله، اللهم احفظنا».

٢

فى ذلك الوقت انتقلت جميلة هانم من حجرتها إلى الفراندا الخلفية لمقابلة يحيى. جاءت جادة، حتى الابتسامة المغتصبة لم تحاول أن

ترسمها فوق شفتيها الممتلئتين. واعتبرها يحيى زيارة غير عادية إذ إن أمه تجد ما يشغلها من شئون القصر طيلة النهار. جلست على كرسى إلى جانبه فى الفراندا المشرفة على حديقة الأزهار وحمام السباحة. وكانت الشمس تفترش الأرض الخضراء المترامية بين الأسوار العالية، ولا نأمة تجيء من شارع رأس الحكمة المزين على ضفتيه بالنخلات العشرين. وكان يحيى يستجم قليلا من المذاكرة، مستسلما لدفقات من نسيم الربيع تتلاقى فى وجدانه بأنغام موسيقى خفيفة تنبعث من ترانزستر. فأسكت الجهاز مرحبا بمقدم أمه. بدا فى البيچاما رشيقا طويلا، جامعًا فى صفحة وجهه بين عينى أمه الجميلتين وبناء شعبى لأطراف وجهه الغليظ. وعلى رغم رونق الأم الذى يعد فوق ما تتمنى امرأة فى الخمسين، فقد تجلت بها سمات شعبية فى دسامة يديها وخشونة نبرتها. وإعرابا عن حبه تناول يدها ولثمها وهو يلحظها باهتمام. قالت جميلة هانم:

- لم يعد بينك وبين الامتحان النهائى إلا ثلاثة أشهر كان يجب أن تمر فى هدوء شامل لتتفرغ لعملك، ولكن الظروف تحتم علىّ أن أحيطك بما يقع حولنا.

فرنا إليها بعينيه العسليتين باهتمام متزايد وهو يتمتم:

- ليكن خيراً إن شاء الله.

فقالت بأسف واضح:

- إنه أبعد ما يكون عن ذلك.

طالما شعر بأن القصر يمضى بلا تاريخ فماذا حدث؟ أما الأم فقالت:

- لا أريد أن تباغتك الحوادث. تقرر أن يغادر محروس ابن البك القصر هو وأسرته!

تردد الكلام فى مسمعيه أول الأمر بلا معنى. وسرعان ما لاح

الانزعاج فى عينيه. وتبين له أن منظر أمه ينذر بشر غير محدود. تمتم واجما:

ـ إنه لغز ولكن له تفسيراً ولا شك.

ـ كأنه نوة من نوات البحر، إنى آسفة..

ـ ما معنى تقرر؟.. من صاحب القرار؟

ـ صاحبه واحد، من غيره؟ تقرر طرد محروس وأسرته.

تجهم وجه يحيى. تذكر النفور الدائم بين أمه وحرم محروس، هل أدّى النفور دوراً فى تخطيط هذه النهاية الأليمة غير المتوقعة؟ وقال بحذر:

ـ محروس بك هو الابن الوحيد لجندى بك، فكيف هان عليه أن يطرده هو وأسرته من قصره؟

أجابت جميلة هانم بحزن شديد:

ـ ثمة جريمة شنعاء!

ـ جريمـــة؟!

قالت وصوتها يتهدج:

ـ تصور يا يحيى، لقد دبر الابن جريمة خفية لقتل أبيه!

تصلب عود يحيى من الانزعاج والذهول، تفكر فى معنى ما يلقى إلى سمعه، تأمله مليا برعب، ثم تجلت لمخيلته صورة وداد الجميلة المستقرة فى أعماق قلبه. ما أكذب الربيع الساطع! إنه يسخر من أحلامه العذبة ويعصف بطمأنينته الراسخة. وتمتمت المرأة وكأنما تقرأ أفكاره الدفينة:

ـ الأمر محزن جداّ، وهناك حزن آخر من أجلك أنت.

وراح يقول وكأنما يحادث نفسه:

ـ جريمة خفية؟! من يصدق هذا؟ ولكن كيف؟

ـ إنه الشيطان، أجل لم ينعم الجو بالصفاء بين الأب وابنه، ولكن الأب رجل عاقل وكريم، لم يضن أبداً على ابنه بخير، وكان محروس يعيش فى القصر وكأنه صاحبه، هو وزوجته وابنته، ثم يحاول شراء الطاهى ليدس السم لأبيه؟!

ـ أى غباء وأى جنون!

ـ طوى الطاهى السر فى صدره. أجل إنه صنيعة محروس، ومحروس هو الذى جاء به منذ سنوات ولكنه إنسان أمين فجاءنى وأفضى إلىّ بسره!

ـ أنت؟!

ـ نعم، إنه يتعامل معى يوميا.

ـ وأنت التى أبلغت عمى؟

ـ ذهبت به إلى البك.

ـ الأمر يتطلب تحقيقا عادلا!

ـ عمك ثار وأوشك أن يبلغ الأمر للنيابة لولا توسلاتى إليه أن يفكر فى هدوء وأن يتجنب الفضيحة.

ـ ربما أسفر التحقيق عن لا شىء؟

فقالت بأسى:

ـ عندما ووجه محروس بالتهمة لم يدر كيف يدافع عن نفسه.. كأنما كان يعترف.

تنهد يحيى وتمتم:

ـ محروس فى الأربعين، زوج وأب، لا ينقصه شىء، كيف اشترى جريمة بالنعيم والأمل؟

ـ إنه الشيطان، ومن يدرى؟ العمل يبدو جنونا لا معنى له، والحمد لله أن عمك اكتفى بطرده وحرمانه.

بعيد أن يكون الرجل بريئا. لقد خسر بجنونه كل شىء. ضاع تمامًا. وتذكر مرة أخرى وداد كريمة المتهم. لقد طردت معهم بمعنى من المعانى. أمه ولا شك تدرك ذلك تمامًا. أيضًا زوج أمه جندى بك الأعور. كم من متاعب ترصده فى هذه الأيام الصفراء! ها هى ذى أمه تقول:

ـ إنى آسفة جدّا يا يحيى.

ـ لكن كيف تواجه الأسرة المطرودة الحياة؟

فقالت بعتاب:

ـ يجب أن ترثى أولا لعمك!

ـ بلا شك، ولكن سؤالى له وجاهته أيضًا!

فقالت وهى لا تخفى امتعاضها:

ـ لابد من فترة انتظار حتى تنحسر عواصف الانفعال. فى نيتى بعد ذلك أن أرجو عمك أن يهب الرجل وأسرته عمارة من عماراته حتى لا يدفعه اليأس إلى الجنون!

فقال يحيى مستردّا بعض أنفاسه:

ـ فكرة طيبة..

وطوال الوقت فكر فى وداد، وبدا أن أمه تشاركه خواطره، وقد قالت بصراحة:

ـ إنى حزينة من أجلك يا يحيى.

فقال بوضوح:

ـ إنى أحب وداد، وهى تحبنى، لن يفرق بيننا شىء!

فقالت بإشفاق:

ـ عليك أن تتذكر عمك، إنه فى الواقع أبوك .

فقال بمرارة :

ـ أعلم أننى بفضله أنعم بالحياة فى هذا القصر، على حين أن أبى الحقيقى لا يدرى عنى شيئًا كما أننى لا أدرى عنه شيئًا . وأعلم أيضًا أنه كان من الممكن أن يعاملنى كغريب، كابن زوجته من رجل آخر، ولكنه عاملنى كابنه .

فقاطعته بحماس :

ـ بل عاملك خيرًا من ابنه، وأحبك أكثر منه، حتى قبل الجريمة .

ـ أسلم بهذا، ولكننى أحب وداد أيضًا، وهى بريئة من ناحية وحفيدته من ناحية أخرى .

وسَّدت راحتها مَنْكِبه وقالت :

ـ إنى أطالبك بالحكمة، وأتمنى لك السعادة . .

ـ أنت لم تحبى محروس ولا زوجته ولكن وداد فتاة ممتازة .

ـ رأيك هو المهم، ولكن عليك أن تنتظر فترة ثم لك بعد ذلك أن تفضى بنواياك إلى عمك .

يبدو أن المهمة لن تكون سهلة، وأنه ربما اضطر إلى المقامرة بمنزلته عند الرجل . وهو لا يتعذر عليه النفاذ إلى أفكار أمه الخلفية، ولكنه قال متظاهرًا بالبراءة :

ـ سوف أتحين فرصة مناسبة . .

ـ ورجائى ألا تثير غضبه . .

فقال بضيق :

ـ إنى حريص على رضاه ولكنى لن أفرط فى وداد .

فقالت بصوت منخفض :

ـ تخيل ما يعدك به المستقبل!

لم يرتح لقولها. وعلى رغم ثقته فيها تساءل عن الدور الذى قامت به فى هذه القضية. شد ما تفزعه الوساوس. وقد كان دائمًا يؤاخذ هذا القصر على تقديسه للمال. إنه لا ينكر أهمية المال ولكنه يكره أن ينصَّب هدفا أعلى للإنسان. لا حديث لأهل القصر سوى النقود والسلع. وقد دفعته تلك التقاليد إلى الالتحاق بكلية التجارة، كما دفعت وداد بعده. ومن أجل ذلك المعبود حرص الابن على قتل أبيه، وها هى ذى أمه تتوثب لاستغلال الموقف الجديد لصالحه. قال برجاء:

ـ لا تحدثينى بما يثير اشمئزازى..

فقالت باسمة:

ـ لا أحد يحب الفقر.

هز منكبيه صامتًا. أدرك بوضوح أن المتاعب الجديدة لن تعفى أحدًا من آثارها.

٣

الشاطئ ما زال خاليًا. الرياح معتدلة مشبعة ببرودة ودودة آمنة. وفى أحضان العذوبة المنتشرة تراقصت الأمواج فى رشاقة. لم يكن فى كازينو جليم سوى العشاق. جلس يحيى ووداد فى طرف الكازينو المطل على الخليج قبل الغروب بساعة. أول مرة ذلك العام غيرت وداد ملابس الشتاء فتجلى عودها الرشيق تحت البلوزة البيضاء الثرية والبنطلون الرمادى. جميلة ببشرتها القمحية وعينيها السوداوين وشفتيها المضمومتين، ولكنها جادة واجمة. لم تجمع بينهما جلسة كئيبة كهذه

الجلسة من قبل. اختفى من عينيها المرح والدلال كما اختفت من عينيه الأشواق. جلسا جنبا لجنب وراء الترابيزة ينظران إلى البحر المنفسح بعينين لا تريان شيئًا. وكانت تقول:

ـ أقمنا فى شقة مفروشة، حياة لا يمكن أن تستمر طويلا، لا ندرى شيئًا عما يخبئه لنا الغد.

فانغمس فى الشجن وهو يقول:

ـ لكن والدك اكتسب خبرة فى الأعمال عندما كان يعمل فى مكتب والده.

ـ لا أعتقد أنه يتوافر له اليوم رأس مال كاف، ثم إن التهمة الظالمة ستطارده طويلا.

تنهد قائلاً:

ـ حتى الآن لا أصدق ما وقع.

فقالت بإصرار:

ـ أبى ينكره وأنا أصدقه.

ـ فما الحقيقة إذن؟

ـ لعله سوء تفاهم استغل أسوأ استغلال.

شعر بأن ثمة اتهاما يحوم حول أمه مثل ذبابة، فضاق صدره ولكنه قال:

ـ أيكفى ذلك لاختلاق جريمة تفرق بين الأب وابنه الوحيد؟!

فقالت بامتعاض:

ـ المصائب تفوق الخيال..

وصمتا قليلاً فى حزن بالغ حتى قال يحيى:

ـ إذا كان للموضوع حقيقة خفية فلن تغيب طويلا، وسوف يوجد

للموقف العسير حل، أما نحن فعلينا أن نركز فى الواقع الذى يتحدانا.

فلم تدر ما تقول فواصل حديثه:

ـ ما بين يوم وليلة أصبح تلاقينا لا يتم إلا سرا، كأننا غريبان. هذا هو الواقع الذى علينا أن نتعاون على تحطيمه.

ـ ولكننى لا أستطيع أن أنزع نفسى من مشكلتنا القائمة.

ـ المأساة مأساتنا معًا، سنفكر طويلاً، لن نتركها ولن تتركنا، ولكن علينا قبل ذلك أن نتفق على الدفاع عن حبنا حتى الموت!

فقالت بصدق:

ـ حبنا فى حرز حصين، لسنا أطفالا، ثم إنك ستختم دراستك بعد ثلاثة أشهر وسوف ألحق بك بعد عامين، ولكن كيف نعيش فى هذا الجو الخانق؟!

ـ إنه يُظِلُّ القصر أيضًا، لا أحد يبتسم، وهو يهدد حبنا.

ـ لسنا أَطفالا.. ولندع للزمن فرصته.

ـ أود أن نسبق الزمن، أجل يجب أن أنتظر مهلة ولكن لا مفر من مواجهة جدك، وعليك أنت أن تتصدى بشجاعة لأى عدوان يجىء من ناحية محروس بك أو شريفة هانم، ثم إننى فى النهاية شخص غريب ليس إلا ابن زوجة جدك..

فقالت بإشفاق:

ـ إنك معدود ابنا له!

ـ لا أنكر ذلك ولكنى لن أتخلى عنك أبدًا.

قرر أن يخفف عن أعصابهما بشرب الكوكاكولا، مضى يراجع ما انتهى إليه فوجده طيبا لا بأس به، ثم قال متماديا فى نشدان الأمان:

ـ وداد، اعتدنا المصارحة دائمًا، هل ساءك ضياع الثروة المتوقع؟

فتفكرت قليلاً ثم قالت:

ـ يشغلنى الآن همّ أسرتى.

ـ لم تجيبى عن سؤالى.

ـ الثروة نعمة، وحياتها عادة، لا أدرى كيف أتخلص منها.. ماذا عندك أنت؟!

ـ أنا أيضًا اعتدت مستوى لا تؤهلنى له حقيقة أصلى، ومذ أدركت أنى شخص فقير هيأت نفسى للحياة البسيطة.

ـ زدنى إيضاحًا.

ـ وداد، لم أرتح أبدا لولع أمى وعمى بالمال.

ـ يمكن أن نحبه دون أن نعبده.

فهز رأسه فى حزن ولاذ بالصمت، فقالت بنبرة دعابة لم تخل من فتور:

ـ أعلم أنك تحب سماع الموسيقى أكثر من اقتناء ثروة.

ـ أتسخرين منى؟

ـ كلا، ولكن تردد فى بيتنا الحزين أن الخطوة التالية المتوقعة من جدى هى أن يملكك ثروته بطريقة قانونية!

شعر للمرة الثانية بالاتهام الحائم حول أمه فقال بشىء من الحدة:

ـ لو خيرت بين ثروته وبينك فلن أتردد فى الاختيار.

فقالت بأسف:

ـ ستكون حياتنا متواضعة جدًا.

فقال بعتاب:

ـ سيعوضنا الحب عن كل شىء!

فابتسمت ابتسامة خفيفة، وكان قرص الشمس يهبط وديعا أليفا فى الشفق وقد استلت منه روح الشباب الفائر.

٤

تلقى من أمه خبراً بأن عمه يدعوه إلى مقابلته فى الحديقة. قالت له بحرارة:

ـ تذكر أنه أبوك، وتذكر أنه لم يبق على امتحانك النهائى إلا ثلاثة أشهر، وأنك يجب أن تحافظ على صفاء ذهنك.

مضى إلى الرجل الذى عاش طفولته وصباه وهو يؤمن بأنه أبوه، ويحبه ـ وما زال ـ مثل أمه. لم يعرف الحقيقة إلا عندما اطلع على شهادة ميلاده لأول مرة، عندما نودى فى المدرسة باسم يحيى عويس الدغل لا يحيى جندى الأعور. عند ذاك عرف أنه ابن رجل آخر لم يره، يدعى عويس الدغل، طلق أمه وهو طفل ثم هجرهما إلى حيث لا يدرى. ولولا مجىء جندى الأعور وزواجه من أمه واحتضانه له لتعرض لمصير مجهول لا خير فيه. كانت لطمة أليمة ولا شك، ولكن رعاية الرجل له أنسته ألمه وانكساره. وقد شب وعاش فى النعيم كأنه ابن الرجل الطيب. فعليه أن يتذكر ذلك التاريخ الذى لا ينسى، كما يتذكر حبه.

وجد البك جالسًا فى الدائرة الخضراء كما يحلو له أن يدعوها. هى ربوة مستديرة خضراء السفح، مسقوفة بمظلة من الخشب الأبيض على هيئة قبعة تتدلى منها المصابيح وضفائر اللبلاب. جلس على أريكة وثيرة فى جلباب أبيض، وضىء الصلعة، بين يديه فوق الخوان قارورة ويسكى وجردل أحمر ملىء بمربعات الثلج، وطبق فستق مقشر. ربعة بدين ذو كرش جسيمة، بيضاوى الوجه لحيمه، قوى الفك غائر العينين

فى أنفه فطس ذو شارب غليظ لم تشب فيه شعرة واحدة على رغم بلوغه الستين. حياه الفتى وجلس ـ كما أشار إليه ـ فى قبالته. النسمة رائقة، وحفيف الغصون يبعث هسيسا هامسًا، والأرض تضحك بألوان الأزهار، وشذا الربيع يفوح مسكرا. قال يحيى لنفسه إن الجو يسخر منهم ويعلن لا مبالاته بأحزانهم. قال الرجل وكان لا يعرف اللف والدوران:

ـ ثمة حديث ما عاد يجوز تأجيله يا يحيى.

فاعتدل يحيى فى جلسته استعداداً فقال جندى الأعور:

ـ ما حصل قد حصل لا حيلة لنا فيه.

فتمتم يحيى:

ـ ربنا معك.

ـ ما زلت آسفا على أننى لم أسلمه ليد العدالة.

ـ تصرفت معه بما يتوافق مع خلقك الكريم.

فصب فى الكأس جديداً من الويسكى وقال:

ـ لم تكن الجريمة مفاجأة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، فهو لم يضمر لى حبا ولا خيراً. وعلى العكس كنت دائمًا حذراً من ناحيته، دائمًا أتوقع ما لا يسر، ولا جدوى من حسن المعاملة مع أمثاله بل لعلها زادته شراً. إنه الشرير الحقود، وكم من مرة أضبطه متلبسًا بسرقة المكتب وأعفو، ماذا ينقصه؟ إنه عاش فى بيتى عيشة الملوك، ولعب بالقرش لعبا، لكنه فاسق قذر ومقامر مجنون.

غشيته كآبة من مدخل الحديث فتنبأ له بنهاية غاية فى السوء. أما الرجل فقال بقوة ووضوح:

ـ وشد ما حقد عليك كأنما تقاسمه لقمته، وشد ما طالب بطردك من القصر!

كان يشعر دائمًا بفتور عواطف الرجل نحوه، وزوجته أيضًا كرهًا فى أمه، ولكن حبه لوداد جرف النفايات من مجرى حياته، أيضًا لم يتصور أن النفور يتمادى لحد المطالبة بطرده. غير أن ما كان يهمه حقا فهو الحب وحمايته من إعصار الموقف الهائج. وصمت جندى الأعور حتى تستقر كلماته فى أعماقه ثم واصل حديثه:

ـ له بطانة من السفلة والعاهرات، وقد بلغ الخامسة والأربعين من دون أن ينال ذرة من الرشد.

لاحت الدهشة في وجه يحيى.. تكشفت له أسرار بشعة لم تجر له فى خاطر. واستحضر صورة زوجته الجميلة فازداد دهشة. ما وداد إلا صورة جديدة من أمها فكيف هان على محروس بك أن يخونها؟! وقال جندى الأعور بتقزز:

ـ زوجته لا تجهل مغامراته.

فتمتم الشاب فى انزعاج:

ـ هكذا؟!

ـ ولم تسكت المرأة الجريئة فردت الصفعة بأقذر منها!

لاح التساؤل فى عينى يحيى فقال جندى الأعور:

ـ انحرفت من دون مبالاة متشجعة على ذلك بأصل قذر!

ـ لكن.. لكن..

فقاطعه:

ـ لا تكن ساذجًا يا يحيى، لقد انحرفت، وقد كانت فى الأصل عاهرة محترفة!

اصفر وجهه وهتف بصوت متهدج:

ـ لا..

فضحك جندى الأعور وقال :

- براءتك مذهلة، مثل أزهار هذه الحديقة، ولكن آن لك أن تفيق. المرأة كانت محترفة، وقد تزوج منها على رغمى مدعيا أنه يفعل خيراً يستحق عليه الثواب، لم تكن إلا شهوة عمياء ينز بها ثور، وقد رجع إلى فسقه وأرجعها إليه.

أحنى يحيى رأسه فى غاية من الغم فقال الرجل :

- حاولت الإصلاح فلم أوفق، هددته وهددتها، انتهى الحال بإنذاره بالطرد والحرمان فكان رده السعى لاغتيالى.

تنهد يحيى أو تنفس بصعوبة فمضى الرجل قائلاً :

- لا شك عندى فى أنها شريكته، إنها داهية بقدر ما هو غبى.

امتلأ الجو بالغبار فلم تبق ثغرة لكلمة طيبة، غير أن جندى الأعور قال :

- أمك تلح علىّ فى أن أهبه عمارة دفعًا للمزيد من شره ولكنى ما زلت مترددًا.

عند ذاك قال يحيى بشجاعة :

- أعتقد أنه اقتراح حكيم، فهناك أيضًا حفيدتك وهى بريئة.

فقال بازدراء :

- لا أصدق أن تخرج نبتة طاهرة من مستنقع قذر.

فقال يحيى مستميتا فى الدفاع :

- لكنى أعرفها حق المعرفة.

فقال ساخراً :

- أنت لا تعرف شيئًا، لذلك رأيت أن الواجب يطالبنى بإزاحة الستار عما لم تعلم خصوصا وأنه لم يبق لى سواك!

فتمتم وهو غائب تمامًا :

ـ شكرًا لك يا أبى .

أدرك أنه مقبل على أيام محنة وبلاء . أدرك أيضًا أن الوقت غير مناسب للمواجهة . لا بأس من الانتظار ولو أنه لا توجد بارقة أمل فى السماء المكفهرة .

٥

بقى على الامتحان شهران ونصف الشهر . من أين له العقل الذى يستوعب به دروسه؟ حتى الموسيقى لم يعد يتذوقها ، وهو كمحب ثابت ولكن موقفه حرج . وعندما سألته أمه عما دار بينه وبين عمه أجاب إجابة عامة موجزة دون إشارة إلى ما قيل عن وداد وأمها . فعل ذلك وهو لا يشك فى إحاطتها بما قيل كلمة كلمة . وإيمانه بنقاء وداد لا يمكن أن يتزعزع ، والأهم من ذلك فهو يحبها حبّا لا تنال منه الاتهامات فضلا عن الشكوك . فى عالم النساء الساحر لا يخفق قلبه بحب سوى حبها ، فهى مصدر الإشعاع والعذوبة فى دنياه . ومن أجلها سيوجه الضربة الأخيرة لذلك القصر المزهو برشاقته .

وذات يوم قالت له وداد :

ـ لدى رسالة إليك ، أبى يرغب فى مقابلتك .

وسمَّت له اليوم والساعة فى المسكن الجديد بشارع أبى قير . وافق بلا تردد . لو تردد دقيقة لخسر وداد إلى الأبد . إذا علم عمه بالزيارة فستحدث أمور ولا شك . إن القدر يقتلع جذوره المغروسة فى جنة رأس الحكمة جذرا بعد جذر ، وهو يمضى نحو المأساة بكامل إرادته ووعيه .

من هو حتى يحاكم جندى بك الأعور أو زوجته شريفة هانم الدهل؟! إنه على رغم البراءة لا يخلو من أخطاء وعبث. ولا ينسى آراء أقرانه فيه، فهم يرونه من أولاد الذوات المدللين، لا هم له إلا أناقته وسماع الموسيقى. منطو أنانى لا لون له، غير مبال بالتيارات التى يسبحون فيها ويعانون من أجلها ما يعانون. فمن هو حتى يحاكم جندى بك أو شريفة هانم؟!

ووجد الرجل فى انتظاره. رجل قصير قوى صغير الرأس غزير الشعر والشارب كبير الأنف جاحظ العينين. رحب به، ابتسم له كما لم يفعل من قبل، ولكنه لم يشك فى أن مقته قد تضاعف. ترى ماذا يريد منه؟ أى شرك يحفره تحت قدميه؟ ليكن ما يكون ما دامت وداد له. كان الوقت صباح الجمعة. مضى أوله فى احتساء القهوة وتلقى نظرات محروس المتفرسة. أخيراً قال الرجل:

- ستسمع فى القصر حكايات مثل حكايات ألف ليلة فلا تصدق ما يقال. الرجل مجنون.

فقال يحيى بنبرة متوترة:

- لقد اختلط ما يصدَّق بما لا يصدَّق ودار رأسى.

- إنه الحقد والجنون.

- لكنه أبوك.

- ما خفى عنك أنه مجنون!

- سيدى، إنه رجل استثمار ورب أسرة ومحسن كبير.

- لا تغرك المظاهر، إنه الإدمان والشذوذ والجنون، يوجد آخرون يعلمون بالحقائق ولكنهم يتجاهلونها لاستغلاله أسوأ استغلال.

لعله يشير إلى أمه. حقّاً قد طفحت القلوب بالحقد. وقال على رغم امتعاضه:

- ليس مستحيلا أن تنتهى الأمور إلى خير.

ـ هيهات، لقد حيكت مؤامرة بمهارة خبيثة فتهولت فى خيال رجل مجنون ملئت أذناه بالأكاذيب المتواصلة مثل دقات الساعة!

إشارة أخرى إلى أمه. حتى متى يتحمل ويتصبر؟! وتساءل:

ـ ألا تستطيع أن تظهر الحق؟

ـ فات الوقت، كيف تطالبنى بالتفاهم مع مجنون؟!

وفرقع بأصابعه ثم تساءل:

ـ من هو جندى الأعور؟!

وبرقت عيناه بوحشية ثم تطوع بالإجابة:

ـ ستقول إنه صاحب المكتب التجارى المعروف، ورجل الخير والإحسان. أما المدمن الشاذ المجنون فلا يعرفه إلا خاصته المنافقون، ولا أهمية لذلك بالقياس إلى الحقيقة وهى أنه لص رسمى من أرباب السوابق والسجون.

وتضاحك هازئًا ثم سأله:

ـ ماذا قال لك عنا؟

أجاب يحيى بلا تردد:

ـ لا شيء..

ـ هل تصدقنى القول؟

ـ أجل.

ـ سيفترى الأكاذيب عاجلاً أو آجلاً ولكنى سأروى لك قصته.

تساءل يحيى متضايقا:

ـ ما جدوى ذلك؟

فابتسم إليه ابتسامة صفراء وقال:

ـ إنها قصتك أيضا وقصة والدتك!

خفق قلبه ناشراً توقعات مبهمة ومقلقة، فواصل الآخر حديثه:

ـ إنه تاريخ لابد أن يعرف، لوجه الحقيقة والاعتبار، ولكى يتعرى جندى الأعور كما ينبغى له، وعند ذلك تعرف من أنت. الحقيقة أن جندى الأعور سرق أباك الحقيقى، لم يسرق ماله فقط ولكنه سرق أيضًا زوجته.

هتف مستنكرًا:

ـ أمى؟!..

ـ نعم، صبرك، بدأت الحكاية بتزامل أبى وأبيك فى السجن!

ـ لا!

بدرت منه فى حدة فقال بهدوء:

ـ صدقنى، ما أقول إلا الحقيقة، إن يكن ثمة عار فهو لاحق كلينا، لقد تزامل أبى جندى الأعور وأبوك عويس الدغل فى السجن، تزاملا عامين فقد دخل أبوك السجن حينما لم يبق من مدة أبى فيه إلا عامان، وقد دخلاه بتهمة واحدة على وجه التقريب. كانت تهمة أبى سرقة بالإكراه وتهمة أبيك السرقة للمرة الثالثة.

ارتعشت يدا يحيى من شدة الانفعال فصمت الآخر قليلاً ثم قال:

ـ إنى آسف، أرجو أن تتمالك نفسك، لا مفر من الكشف عن الحقيقة مهما تكن بشعة مرة. أقول لقد تزاملا فى العامين واطلع كل منهما على كثير من أسرار الآخر، وصارا بذلك صديقين، عرف أبوك أن أبى أرمل وأنه ترك وراءه فى الحارة شابا ضائعًا هو أنا، وعرف أبى أن أباك ترك زوجة ورضيعا هو أنت.

على رغم غضبه واحتجاجه شعر بأن الحكاية لا يمكن أن تكون محض خيال، فما من واقعة ذكرت إلا ويمكن التثبت من صدقها، ترى ماذا هناك أيضًا؟

ـ عرف أبى أن أباك سرق امرأة تدعى دليلة الفقى جعلت من مسكنها بنك رهونات، سرق الذهب كله، وادعى فى التحقيق أنه فقده، ولم توفق الشرطة فى العثور عليه. ولما غادر جندى الأعور السجن رجع إلى حارة التكية وهى أصلنا جميعا، رجع فى رأسه خطة.

بلغ يحيى نهاية فى اليأس والقهر ولكنه أصغى إلى محدثه ومعذبه بكل جوارحه فاستمر الرجل وهو يبتسم ابتسامة ظفر:

ـ أمك جميلة وكانت وقتذاك أجمل بالشباب، وكانت تكدح لتطعمك فى ظروف سيئة، فزارها أبى بوصفه صديقا لزوجها، ورهن نفسه لخدمتها. وكنت أراقبه على كره منه إذ كنا دائمًا نتبادل سوء الظن والنفور وكان أيضًا يخشى جانبى. وما تدرى الحارة إلا وأمك تطالب بحقها فى الطلاق من أبيك، ثم تتزوج من أبى، ويقرران هجر الحارة، غير أنه اضطر إلى اصطحابى معه خوفًا منى!

سكت ليشرب قليلاً من الماء على حين انتظر الآخر فى كآبة وحزن، وقد شعر نحوه بمقت لم يشعر بمثله لإنسان من قبل. واستطرد محروس:

ـ سافرنا إلى الإسكندرية، ومضى أبى يبيع الذهب ويستثمر المال، وفى الحال أدركت أنه استولى على الكنز المسروق بإرشاد زوجته، ومضى يعمل ويثرى، وشيد القصر وابتنى العمارات، وتنكر فى صورة جديدة تناسب حياته الجديدة، بل عرف بالخير والإحسان، بفضل السرقة والغدر والخيانة، بفضل ثروة أبيك، وهى ثروتك إذا شئت، التى أدى أبوك ثمنها أعواما طويلة فى السجن من عمره.

نفخ يحيى غيظًا وقهرًا. آمن بأن حياته كانت سرابًا وأنه لم يبق منها ولا قبضة من تراب.

وضرب محروس الخوان براحته وقال:

ـ الحكاية قديمة أفلتت من قبضة القانون، ولكنها الحقيقة. إنه لا يحبك كما تتوهم، إنه لا يحب أحدًا، لقد كره ابنه الحقيقى فماذا تنتظر؟ وأنت صاحب الثروة والمذكر الدائم له بماضيه.

وسكت دقيقة طويلة ثقيلة ثم تساءل:

ـ ما رأيك فى الحكاية؟

فقال يحيى بجفاء:

ـ فظيعة لا تصدق.

ـ ألم تصدقنى؟

ـ لا أدرى ماذا أقول.

ـ لكن اليقين عند والدتك!

صمت قهرًا ويأسًا. أدرك مرماه الجهنمى. إنه ما استدعاه إلا ليعطيه الفتيل الذى يفجر به حياته وأهله. ولكن هل ثمة مهرب؟!

٦

خلا إلى نفسه فى حجرة مكتبه بحجة الاستعداد للامتحان ولكنه غرق فى همومه حتى قمة رأسه. إنه يتساءل دائمًا ماذا عليه أن يفعل. ويرى أنه يجب أن يبدأ من الصفر ولو تهاوى الحلم القديم فوق رأسه. كل شىء يدعو إلى التقزز وقد تحول إلى دودة ترتع فى الزبالة. وبدا أنه لم يحسن إخفاء ما يعتلج فى نفسه كما وضح له ذلك من نظرات عمه وأمه عندما تجمعهم المائدة. وإذا بأمه تسعى إليه فى خلوته. إنه يراها بعين جديدة. يرمق جمالها بأسى، يستشف وراء ربة القصر المرأة

الكادحة المدعوة جميلة الأسطى . المرأة الخائنة . أجل إنها تزهو بالطول والعرض ولكنها محشوة بالقش . قالت بحنان :

ـ لا شك فى أنك حزين ، ولذلك فإننى يائسة .

ولم ينبس . سحقا لأكاذيب الحياة كافة . قالت بإشفاق :

ـ لا شك فى أن عمك أطلعك على حقائق مرة .

هانت بالقياس إلى حقائق أخرى . قطب مصرا على الصمت فقالت :

ـ كلما أدركت مدى ألمك حز فى نفسى الألم ، ولا شك فى أن احتمال فقد وداد احتمال أليم ولكنه لا يقاس بالكارثة التى عصفت بعمك .

فقال بجفاء :

ـ لا أوافقك على ذلك .

ـ يحيى . . تصور الأمر بعين عادلة .

فقال متخطيا حاجز التحفظ :

ـ ليس هذا بكل شىء .

فلاحت فى عينيها نظرة تساؤل ، فقال متراجعًا :

ـ سوف يضيع العام الدراسى هدراً!

فهتفت فى جزع :

ـ كان يجب أن تظل بمنأى عن همومنا .

ـ ما كان كان .

فتنهدت وقالت :

ـ لقد سمعت كلاما ، وربما سمعت أكثر ، تعلم كيف لا تكترث .

ـ كيف؟

ـ يحيى ، تذكر ما تحوزه من فرص ، إنك نجم هذا القصر ، سيئول

إليك كل شيء فيه، أمامك حياة طويلة عريضة ثرية، كل أولئك أشياء حقيقية، أما ما يقال فما هو إلا كلام لا يجوز أن يؤثر فى الأشياء الحقيقية، وداد نفسها بنت جميلة ولكن كم من جميلة تفوقها فى الإسكندرية!

فتساءل فى سخرية:

- والحب أليس له اعتبار عندك؟

- ما قيمته إذا ضيع فرص الحياة السعيدة؟

فعلى رغمه قال:

- لكنه قوة، بسببها ينتحر أناس ويقتل آخرون ويغدرون..

فوجمت قليلا ثم تمتمت:

- العاقل لا يحرص عليه إلا إذا آمن بأنه طريقه إلى السعادة..

إنه يحوم حولها ولكنه يشفق من الانقضاض عليها. أجل إنها تستوى أمام ناظريه امرأة ولكن وجدانه مازال ممتلئا بها كأم. يهم بتوجيه ضربة ولكنه يتوقع أن ترتد إلى صميم قلبه. ما كان يتصور أن يصدق كلمة مما قال محروس ولكنه تلقى كلامه فى وقت تزعزع فيه كل قائم. تلقاه بعد أن شهد الابن ساعيا لقتل أبيه، والأب طاردا ابنه وملوثا حرماته، فأى شيء لا يصدق؟ وإذا بها تقول وهى تتفرس فى وجهه:

- إنك لا تفتح قلبك لى..

فلم يحر جوابا فقالت:

- لقد حدثك عن محروس؟

- أنت تعرفين ذلك..

- وحدثك عن شريفة أيضا؟

- هل افترى عليها كذبا؟

فقالت بصوت متهدج:

ـ ما أبشع الصدق أحيانا!

فقال بتحد:

ـ كثيرا ما يكون كذلك.

ـ ولكنَّا يجب أن نقدس الحياة الموهوبة لنا!

ـ ولكنها تتمخض كثيرا عن أوهام وأشباح!

ـ ما أتعسنى بسماع ذلك.

فقال بتسليم:

ـ إنى تعيس حقا..

فقالت برجاء حار:

ـ ولكننى مصممة على بعث الابتسامة فوق شفتيك!

٧

عندما ترامقا غاصا فى خيبة جديدة. كازينو جليم شبه خال، الكوكاكولا والمغيب المقترب. قال لنفسه لو وجدتها مرحة سعيدة كالأيام الخالية لخاب أملى أكثر. قال لها بحنان:

ـ وداد.. لست على ما يرام.

ـ لست أسوأ حالا منى..

ـ لقد توقفت تماما عن المذاكرة.

ـ سنة ضائعة لكلينا..

جعل ينظر إليها وهى تهرب إلى الأفق الغارق فى البحر، حتى سألته بنبرة محقق:

ـ ماذا قال لك أبى؟

لم يدر ماذا يقول. العار مطوق لكليهما، ولكن ما عسى أن يقول؟ أخيرا تمتم:

ـ يخيل إلىّ أنك تعرفين كل شىء!

فلاذت بالصمت، فإذا به يندفع قائلا وهو ما لم يغفره لنفسه:

ـ قضى علىّ بأن أسمع ما أكره، تارة من أبيك وتارة من جدك!

أمالت وجهها نحوه فى ارتياب فغض بصره آسفا، وعند ذاك سألته:

ـ ماذا قال جدى؟

قال وكأنه يدافع عن زلته:

ـ علينا أن نعرف الحقيقة لنقرر مصيرنا ونحن على هدى، ماذا سمعت؟

فقالت بحزن:

ـ عين ما قيل لك، ولا داعى لإعادته.

ـ القصة القديمة عن السجن والغدر؟

ـ القصة القديمة عن السجن والغدر، فماذا قال جدى؟

عاوده الاندفاع ليؤكد لها أنهما ينهلان من مستنقع واحد، قال:

ـ تكلم بدوره عن والديك.

فعاودها القلق والتوتر وقالت:

ـ أبى متهم، طيب، ماذا عن أمى؟

ـ لعله الغضب يا وداد.

ـ أريد أن أعرف ما عرفته.

ـ إنه سخف لا أكثر ولا أقل.

ـ كلا، إنك تصدق ما قيل، فما هو؟

ـ إنني في حيرة .

فتساءلت بإصرار .

ـ ما هــو؟

ـ ماذا تتوقعين من رجل إذا أراد أن يعيب امرأة؟

اصفر وجهها، ازدردت ريقها، ثم قالت بحدة :

ـ أريد كلاما واضحا!

فقال ضارعا :

ـ لا تعذبيني فإنني كما ترين على أسوإ حال .

لاذت بصمت ثقيل أليم ثم تساءلت :

ـ ماذا بقى لنا؟

فقال بقوة لأول مرة :

ـ كل شيء، الحب . .

ـ ما معنى الحب في مثل حالنا؟

فردد معنى رددته أمه من قبل، ربما دون إيمان حقيقي :

ـ ما يهم هو الحياة الموهوبة لنا . .

فقالت ساخرة :

ـ إذن فــمــا علينا إلا أن نذاكــر، ثـم نمضى مــعــا أرادوا ذلك أم لم يريدوه . .

ـ هو ذلك!

فقالت بيأس :

ـ نحن نهذى يا يحيى .

ـ ولكن . . .

غير أنها قاطعته متسائلة :

ـ صارحني بما تنوي عمله!

فقال مستسلما:

ـ جئت راجيا من تلاقينا أن يبعث فينا روحا جديدة.

فقالت بحدة:

ـ لكننا تبادلنا أنباء الفضائح والتعاسة.

ـ كان لابد من التعرض لذلك..

فتساءلت بأسى:

ـ أين المحبان القديمان؟

ـ ها هما ذان، أنا وأنت!

ـ يحيى، إنك عاجز عن تجاهل ما سمعت!

ـ وأنت كذلك، ولكننا سنقهر ما يعترضنا.

وساد الصمت والحزن. وعند ذاك استدعى شجاعته وقال بنبرة اعتراف:

ـ وداد، قررت أن أسافر.. هذه هي الحقيقة!

فحدجته بنظرة متسائلة منزعجة، فقال بالنبرة نفسها:

ـ قررت أن أسافر إلى القاهرة، إلى الحارة..

ـ أتعني حقا ما تقول؟

ـ بيقـين!..

ـ خطوة غريبة تقطع بأنك أعجز ما تكون عن تجاهل ما سمعت؟!

ـ إنها لا تقاوم..

ـ هل تطمع من ورائها إلى خير؟

ـ يجب أن أقطع الشك باليقين.

فتساءلت بعد تردد:

ـ هبها أكدت ما سمعت؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ ليكن ، بوسعى بعد ذلك أن أقرر تجاهلها ، بل لا معنى لتجاهلها إن لم أعرفها معرفة يقينية فى منبعها ، ولا بديل عن ذلك سوى العذاب .

فرفعت منكبيها فى استسلام وهى تغيب فى مهوى الشمس المخضب بالاحمرار ، وقالت :

ـ نصحتنى أمى بقطع علاقتى بك زاعمة أنها لن تجر وراءها إلا العذاب . .

فقطب قلقا وهو يرمقها بعنف فقالت بهدوء :

ـ ولكننى رفضت النصيحة هازئة بما سمعت فانظر إلى موقفك أنت!

ـ أشكرك يا وداد ، لا أتوقع منك قراراً آخر ، ولكن لا تدعى الاستهانة ، وإلا فما تفسير هذا الحزن القاتم الثقيل؟!

ـ إنها الصدمة المباغتة ، والانهيار المنقض ، وانتثار الأسرة الواحدة . .

فقال متنهدا :

ـ لذلك قررت السفر!

ـ سافر إذا شئت أما قلبى فإنه يتوجس أوخم العواقب . .

فتوسد راحتها براحته وقال :

ـ حبنا ثابت راسخ ، إنه مثل الضوء لا يعنى اختفاؤه حينا إلا أنه يدور دورته ليريق ضحكته الإلهية فى الصباح التالى . .

٨

ثمة جو جديد فى قصر رأس الحكمة ينفث رائحته الكئيبة. جندى بك لم يعد نفس الرجل، ولا جميلة هانم.. إنهما يبذلان جهدا لا يستهان به ليمارسا حياتهما اليومية فى هدوء وطمأنينة، كما كان الحال قبل الجريمة. الأسى يتجلى وراء الأقنعة كما يتجلى العمر وراء التصابر. أما هو فلم يلبس قناعا، ولم يبال بمشاعر الآخرين. وكانوا يحتسون القهوة بعد الغداء فى حجرة الجلوس الزرقاء عندما فاجأهما بقوله:

- إنى أستأذن فى السفر.

وقالت أمه بقلق:

- لم أتوقع ذلك، ولم يبق على الامتحان إلا أقل من شهرين.

- إنى لا أكاد أعمل، وبى اضطراب لا يمكن تجاهله، فلا بد من رحلة قصيرة للنقاهة..

- كان يجب أن تكون قد تغلبت على الكدر.

- لم أوفق إلى ذلك.

- ولكن أين تسافر؟

فأجاب بثبات:

- إلى مرسى مطروح.

فسأله جندى بك:

- أهذا قرار ضرورى؟

- أعتقد ذلك، بضعة أيام أسترد بها صفائى..

وهمت أمه بالاعتراض ولكن جندى بك قال :

ـ فليذهب ، وسوف يرجع على أحسن حال .

٩

إنه يقوم بأخطر رحلة فى حياته . رحلة المغامرة والتضحية والحقيقة . هى أيضا رحلة الهروب من العذاب . ربما إلى عذاب أعمق وأكثف . كأنه لم ير القاهرة قط ، كأنه من مواليد الإسكندرية . هجرها وهو ابن ثلاث ورجع إليها وهو ابن عشرين . دهمته القاهرة كأخطبوط خرافى . لم يجد شوقا للتقلب فى جنباتها فاخترق قطاعها الأوسط إلى الحى العتيق . أودع حقيبته فى حجرة بالكلوب المصرى وراح يدور من شارع إلى حارة . إلا حارة التكية أجل اقتحامه لها حتى يتشبع بالاستعداد . وقال له صوت من الداخل : «ماذا تفعل؟ لا تكن سخيفا ، ارجع من حيث أتيت ، انجح فى الامتحان ، انتظر وداد عامين ، تزوج بها ملقيا بالهموم جانبا ، مستهينا بجندى وعويس ، بجميلة وشريفة ، ليس فى الأمر مشكلة حقيقية» .

ولكن انتصب أمامه إغراء الحقيقة القاسى . على رغم شعوره بالعبث . وهل كانت إلا معركة بين لصين؟ ونادى عزيمته واقتحم الحارة . اقتحم الألوان الفاقعة والأصوات المتفجرة ، الحاضر الصاخب والماضى المتحفز ، النظرات المحملقة والقهقهات المتحشرجة ، نداءات الحرف المختلفة بالأصوات والدقات والروائح النافذة ، ومهرجان الأزياء من البدل والقفاطين والجلاليب فضلا عن الأجساد شبه العارية ، والعطفات والأزقة ، والبيوت المتداعية والعمارات الجديدة الشاهقة . ها

هى ذى امرأة تنادى مثلما كانت أمه تفعل، وها هو ذا رجل يتصعلك كما فعل أبوه وعمه، وها هو ذا طفل يلعب بفأر ميت ربما كما فعل هو. هنا تقررت مصائر عويس الدغل وجندى الأعور وجميلة الأسطى وشريفة الدهل. ذهب وجاء وهو يتساءل عن الراوى الذى سيهتك له حجب الظلام، من يكون؟ وأين يجده؟ ووقعت عيناه على عجوز قابع وراء صندوق الماركات فى المقهى الوحيد فحدس أن يجد فيه بغيته. وقد صدق الحدس. .

١٠

صدق حدسه فالرجل عجوز مقيم ومقهاه من معالم الحارة الأثرية. اختار أقرب مجلس إليه وراح يفكر فى وسيلة للنفاذ إليه واستدراجه للحديث. لفت نظر الرجل إليه ببقائه المتواصل وكرمه مع صبى القهوة. ونفد صبر صاحب المقهى العجوز فسأله باسما:

- أنت منهم؟

فتساءل - مرحبا بالحديث - عمن يقصدهم، فقال العجوز:

- رجال الجرائد؟

فانتهز الفرصة وزعم أنه منهم فقال العجوز:

- كثيرا ما يجيئون ويصورون ويأخذون ما يشاءون. .

فقال يحيى بدهاء:

- إنى أبحث عن حكايات، ولكل حكاية ثمنها!

فاختلج جفنا العجوز فوق عينيه الكليلتين وقال بإغراء:

- حارتنا حارة الحكايات. . ولكن لابد من جلسة كيف!

فوافق على شروطه ولكنه قال :

ـ تحت شرط أن نكون منفردين . .

* * *

هكذا جمعهما سطح مسكن العجوز . جلسا على وسادتين فوق كليم تحت ضوء النجوم تسعى حولهما دجاجات ناقة مقوقئة . تظاهر يحيى بأنه يدخن فجعل يملأ شدقيه بدخان الجوزة وينفثه فى قرف لم تتح للرجل رؤيته . ولم يضن عليه بما طلب من نقود . وصبر على ثرثرته عن أسعار البن والسكر والشاى وحكيه لبعض النوادر الدارجة ثم عجز عن كبت لهفته فقال :

ـ اسمع يا معلم سليمان ، لقد سمعت من آخرين نتفا عن حكايات فلم يحظ بانتباهى إلا حكاية رجل يدعى عويس الدغل ولكنها جاءت ناقصة لا تشبع ، فهل تعرف أصل هذه الحكاية؟

فسعل العجوز سعلة محترف وقال :

ـ عويس الدغل عليه اللعنة ، إنه عظه كل مغفل فى حارتنا ، ماذا سمعت؟

ـ لا أهمية لذلك ، أريد أن أسمعها من راوية محنك مثلك ، إنها حكاية مدهشة . .

ـ لا تدهش ، عندما تبلغ من العمر ما بلغته فلن تدهش لشىء أبدا . .

ـ حقا؟! ولكن هل ما زال الرجل حيا؟

ـ وهل يبقى على ظهرها إلا الأشقياء؟

وضحك فجاراه فى ضحكه وهو يجد غمزا أليما فى قلبه ، ثم سأله :

ـ ماذا يعمل؟

ـ إنه فى السبعين، تربية شوارع وسجون، وهو اليوم أحد ثلاثة فى حارتنا يرتزقون من توزيع الكيف. .

ـ إذن فهو فى عيشة راضية؟

ـ لا، موزع القطاعى محدود الرزق، تكون حاله أحسن إذا قام به، بالإضافة إلى عمل آخر، ولكن عويس لم يحترف عملا شريفا فى حياته، وعجز أخيرا عن السرقة!

اجتاحته رغبة فى البكاء فقاومها بعنف ساءت به حاله، وقال العجوز:

ـ إنه يعيش فى بدروم فى آخر ربع قبل البهو وإن شئت أن تراه أرسلت فى طلبه؟

فقال بسرعة:

ـ فلنؤجل ذلك. .

ـ لعله نسى.

ـ نسى؟

ـ غدر جندى الأعور وخيانة زوجته، ألم يحكوا لك ذلك؟

ـ بلى، زمالة السجن، الطلاق، والهرب بالذهب والزوجة والابن. .

ـ عندما خرج من السجن أقسم ليقتلنهما، وجدَّ فى البحث عنهما ما وسعه ذلك، وعاش دهرا كالمجنون. .

فقال يحيى بصوت منخفض كيلا يفضح تأثره:

ـ حكاية غريبة.

فقال العجوز بلهجة منتقدة:

ـ الحق عليه، لقد كانت المرأة عاهرة محترفة فتزوج بها، ماذا يتوقع من مثيلاتها؟

آه . . حمدا للظلام، إنه يتحلل مثل جثة الميت . لم يذكر محروس شيئا عن ذلك اتقاء لغضبه غالبا . وها هو ذا يتلقى الحقيقة كلسان من لهب . ها هو ذا. آه ما أفظع الألم!

وواصل الرجل العجوز حديثه منتشيا بأهميته :

- أين ذهب جندى الأعور والمرأة والطفل؟ لم يعلم أحد، وحتى اليوم لا يدرى عنهم شيئا، ونسى عويس الدغل الحكاية كما نسيتها الحارة، ولا شك عندى فى أنه اليوم فى السجن وربما الطفل أيضا . أما المرأة فلا محيد لها من الرجوع إلى مهنتها الأصلية . .

إنه يهبط درجات من الألم أردته إلى أعماق الجحيم فى معزل عن الدنيا جميعا، إنه سقيم فى كون موبوء لم يبق له من الغذاء إلا السخرية، وقال العجوز :

- عندما قبض على عويس هرعت دليلة الفقى صاحبة الرهونات إلى المرأة، توسلت إليها أن ترد الذهب اتقاء لغضب الراهنات والراهنين، فأقسمت بأغلظ الأيمان أنها لا تدرى عنه شيئا، وقصدها الفقراء أصحاب الذهب المرهون يتوسلون ويبكون، أكثرهن نسوة كادحات يشترين الذهب لوقت الحاجة ويرهنه، عند الضرورة . .

فتمتم يحيى بذهول :

- أولئك هن صاحبات الثروة المسروقة!

- دون غيرهن، وهن اليوم فى هذا الغلاء لا يجدن اللقمة إلا بالعذاب، ولعلهن صدقنها فى وقتها حتى ظهر جندى الأعور وهرب بها فتأكدن بأنه ما لعب لعبته إلا من أجل الذهب المسروق . .

فقال يحيى بأسى :

- هن وحدهن صاحبات المال الحلال . .

ـ أما عويس وجندى فلم يكونا إلا لصين وبرمجيين، وقد نال عويس جزاءه فى السجن وخارجه، ولا يدرى أحد إلا بالظن بما حل بجندى . .

وضحك العجوز ضحكة ساخرة واستطرد:

ـ وقد كان لجندى ابن قواد!

ـ ابن جندى الأعور؟!

ـ نعم، وقيل إنه ابن حرام، وإن جندى كان يؤمن بذلك ولكنه كان يخشاه، ولذلك أخذه معه اتقاء لشره، ولعل الولد كان يراقب أباه وزوجة عويس حتى لا يفلتا من قبضته بالغنيمة، وقد تزوج الابن من امرأة محترفة جميلة وكان يقدمها للأعيان!

فتساءل يحيى:

ـ ترى ماذا يفعل عويس لو عثر على جندى الأعور فوجده خلافا لظنك بنعم بالجاه والثروة؟!

فقهقه العجوز وقال:

ـ ماذا بقى من عويس القديم؟ هل يقتل؟ هل يبسط يديه فى ذل سائلا ما يجود به الآخر؟ كلهم لصوص برمجية أوغاد، وليرحم الله ضحاياهم المساكين!

١١

رآه واقفا كالنائم مركونا إلى جدار الربع. هيكل خلا من مقومات القوة، كليل البصر لا يرى أبعد من متر، غائر العينين بارز الجبهة أصلع نابت شعر الذقن يمرق عنقه من جلباب لا لون له من تلبد الغبار

والأوساخ عليه حافى القدمين. مر أمامه ذهابا وإيابا فلم ينتبه الرجل إليه ولم يشعر هو نحوه بأى عاطفة ولكن اجتاحه إحساس شامل بالتقزز والاحتجاج والتمرد. لا يستطيع أن يقدم له شيئا ولا أن يأخذ منه شيئا. إنه غريب تماما ولكنه على رغم غربته قلب حياته رأسا على عقب. مضى ورأسه يشتعل بالأفكار المحمومة. هذا هو أبوه عويس الدغل وهذه هى أمه جميلة الأسطى. وهناك أيضا والدا وداد محروس جندى وشريفة الدهل. إنه ليس الفقر ما يخجل ولكنه الانحطاط. فى هذه القضية يستحق السارق والمسروق لعنة واحدة.

وقد أراد أن يتثبت فجاءه اليقين نافثا رائحته النتنة. ما عسى أن يفعل؟ ماذا يقبل؟ وماذا يرفض؟ الحيرة تمزقه وعليه أن يتخذ موقفا قبل أن يتبعثر بددا. إنه يحترق، لا يمكن أن يحتمل النار إلى ما شاء الله، ولا يمكن أن تمضى الحياة كما مضت على عهد الغيبوبة السعيدة، وله أن يفكر ولكن فليحذر الدوران مع الدوامة بلا عمل حاسم.

إنه بحاجة ماسة إلى وداد، ليتبادلا الرأى، وليتفقا على خطة موحدة. هل يطلق الكلاب المسعورة بعضها على بعض لتقول العدالة كلمتها القاسية فى عويس وجندى ومحروس والجميع؟! قواه الغاضبة تود أن تفعل ذلك وإلا فلا معنى لأى شىء. وإلا فكيف يخرج من الجحيم؟ ولكن لابد من مشاورة وداد. يجب أن تتكلم جميع جوانب نفسه. إنه يرفض أباه وأمه وعمه، ويود أن يوجه ضربات مذهلة.

١٢

وافته وداد إلى كازينو جليم. من أول نظرة من وجهه ارتسم القلق فى وجهها. قال لها محذرا:

ـ لا أحد يعلم بوجودى فى الإسكندرية . .

فسألته بدهشة :

ـ ولم تخفيه؟

ـ ربما رجعت إلى القاهرة مرة أخرى . .

فقالت متوجسة :

ـ هل دعوتنى لتحملنى مزيدا من الهم؟ إنى أعيش أتعس أيام حياتى . .

فقال بهدوء مخيف :

ـ يسعدنى أن أسمع ذلك ، شعور التعاسة فى مثل حالنا هو ما يهبنا الجدارة بالحياة الكريمة ، فلنترك السفلة ينعمون بالحياة فى غمرة سفالتهم . .

ازدادت قلقا ، أما هو فإن وحشية التجربة دفعته بقوة مستهترة إلى المكاشفة قال :

ـ قطعت رحلتى ولكننى سأرجع ، شعرت بالحاجة الماسة إلى مشاورتك . علينا أن ننتهى إلى موقف موحد .

ـ إنك منفعل إلى درجة تخيفنى . .

ـ لا أنكر ذلك ، تلزمنا إرادة حديدية لنستحق حياة نظيفة ، ليس الأمر هزلا ، ولن أباهى بظاهر براق إذا كان الباطن عفنا ، أريد أن أرفض الحياة القذرة . .

قطبت متفكرة فقال :

ـ سأصارحك بالكثير ، المصارحة بكل شىء فوق طاقتى ولكنك ذكية وتكفيك الإشارة . الحياة التى نعمنا بها طويلا حياة زائفة قذرة مهينة ، هناك فى الحارة عرفت أصول الأشياء ، من أبى ومن أمى ، من جدك ومن أبوك ومن أمك . إنه العار والقذارة ، المرارة تنسينى

اللياقة، تنسينى الترفق بك ولكنى لا أترفق بنفسى أيضا، الماضى كله قذر، لا يجوز أن يمتد فى الحاضر، علينا أن نقرر . .

ازداد وجهها الجميل شحوبا وتجلت فى عينيها نظرة كئيبة. قرأها بعمق فخطر له احتمال مخيف وهو أنها قد يفقدها إلى الأبد، وأن يتوه بلا قطرة عزاء فى جحيم المحنة. لكنه كان مشحونا أيضا بثورة طاغية. كان يعانى مقتا لمقدساته القديمة تساءلت:

ـ هل لديك أدلة قاطعة؟

فتفكر قليلا وقال:

ـ التاريخ نفسه لا يملك أدلة أقوى!

فلاذت بالصمت. ولاحظ هو أنها تتجنب المزيد من الإيضاحات. لم تسأله مثلا عما عرف عن والديها. ربما بدافع من الإشفاق وربما لأنها فى غير حاجة إلى سؤال. قال:

ـ فلنطرح الحلول الممكنة أولا، فثمة حل هو أن نتجاهل الماضى بشره ونواصل حياة تحسدنا عليها الملايين!

فبرقت عيناها وقالت وكأنها تستغيث:

ـ فى بيتنا يتوقعون أن ينزل جدى لنا عن عمارة ولو دفعا للشر، يتوقعون أيضا أنه سيملكك ثروته بعد وفاته . .

فساءه أنها تعلقت باقتراح لم يطرحه إلا بدافع الإحصاء وقال:

ـ الحل الثانى أن نرفض القوم وثروتهم وننجو بأنفسنا مهما تكن العواقب لنحيا حياة نقية جديرة بالكرامة . .

فلاحت متفكرة بعمق وصامتة فقال:

ـ لا أخفى عنك أن بى ثورة لا تقنع بذلك، لذلك أفكر فى حل ثالث وهو أن أحرش الشياطين بعضها على بعض حتى لا يفلتوا من العقوبة الرادعة، ولكى تعود إلى الأشياء معانيها . .

فرمقته بارتياع وتمتمت :

ـ إنك تتحدث بجدية تنذر بأوخم العواقب . .

فتساءل متجاهلا قولها :

ـ أى حل نختار يا وداد؟

فقالت بانفعال :

ـ مهما تكن الأخطاء فإننى أرفض أن أقيم من نفسى قاضيا للحكم على والدى، ولا أسمح بأن يصيبهما مكروه على يدى، بل لا أسمح أن يصيبهما مكروه إن استطعت دفعه، ذنبهما على جنبهما كما يقال . .

إنها واضحة وضوحا حفر هوة بينهما . تساءل فى وجوم :

ـ حقا ترفضين؟

ـ وأيضا الحل الثانى أراه خياليا، هبنا تبرأنا منهم فكيف نلقى الحياة بعد ذلك؟ سنضطر عند ذاك إلى الانقطاع عن التعليم، ولن نجد عملا، فهل نموت جوعا أو ننحرف مثلهم؟ إنه حل جميل تهفو النفس إليه ولكنه ليس عمليا يا يحيى . .

أى خيبة تجىء فى إثر خيبة؟! إنه فى واد وهى فى واد. هل تكشف له الأحداث عن شخصية أخرى تحت الشخصية المحبوبة؟! أما هى فواصلت وقلقها يزداد لشعورها بالفارق الكبير بين فتورها وحماسه :

ـ إننى متألمة مثلك، متقززة مثلك، غير أننى أرى أننا ـ أنا وأنت ـ لا نستحق أن نتحمل وزر ما ارتكبه الآخرون. فلنتجاهل الماضى الأليم، لنمض فى حياتنا لا يفرق بيننا شىء. ذلك حتى إذا آلت الثروة يوما إليك فلك أن تفعل بها ما يرضى ضميرك ويكفر عن أخطاء وجرائم الآخرين. .

فقال بازدراء :

ـ معنى ذلك أن نرضى بنعيم اللصوصية والعهر . .

ـ نحن نرضى بواقع علاقتنا بآبائنا . .

فتساءل بغضب :

ـ وبعد أن رأيت بعينى البؤساء الذين هم أصحاب الثروة المسروقة؟!

فقالت بإصرار :

ـ نحن أبرياء، لم نرتكب إثما، بل نحن ضحايا لما نعانى من عذاب، ومن الحماقة أن نرمى بأنفسنا للضياع ونحن نمد يدنا لقطف ثمرة كد السنين، فلنصبر ولو على الأقل حتى نقف على أقدامنا!

فتساءل بحزن :

ـ أهذا رأيك؟

ـ يحيى، كن حريصا على حبنا حرصى عليه، لسنا قضاة ولا شرطة . وإذا أردت هجرهم لفورنا ففكر قليلا فى العواقب، هبنى قلت لك إنى معك فما الخطوة التالية؟ ماذا نعمل؟ أين نعيش؟ أعطنى إجابات محددة وأنا معك، لا أريد أن أقوم بمغامرة ثم أسقط فى الضياع . .

فقال بصوت خامل محشرج بالخيبة :

ـ ليس عندى جواب محدد، لسانك يجرى بمنطق العقل، والعقل أسمج محدث فى موقفنا هذا . الجنون ما ننشد، أعنى الجنون المقدس . .

ـ أرجو أن أكون واضحة تماما، أنا لا أتعامل مع الجنون المقدس، ولعلى لا أعرف جنونا مقدسا، وأنت فريسة للغضب . فعليك أن تعيد التفكير وأنت هادئ متمالك لا نفعالاتك . .

فقال بعد تردد :

ـ أرى أننا مختلفان!

ـ كلا، من ناحية الشعور فنحن شخص واحد، لا أفرط فيك على رغم الحملات المتتابعة، وفى الوقت المناسب سأقرر مصيرى بنفسى، ولكنى أرفض المغامرات الجنونية!

بقدر ما حاصره منطقها ثار عليه، وكلما اشتد الحصار اشتدت به الثورة. ولكنه انهزم. على الأقل لم يمض فى اندفاعه إلى نهايته. أجل اتخاذ القرار. أجله وهو من القلق والحيرة فى نهاية. وهما يغادران الكازينو ضغطت على ذراعه التى تتأبطها إعرابا عن تمسكها به..

١٣

عندما ودعته قال فى نفسه إنها تطالبنى بالصبر ولو حتى الامتحان ولكن ألا يستوى أن أصبر شهرا أو عمرا؟! إنها مسألة مبدإ لا وقت. وقد انكشف عالمه عن حقيقته البشعة القذرة، فكيف يقبله دقيقة واحدة؟ ما زالت نقود عمه فى جيبه، يذهب ويجىء بها، وينعم بقوتها الفريدة. على رغم ذلك كله ما زال مترددا ولما يتخذ قراره. ترى لو رفع صوت العقل فى كل حين أكان يستشهد شهيد؟! العقل يحكم فى الفلك لا فى السلوك. إما براءة وإما قذارة. هل يظل ابن لص وعاهرة؟ ولو كانت المعركة صراعا بين لصوص لهان الأمر بعض الشىء ولكنها جناية وحشية ضحاياها أتعس تعساء البشرية!

وتفكر أيضا وهو ماض على الكورنيش أنه لم يبلغ ما بلغ من التربية والتهذيب والمستوى إلا بفضل النهب والدعارة فتضاعف امتعاضه وأساه. وهو على تلك الحال وجد نفسه يتجه نحو قصر رأس الحكمة. ليس لديه قرار نهائى ولكنه سيلقى الموقف بتلقائية ولينظر كيف تتطور

الأحداث. مر بعمه وهو يشارب رجلا غريبا فى الدائرة الخضراء، رحب به الرجل وقال بنبرة المنتصر:

ـ قلت إنك ستضيق بالوحدة فترجع سريعا.

أما أمه فهرعت إلى حجرته متألقة بالسرور وقالت:

ـ خير ما فعلت، لا وقت لديك تضيعه وقد استجاب الله لدعائى..

جلست قبالته وهو يجذب نفسه من بحر الانفعالات الذى يشده إلى أعماقه. بين أمواج متلاطمة من النفور والازدراء والولاء. هاهى ذى تقول إنها تعرف الله وتدعوه وأنه يستجيب لها. وهى تجلس مطمئنة ملقية القدمين على وسادة مزركشة، جميلة وفخيمة وربة قصر، وأى قصر؟! رياح الثورة ما زالت تعصف بأركانه ولكن يقاومها إشفاق لا يخلو من قداسة. ما زال يذكر بشدة منظر أبيه ومناظر الضحايا فيغص بالمرارة. غير أن الرحلة اقتلعت من صميمه التردد والحياء فلذلك اندفع يقول بلا روية:

ـ الحق أننى لم أسافر إلى مرسى مطروح!

ـ حقا؟ إذن أين كنت يا حبيبى؟

فأجاب ببرود منذر بالويلات:

ـ كنت فى حارة التكية بالقاهرة!

تلاشت البهجة فجأة من صفحة وجهها كأنها مصباح كهربائى انقطع عنه التيار. شحب لونها وهى ترنو إليه بوجوم واستسلام. لأول مرة يراها وهى مسحوقة بلا حيوية ولا كبرياء. وجاءه صوتها وانيا متسائلا:

ـ ماذا أذهبك إلى هناك؟ بل من دلك عليها؟

فلوح بيده ولم ينبس، فقالت:

ـ محروس؟!

ـ ما أهمية ذلك؟

وساد الصمت حتى أوشك أن يرثى لها، أوشك أن يندم على ما بدر منه. طال الصمت، وفيه قيل كل شيء بلا كلام. لم يتكلم ولم تسأل. كفى اسم الحارة لبعث تاريخ طويل بكل تفاصيله. ثم نكست رأسها ففقد القدرة على النطق. وقال لنفسه إنه لن يتيسر له البقاء بعد ذلك. لا قتال ولا سلام. ها هى ذى تقوم متثاقلة وكأنها طعنت فى الشيخوخة. مضت نحو الباب فتابعها بعين مودعة. غير أنها وقفت فجأة فوق العتبة. لبثت واقفة دقيقة كاملة. واستدارت بحركة لا تخلو من شدة. تجلى له وجهها جامدا ومتحديا ثم أقبلت نحو مجلسها بتصميم جديد. نظرت إليه مضيقة عينيها وقالت برزانة أضفت عليها ثقة:

- يحيى، ماذا أقول؟ ولكن عليك أن تسمعنى، وقبل ذلك أسألك ماذا عرفت؟

فأجاب وهو ينفخ:

- كل شيء..

- الأمر لله، عليك أن تسمعنى، لقد وجدت نفسى ذات يوم وحيدة منبوذة مكروهة مع وليد رضيع..

ثم وهى تزدرد ريقها:

- كان الطفل أمومتى الأولى والأخيرة فغير نظرتى للأشياء..

وتريثت حتى تعالج أنفاسها وواصلت:

- ثم ظهر فى حياتى رجل يدعى جندى الأعور..

تفرست فى وجهه الواجم ثم قالت:

- لم يكن جندى الأعور خيرا من عويس الدغل ولا عويس الدغل خيرا من جندى الأعور، ولكن كان قدرى أن أجد نفسى دائما بين يدى أحد من أمثالهما، ولم يكن يشغلنى وقتذاك إلا أن أجد مأوى لى ولابنى ففعلت ما فعلت. أى دناءة فى هجر لص من أجل لص

آخر؟! وأى حظ كنت تتوقعه لو انتظرت أباك حتى يفرج عنه؟ وهل تدري أى وحش كان؟!

تنهدت بصوت مسموع، وبدت كمن نجا من الغرق بمعجزة ولكنه لم يبلغ الشاطئ بعد، وقالت بصوت استمد من الشجاعة بعض القوة:

ـ وما كنته قبل أبيك كان محنة لا خطيئة، لقد وجدت نفسى وحيدة ضائعة منذ صباى، وما احترفت شيئا به إغراء لأى آدمى، ولكن أين لمثلك ممن تربوا فى أحضان النعيم أن يدركوا ذلك؟!

ها هى ذى تسخر منه أيضا، وها هو ذا يخنس أكثر وأكثر وقد تداعت أركان مملكته. وقد زادت الأمور تعقيدا واكتنف اتخاذ القرار صعوبات جديدة. أما الأم فمضت تقول:

ـ ولأول مرة يغير جندى الأعور مسلكه فى الحياة فيقرر استثمار ماله عادلا عن الصعلكة والبرمجة، مصمما على تمثيل دور جديد، دور رجل الأعمال المحسن الكريم، ما مدى إخلاصه؟ لا أدرى عن ذلك شيئا ولكن حسبنا أنه صار رجلا آخر وأنه أنشأك نشأة نبيلة، وبوسعى أن أؤكد لك أنه يحبك. إنه ما أحب محروس قط، كان دائما يخافه ويتوهم أنه ابن رجل آخر، ويئس تماما من تغيير سلوكه، فلم يبق له من عزاء سواك، ولا أستطيع أن أحكم على ماضيه بغير العين التى أحكم بها على نفسى. كان ضائعا مثلى ومثل أبيك. نحن لا يديننا إلا من لم يذق مرارة العيش مثلنا، حتى شريفة الدهل كانت مثلنا، أقول ذلك على رغم الكره المتبادل بيننا..

لم يرفع عينيه من الأرض ولم ينبس فواصلت بحرارة جديدة:

ـ إنى أتصور الضربة التى زلزلتك، ألمسها فى وجهك، فى رحلتك المخيفة، ولكن لا أحد يستحق أن يكون هدفا لمقتك وغضبك، إذا علمتك المأساة أن تحزن وتثور فتعلم منها أيضا أن تفهم..

فتمتم بعد صمت طويل :

ـ ما لا عزاء فيه هو أنكم سرقتم أتعس التعساء . .

ـ ما الحيلة؟ ولكن لا تنس أننا كنا أتعس منهم . .

فتفكر مليا ثم قال :

ـ قد لا يكون لى حق المحاكمة ولكن واجبى أن أرفض .

ـ ترفض ماذا؟

ـ هذه الحياة التى لا يمكن الدفاع عن قذارتها!

فقالت بجزع :

ـ يا له من قرار خاطئ، لماذا؟ ما مضى مضى وانقضى . عمك اليوم يرغب فى أن يورثك ثروته وقد شاور محاميه فى الأمر، ثم إنك برىء ولا شأن لك بأخطاء الآخرين!

فأشار إلى صدره وقال :

ـ الرفض من هنا ولا حيلة لى .

فتوسلت إليه قائلة :

ـ هلا أجلت التفكير فى ذلك حتى تنتهى من امتحانك؟

ـ آه . . بأى عقل أتقدم للامتحان؟

فقالت بقوة :

ـ احبس نفسك فى مكتبك كما تعودت أن تفعل، واحذر أن يعلم عمك بما عرفت أو بما يدور فى عقلك . أعترف بأنه غبى وسيئ الظن بالبشر، أجل كل شىء ولا تشغل نفسك الآن إلا بالامتحان . .

١٤

قرر يحيى أن يتأهب للامتحان فخاض معركة ليجمع فكره المشتت المبعثر. أراح قراره أمه ووداد وبعث فى نفسيهما آمالا جديدة. لم يكن راضيا عن نفسه، كان أبعد ما يكون عن ذلك، عد نفسه متردیا فی السقوط مثل آله ودون أن يملك من الأعذار ما يملكون. وواساه فى عذابه أنه مصمم على الرفض عقب انتهاء المرحلة التعليمية، وأن هذا الرفض لا يعنى نبذ الحياة فى القصر فحسب ولكنه يعني أيضا رفض ثروة جندى بك الهائلة.

غير أن أحداثا غير متوقعة انفجرت تحت قدميه، فما يدري ذات يوم إلا وجندى بك الأعور يقتحم عليه غرفة مكتبه. جاء مكفهر الوجه عدوانى النظرات ثم وقف فى وسط الغرفة وخاطبه بلهجة لم يعهدها من قبل قائلا:

ـ لدى سؤال عليك أن تجيبنى عنه.

واشتدت نظرته صلابة وهو يسأل:

ـ هل زرت حقا حارة التكية بالقاهرة؟

ذهل يحيى. تساءل فى نفسه عمن أبلغه. ليست أمه على وجه اليقين. غير أنه لم يفكر لحظة فى الإنكار فقال بتحد:

ـ نعم..

فصرخ الرجل:

ـ إذن فكل ما بلغنى صحيح، والآن دعنى أسألك عما يبقيك فى بيتى؟

اصفر وجهه. هل أجل الرفض ليطرد؟ غلى دمه. قال متحديا:

-إنه بيتى قبل أن يكون بيتك!

قهقه جندى بوحشية وصاح:

-عليك اللعنة، لقد اعتدت أن أوجه عشر ضربات قبل أن أتلقى الضربة الغادرة. إنى لا أخشاك، لا أخشى أباك، ولا أخشى أمك، لقد أرادت هى أيضا أن تدافع عنك، وتمادت فى الغباء فهددتنى. اسمع، إنى أطردك، إنى أطردها أيضا، فلا ترنى وجهك بعد اليوم..

وغادر الحجرة وهو يرتعش من شدة الغضب.

١٥

هكذا وجد يحيى نفسه وأمه وحيدين فى حجرة ببنسيون الدلتا. هو لا يملك مليمًا وهى لا تملك إلا مؤخر صداقها. وعلى رغم الانفعالات التى تعصف بهما قالت له:

-أى نهاية! أنا صاحبة كل شىء، ولكن لننس همومنا، عليك أن تنجح، هى فرصتك الأخيرة، بل هى فرصتنا الأخيرة!

هو أيضًا مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس أقل منها إحساسًا بالخطر، غير أنه قال بحنق:

-لن يفلت المجرمون بلا عقاب.

فقالت بحرارة:

-لا تفكر إلا فى الامتحان.

ـ ولكن . . كيف عرف الرجل؟

ـ إنى أتصور ما حدث كما لو كنت شاهدة له، لقد أفضيت أنت بسر الرحلة إلى وداد، ما تعرفه وداد تعرفه أمها، أمها وجدت فيما سمعت ما يستحق أن تبلغه محروس، محروس وجد فيه ما يجب أن يوصله ـ بطريقة ما ـ إلى جندى الأعور ليقضى عليك أو علينا معًا وبذلك يمنعه من التصرف فى الثروة، جندى الغبى اعتقد أنك تبيت له أمرا فساء ظنه بك وبى وربما بأبيك أيضًا، قرر أن يتخلص منا قبل أن نتخلص منه. لا أحد يدرى ماذا ستكون الخطوة التالية، ولكن كل ذلك لا يهم، ما يهمنا شىء واحد هو نجاحك.

إنه مقتنع بذلك ومصمم عليه وليس أقل منها إحساسًا بالخطر. حتى الحنق، عليه أن يحبسه إلى حين.

وعندما التقى بوداد فى ركنهما بجليم دمعت عيناها وقالت بتأثر شديد:

ـ إنى آسفة يا يحيى، إن الحوادث جعلت من أبى رجلاً شريرًا!

فرفع منكبيه استهانة ولم يجد ما يقوله فقالت:

ـ أى ظلم وقع على والدتك!

أراد أن يقول إنه جزاء عادل وإنه يجب أن يبوح لها بأسرار غضبه، ولكنه شعر بأن علاقتهما صامدة أمام العواصف.

١٦

وجد أنه لن يستطيع التفرغ لدراسته إن لم ينفس عن غضبه بضربة عاجلة. فكر مليّا ثم قرر السفر إلى أبيه ليدله على مكان جندى الأعور

وحقيقته. إنها مغامرة قد يستطيع أن يتكهن بعواقبها ولكن يحتمل أن يأكل الشر بعضه البعض. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قرار مخيف لا يبرره إلا الغضب والرغبة الجنونية فى رد الضربة بمثلها. وسافر دون أن يخطر أمه بنواياه. واقتحم الحارة منقبا عن عويس الدغل. ولما أعياه التنقيب قصد إلى صديقه العجوز عم سليمان صاحب المقهى. وقال له العجوز:

- جئت متأخراً، قبض على عويس الدغل أول أمس!

فذهل يحيى وتساءل:

- هل رجع إلى السرقة؟

- بتهمة توزيع المخدرات، ولكن الحارة تردد حكاية غريبة!

وأعاد الرجل على مسمعه الحكاية وهى أن جندى الأعور علم أن سره بلغ عويس وأنه يدبر له أمراً فاستأجر شخصا للإيقاع به وتم له ما أراد!

وختم العجوز حكايته قائلاً:

- من السجن إلى القبر هذه المرة!

هكذا رجع خائب الرجاء ولكن غضبه جاوز النهاية. لم يعد يفكر إلا فى الانتقام من جندى الأعور ولو كلفه ذلك حياته.

١٧

فى الإسكندرية وجد أن الحوادث سبقته مرة أخرى. فى اليوم نفسه حدث ما حدث، وكانت أمه هى الراوية. فقد عرف أن جندى الأعور شارع فى الزواج من فتاة دون العشرين وأنه يماطل فى النزول عن إحدى

عماراته لابنه محروس. تربص له محروس عند مغادرته مكتبه التجارى وقتله. هكذا ضاع الرجلان. استمع يحيى إلى الحكاية بذهول ولكنه لم يشعر بأسف. على العكس فقد زال توتر أعصابه لأول مرة منذ زمن طويل. ولكن سرعان ما اتجه تفكيره نحو وداد فتساءل:

ـ ما مصير الأسرة التى خلفها محروس؟

فأجابت أمه:

ـ لا يختلف عن مصيرنا.

فقال بقلق:

ـ ولكن وداد لن تنتهى من دراستها قبل عامين.

فقالت الأم:

ـ لدى أمها من الحلى ما يسترهم هذه المدة.

١٨

وقف عم عمارة الجعفرى البواب يلقى نظرة الوداع على القصر الأبيض. فاقت الأحداث تصوره وخياله ولكن طول العمر يهدهد الأحزان.. وراح الرجل يقول:

ـ لم يعد له صاحب هذا القصر الهائل، ستجف الأشجار وتذوى الأزهار، وسيجىء الربيع القادم فيجد الأبواب والنوافذ مغلقة والحديقة خرابة، وصاحب القصر وورثه بين يدى علام الغيوب، من نحن حتى نفهم ما يدور حولنا؟ ولكنا نقول مع القائلين ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

الربيع القادم

إنه يوم عادي ولكنه سرعان ما انقلب فاجتاحته عاصفة هوجاء.

وتذكر ربة البيت أن تاريخه يخلو من الهزات العنيفة. مسراته عادية ومتاعبه عادية، وغوصه في عسر المعيشة مضى وئيدا، خطوة بعد خطوة، بلا طفرات، وهوّن منه بعض الشيء أن الجميع يشاركونه في العناء ويتبادلون الشكوى. إلى ذلك فهي ربة أسرة تحظى بمزايا لا يستهان بها، فالأب ناظر مدرسة ثانوية، وهي كانت مدرسة أولى بالثانوية حتى وقت قريب. واستمرارها في العمل كان مسلما به لولا إصابتها بارتفاع في ضغط الدم، واقتران بخروج خادمتها عنايات فضل الله من خدمتها منذ أشهر للزواج من ابن عمها. وعنايات لبثت في بيتها عشرة أعوام مذ بلغت السابعة عقب وفاة والدها وحتى استردتها أمها، وهكذا حملت جمالات ـ ربة البيت ـ الأعباء وحدها وقد تعذر الحصول على خادم إما لندرته وإما لارتفاع أجره ارتفاعًا غير محتمل.

لم يخل بيتها فيما مضى من خادم، أما اليوم فعليها أن تنهض وحدها وأن تلاطف أيضًا ما استطاعت ضغط الدم. تستيقظ مبكرة على رنين المنبه لتعد الإفطار لزوجها محمد فتحي ولأبنائها الثلاثة، زغلول (طالب طب) ورمضان (ثانوية عامة) ومحمود (الثانية الثانوية). وعندما يغادرون البيت تعكف على تنظيفه وترتيبه ثم تذهب للتسوق من سوق المنيل غير بعيد من شارع العاصي حيث تقوم عمارتهم، ثم ترجع لتعد

الغداء. ويضايقها بصفة خاصة تنظيف الأوانى والأوعية وغسل الحمام والمطبخ، ولم تجد ما تستعين به فى ذلك سوى قفاز من البلاستيك. ولم يبق من اليوم ما تهبه للقراءة إلا وقت قصير تتصفح فيه الجريدة أو كتابًا من المكتبة التى كونتها ـ هى وزوجها ـ منذ أيام اليسر.

أجل كانت الحياة يسيرة واعدة، وكان ثمة مرتبان ينفقان عليها، ثم أخذ الغلاء يدب ويزحف ويتمطى وينجلى عن وحش لا يرحم، وسرعان ما عجز مرتب الزوج ومعاشها عن ترويضه، فاضطر محمد فتحى إلى إعطاء دروس خصوصية على رغم مخالفة ذلك التقاليد، وودت هى أن تفعل مثله لولا ضيق وقتها بعد ذهاب عنايات. وتوجست خيفة من المستقبل وتساءلت: متى يكبح الغلاء؟ وهل يفلت من يدها الزمام؟. وهل يمكن أن تطالب زغلول ورمضان ومحمود بمزيد من التقشف؟! وليس من النادر أن يعرب محمد فتحى عن عذره فيقول:

ـ إنى رجل بيت مثالى، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، كل ما يجيئنى من نقود أسلمه لك عدا ثمن السجائر والمواصلات.

ويردف ذلك عادة بتحية يزجيها إليها فيقول:

ـ والحمد لله أنك يا جمالات امرأة حكيمة مدبرة، البلد فى حاجة إلى وزير مالية فى مثل حزمك ودقتك، لا مليم يتبدد هباء فى بيتنا.

وإنها لكذلك حقا. وكثيراً ما ترمى بالبخل ولكنها ترفض الصفة قائلة إنه الحرص والحكمة فى مواجهة زمان عبوس. ألا يكفى أنها تبدو أكبر من سنها (خمسين عامًا)، بل أكبر من زوجها الذى يكبرها فى الواقع بخمسة أعوام؟ لقد ازداد وزنها، فقدت رشاقة عرفت بها أيام الشباب، وخددت التجاعيد جانبى فيها، وحالت نضرة بشرتها. وإنها

لتغبط الرجل على صحته وتتهمه ـ فى نفسها ـ بمداهنة الهموم ومدافعتها ما استطاع عن باله. من ذلك أنها تتابع أبناءها بالملاحظات والنقد، أما هو فيقول:

ـ أبناؤنا يسرون الخاطر يا جمالات، لنحمد الله العلى القدير، حياتهم مستقيمة، تفوقهم فى الدراسة ملحوظ، متجنبون للانحرافات التى نسمع عنها هذه الأيام.

ثلاثتهم من أبناء الثورة، ولكنهم ثمرة تربيتها قبل ذلك، ثمرة تربية أخلاقية حازمة، ودور الأب فى ذلك لا يقل عن دورها. لم تستحوذ عليهم عاطفة سياسية بمثل ما استحوذت عليهم رغبتهم الصادقة فى التفوق. وهم يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الثورة على مدى أطوارها، ولكنهم لو سئلوا عما يعنيه ذلك فلعلهم لا يجدون جوابا خيرا من أن يقولوا إنهم ليسوا من اليسار أو التيار الدينى المتطرف. ولم يفت جمالات أن تقيم هذا الموقف. إنها ـ كمربية أصيلة ـ تهتم بتقييم المبادئ كما تهتم بميزانية البيت. وهى تناقش زوجها فى كل شىء. والرجل يقول:

ـ موقفهم باهت، لعلنا لا نختلف عنهم كثيراً يا جمالات، ولكن تذكرى المحاكمات كى تحمدى الله على ذلك.

ويقول أيضًا:

ـ المهتمون بالسياسة اليوم قلة، أما الأكثرية فمنهمكة فى طلب اللقمة.. سوف يكونون أطباء ممتازين ومواطنين صالحين، وهذا خير من أى سياسة.

وتغرى جمالات نفسها فتقول إن السفينة يجب أن تبلغ مرفأ السلام قبل أن تعصف بها الرياح.

وكان يوم من أيام فبراير ضاعفت قوة الريح فيه من البرد، وغشيت العمارات المتلاصقة فى الخارج غلالة هابطة من الغيم.

٢

دق جرس الباب. فتحت فرأت أمامها أم عنايات. لا يبدو من السواد الذى يكتنفها إلا وجه مدبوغ وعينان ذابلتان. أدخلتها مرحبة، متسائلة فى سرها: ترى هل فشل مشروع الزواج، وهل جاءت تسعى لإرجاع البنت إلى خدمتها؟

ـ أهلا يا أم عنايات، ما أخبار العروس؟

تربعت المرأة فوق الكليم القديم فى المدخل ـ الأثاث كله قديم ـ وتمتمت:

ـ أخبار لا تسر يا هانم.

ـ لم كفى الله الشر؟

تجهم وجه المرأة وأغمضت جفنيها منذرة بالبكاء، فسألتها جمالات:

ـ ماذا دهاك؟

ـ قام ابن عمها بالواجب، أصبح الفرح قريبًا، لكن حسدونا يا هانم.

تساءلت بقلق:

ـ ماذا حصل للبنت؟

ـ اختفت، هربت، دفنت رأسى فى الطين، هذه هى الحكاية.

ـ هربت؟!

ـ نعم، لا تفسير لذلك فى قريتنا، إلا أنها هربت بعارها.

فقالت جمالات بقلق:

ـ عنـايات!

ـ ابن عمها زين الرجال، لا تفسير آخر، وأكثر من شخص يطالب بغسل العار!

اضطرب رأس جمالات بالخواطر المتلاطمة السريعة وتمتمت:

ـ يا له من خبر!

والمرأة دافنة عينيها طيلة الوقت فى الكليم. تمطى قلق جمالات. ماذا جاء بالمرأة؟. قالت:

ـ لعلك توهمت أنك ستجدينها هنا؟

ـ إنها لم تعرف مكانًا آخر.

ـ ولكن بيتنا معروف لديك ولا يصلح للهرب.

ـ رأسى حائر، لا أدرى كيف أتصرف.

ـ إنى مقدرة لذلك، ومندهشة، فعنايات مستقيمة لا شك فى ذلك.

ـ تربت عندك، عند أحسن الناس.

أثار القول أعصابها ولكنها قالت بهدوء:

ـ كانت دائمًا موضع رعايتى، وعرفت فى الخارج بالاستقامة.

فترددت الأم ثم قالت:

ـ ربما كان أحد فى الخارج...

ولكنها قاطعتها:

ـ لا أظن ولا أتصور.

ـ أمرى لله.

ـ هل نجرى تحقيقًا فى السوق؟ الحق إنها لم تتأخر مرة دقيقة أكثر من المتوقع.

ـ الأمر لله وهو المطلع.

بلغ الضيق بجمالات حد الغضب. ترامى إلى مشمها رائحة طعام

يحترق. هبت مسرعة إلى المطبخ فوجدت البامية قد جف ماؤها وشاطت. نسيت همومها وراحت تعالج الموقف بسخط إضافى. ولما رجعت إلى المدخل - وإلى الهموم - وجدت المرأة واقفة مرتبكة، فقالت لها:

- ابقى للغداء.

وقررت أيضًا - بلا أدنى ارتياح - أن تهبها أجرة الرجوع إلى بنها. وطيلة الوقت لم يخل رأسها من الفكر.

٣

ما هذا الذى حدث؟. متى؟ وكيف؟ ومن؟ أم عنايات امرأة حائرة معذبة مكسورة الجناح ولكنها تشير بأصبع الاتهام. ما حدث قد حدث وعنايات أمانة فى عنقها. جاءتها وهى بنت سبع. ثمة مسئولية ولا شك. لا توجد قضية ولا توجد محكمة ولكن يوجد ضمير. وهى تستطيع أن تعصف بأى اتهام يوجه إليها، ولكن كيف السبيل إلى إسكات بلابل العذاب الخفى؟ لا تفسير للهرب إلا شىء واحد. القرية صادقة فى ظنونها. الجريمة وقعت والبنت فى خدمتها. تتابعت فى مخيلتها صور زغلول ورمضان ومحمود. تنهدت مغمغمة:

- لكنهم أبنائى!

طنت الجملة فى باطنها مثل شعار بال. عنايات جميلة. نضجت فى بيتها قبل الأوان. فطنت فى وقتها إلى تحذيرات جمالها الناضج. آمنت أنه من الأفضل إرجاعها إلى أمها. لم تنفذ فكرتها لشدة حاجتها إليها. وصادف ذلك ورود طلائع المرض. وأيدت سلبيتها بأن أم البنت أرملة

وحيدة وفى حاجة إلى النقود. وأنها لن تستطيع على أى حال الاحتفاظ بها فى بيتها. بنت رائعة، فحتى الطهى أحسنته. فى القرية يركزون المسئولية فى الضحية. إنها هى أيضًا ضحية.

* * *

اجتمعت الأسرة حول السفرة فى منتصف الثالثة. لا يشغل بالهم إلا القضاء على الجوع عقب نهار برد وعمل مرهق. وجوههم مستبشرة. يبدو أن وجهها يقول شيئًا ما فها هو ذا محمد فتحى زوجها يتساءل:

ـ مالك؟

قالت وهى تبتسم:

ـ يوم بارد كئيب.

فقال محمود ضاحكًا:

ـ ولكن طعامك لذيذ.

ها هم أولاء حولها. زغلول رصين، لدرجة البرودة حتى ليوصف بأنه إنجليزى.. ذقنه مدبب وعيناه جاحظتان قليلاً ورأسه كبير بشكل ملحوظ. عاقل جدًا، شغال جدًا، محترم جدًا، مترفع عن المهاترات، ربما أخطأ أحد أخويه فى حقه ولكنه لا يخطئ، حتى المزاح البرئ لا يميل إليه. رمضان كبير القسمات واضحها، عملاق فى حجمه، مارس الملاكمة والمصارعة ولكنه والحق يقال مهذب، غاوى مناقشة ولكن المناقشة تهمه أكثر من الرأى نفسه، مغرم بالقراءة، يود أن يتفوق على زغلول نفسه. محمود أجمل الثلاثة وجها، ممشوق القوام، محب للأناقة والغناء، طيب القلب وحيى وذكى وصديق لزغلول. الأول طالب طب والأخوان يحلمان باللحاق به وتعد قدرتهما بذلك. من منهم؟. سلوكهم آية فى الاستقامة، لا تتخيلهم فى صورة أخرى حتى لو كانت ظروفهم المادية أحسن. ثلاثتهم يصلون ويصومون بلا إثارة من

تعصب أو هوس. متوجون بالتهذيب والاعتدال والنشاط. لا تتصور بحال أن الجانى أحدهم ولكن وساوسها لا تنام.

الأب لا يدرى بما يمزقها. إنه يتناول طعامه فى صمت وتركيز، عملاق أيضًا، شاربه الغليظ يتحرك فوق شفته تحية لأجيال خلت. عما قليل يشاركها همومها. إنه مثلها ذو ضمير، ومثلها أسهم فى تربية الثلاثة. ما جدوى ذلك كله؟ متى يجود القدر بالبراءة والراحة؟!

* * *

لم تسنح الفرصة لإثارة الموضوع إلا عندما جمعتهما حجرة النوم للقيلولة. تبين لها أنه كان يراقبها أكثر مما قدرت فسرعان ما قال بجدية:

ـ جمالات، لست كعادتك.

فقالت بنبرة اعتراف:

ـ ملاحظتك فى محلها تمامًا.

رنا إليها متسائلا فى اهتمام وهو يشعل كليوباطرة فقالت:

ـ زارتنى اليوم أم عنايات وأخبرتنى أن عنايات هربت قبل الزفاف!

ردد قولها ببطء وهو يغوص فيه بحذر وإشفاق. تبادلا نظرة طويلة مثقلة بالشك ولكنه لم ينبس، فقالت جمالات:

ـ أنت تدرى كيف يفسرون ذلك فى القرية؟! ولعله التفسير الوحيد المقبول، وهو يعنى أنها ستظل عرضه للقتل فى أى وقت: وأنها فى جميع الأحوال قد ضاعت.

فتساءل كالمتهرب:

ـ لعلها أملت أن تجدها عندنا؟

ـ قالت ذلك..

ـ تفكير غير سليم.

ـ إنها تتصرف بوحى من اليأس ولكن يوجد اعتبار آخر!

ـ اعتبار آخر؟!

ـ محمد، يضايقنى تغابيك فى المآزق، ثمة اتهام موجه لبيتنا.

فتمتم بقلق:

ـ ساء ظنها؟!

واضح من نبرته أن الهم قد ركبه. إنها لم تعد وحدها، قالت:

ـ هذه المآسى محتملة الحدوث كما تعلم.

فقال بصوت ضعيف:

ـ الأولاد عقلاء.

ـ وهم أيضًا مراهقون.

ـ إنهم نماذج طيبة جدًا لجيلهم.

ـ ولـــو.

فتساءل بقلق:

ـ ماذا عندك؟

ـ لا شىء على وجه اليقين.

ـ أحيانًا ألمح وقوفهم فى النوافذ ولكن ماذا نتوقع؟

ـ طبعًا توجد بنات الجيران، إنى أقنع عادة بإرشادات عامة أضمنها حديثى وكأنها غير مقصودة لذاتها.

ـ عين الصواب، هل علموا بالمأساة؟

ـ كلا بعد.

ـ هل يجدى النبش والتحقيق؟

ـ لا أدرى.

أطفأ الرجل سيجارته وتساءل بضيق:

ـ ألا يمكن أن ننسى الموضوع؟

على الرغم من أنها تمنت ذلك، فإنها قالت:

ـ المسكينة أهدرت حياتها.

ـ ليس فى وسعنا أن نفعل شيئًا، هل فى وسعك ذلك؟

ـ ليته كان ممكنا، المساعدة غير ممكنة ولكن الراحة أيضًا مستحيلة.

ـ افترضى أنك عرفت الجانى فهل يهبنا ذلك أملا جديدًا؟

ـ من العدل أن يعرف ما جنته يداه.

صمت متفكرا ثم قال:

ـ يا له من كابوس!

ـ هو ذلك تمامًا.

فنفخ قائلا:

ـ لا داعى لأن نسبق الحوادث.

فقالت بإصرار:

ـ بل يجب أن يعرف الأمر، أن يعرف الخبر على الأقل.

ـ إنك تنبشين عن المتاعب.

ـ لقد وجدت على رغم إرادتى.

فقال مقطبا:

ـ اعتمدى فى ذلك على نفسك!

ـ أنت تحاول الهرب.

هربت أم لم أهرب ستدركنى الحوادث حيث أكون.

فقال بوضوح:

ـ فلنؤجل الحديث إلى عطلة الجمعة.

٤

وجاء يوم الجمعة. تبدى محمد قلقا كئيبًا أما جمالات فكانت أقدر على حبس انفعالاتها. وعقب الإفطار تهيأ الإخوة إلى حفلة الساعة العاشرة بالسينما. وبصوت مرتفع قالت جمالات مخاطبة زوجها:

ـ زارتنى أم عنايات التى تركتنا لتتزوج من ابن عمها، وأخبرتنى أن البنت هربت قبل الزفاف.

انتبه زغلول ورمضان ومحمود باهتمام، اتجهت أبصارهم نحو أبيهم وهو يتساءل متجنبا نظراتهم:

ـ هربت؟.. ما معنى ذلك؟

فقالت جمالات:

ـ لا معنى لذلك فى القرية إلا أنها هربت لتخفى عارها!

وحل صمت ثقيل حتى قال زغلول:

ـ ربما وجد وراء ذلك سبب آخر.

فسألته أمه:

ـ أى سبب؟

ـ لعل العريس لم يعجبها.

ـ هذا يحدث فى السينما.

فقال رمضان:

ـ أو هربت مع آخر.

ـ لو صح ذلك لعرف فى الحال، وعلى أى حال فستظل مهددة بالقتل.

فتساءل محمود :

ـ ما زالت تلك التقاليد مرعية؟

ـ وستظل مرعية طويلاً .

فقال زغلول :

ـ يا له من سوء حظ ، كانت بنتا طيبة .

فقالت جمالات :

ـ الطيب عرضة للخداع .

أدركت جمالات أنهم يشعرون تمامًا بالتهمة المعلقة فوق رءوسهم .

قال رمضان :

ـ نحن لا ندرى شيئًا عما يحدث فى الخارج .

فقالت جمالات بقوة :

ـ ما يحدث فى الخارج يتردد صداه فى الداخل !

فتساءل محمود :

ـ ماذا تعنين؟

فهدأت نوعا وهى تقول :

ـ أعنى أن . . أعتقد أن البنت بريئة .

ـ إذن فلماذا هربت؟

إنه هو الذى يحقق ! على ذلك تمنت من الأعماق براءتهم . وتمتمت :

ـ الله أعلم !

وضاق صدر زغلول بالمناقشة فنهض وهو يقول :

ـ صدقت ، إنه أمر مؤسف ولكن ما الحيلة؟ وقد آن لنا أن نذهب .

ولما خلا لهما المكان نظرت إلى زوجها قائلة فى عتاب :

ـ لم تتفوه بكلمة .

ـ إنى حزين، هل أفادك ما فعلت؟

ـ هو الواجب .

ـ هل خرجت بانطباع ما؟

ـ يلوح لى أنهم أبرياء .

ـ أرجو ذلك .

مضت ترفع أوانى الطعام وهى تقول :

ـ عيبنا أن لنا ضمائر .

فقال بسخرية :

ـ أفنينا العمر فى تربية الضمائر .

فرجعت من المطبخ وهى تقول :

ـ يقال إن زماننا بلا ضمير .

ـ فى كل عصر مضى قال عنه أهله ذلك .

ـ أتعنى أن الضمير خرافة؟

ـ كلا، ولكنه درجات، وأرفعه شأنا الضمير الذى يردف القول بالعمل فهو نادر جدًا فى كل عصر، هبى أنك عرفت أن ابنا من أبنائك هو الجانى، فماذا كنت تفعلين؟

فتساءلت متحدية :

ـ هل تتوقع أن أبلغ الأمر للشرطة؟

ـ دعينا من الأساطير .

ـ توجد سبل كثيرة للتكفير عن الأخطاء أو إصلاحها .

ـ إنها تتطلب قدرًا كبيرًا من الشجاعة .

ـ أعلم ذلك .

ـ عظيم .

ـ لكن شعورى يحدثنى بأنهم أبرياء.

فتمتم بسخرية:

ـ إنك تنشدين الراحة.

فقالت بحدة:

ـ كلا..

فقال متنهداً:

ـ ثمة أناس يولدون للضياع.

ـ لعلك تشير إلى دور المجتمع؟

فهز رأسه بالإيجاب فقالت:

ـ نحن ننشد الراحة بأى سبيل.

فقال فى ضجر:

ـ إنى مغتم من أجلهم قبل كل شىء.

ـ وأنا مثلك ولكننى مغتمة من أجل البنت أيضًا.

ـ لست وحشا كما تعلمين، أأنت واثقة ببراءتهم؟

ـ أين منى ليت!

ـ هل نمضى إلى الأبد على هذه الحال الجنونية؟!

فصمتت جمالات فى غاية من التعاسة ثم تمتمت:

ـ ليتنا نعثر عليها لنفعل ما نستطيع من خير.

٥

المتاعب الطارئة ـ على رغم حدتها ـ تهون إذا انتظمتها سلسلة المتاعب القائمة. إنها تصارع كل يوم متاعب اللحوم والمواصلات

والتليفون والمجارى فأوشكت أن تألف مأساة عنايات. غير أن أم عنايات رجعت ذات ضحا. ولم تكن وحدها فها هى ذى تسوق أمامها عنايات نفسها! يا لها من مفاجأة فجرت الأزمة كأعنف ما يكون الانفجار. اجتاحتها انفعالات متضاربة. تجهم المستقبل ـ مثل السماء ـ بالسحب. ها هى ذى عنايات أمامها كما تمنت ولكن أى إزعاج أثارته؟! على رغم كل شيء رحبت بهما قائلة:

ـ الحمد لله!

قالت الأم:

ـ أولاد الحلال دلونى عليها، فررت بها لأنقذها من الموت، ولم أجد لها مأوى آمن من بيتك!

حاولت أن تقرأ شيئًا وراء الوجه المدبوغ ولكنه بدا جامدًا لا يبين. إنها محاصرة. لا تستطيع أن ترفضها ولا تود أن تقبلها. قالت:

ـ سيهتدون إليها هنا.

ـ آخر مكان يتصورون وجودها به، فضلا عن ذلك فهم يجهلونه، لا ترسليها إلى الخارج، قلبك كله رحمة يا ست.

نظرت إلى عنايات فأجهشت فى البكاء. ذبل جمالها واتسخ. وهى خجلى تعيسة لا تستطيع أن ترفع عينيها. وسحبت جمالات الأم من يدها إلى المطبخ ثم قالت لها بحزم:

ـ أريد أن أعرف ما تعرفين.

فقالت الأم بحرارة:

ـ لا أعرف شيئًا.

ـ تمكرين بى؟

ـ لم يكن لدى وقت، تسلمتها وطرت بها قبل أن ينتبه إلينا أحد.

ـ ولكنك فررتها؟

ـ أبدًا وحياتك .

فقالت بإصرار :

ـ لا أقبلها حتى أعرف .

فتساءلت الأم بانكسار :

ـ هل ترسلينها للموت؟

فلعنتها فى سرها وقالت :

ـ ستحملنى من الهم ما لا يطاق .

ـ ربنا ستار وقلبك كله رحمة .

فقالت بوضوح :

ـ إذا أزعجنا أحد من القرية فلن أسمح بأن أجعل من بيتى مسرحًا لمعارك .

فقالت الأم بيقين :

ـ لن يكون ذلك .

وسرعان ما غادرت الأم البيت وكأنها تفر .

٦

جلست جمالات فى المدخل وعنايات قاعدة على الأرض بين يديها . قالت لها :

ـ لا شك تذكرين رعايتى لك ، لذلك لم أصدق .

فأحنت رأسها ولم تنبس فقالت :

ـ طبعًا هربت لسبب ، ما هو؟

ثابرت على صمتها فقالت جمالات :

ـ ليكن الأمر كما ظنوا، صارحينى من هو؟

غاصت فى الصمت أكثر .

ـ يجب أن أعرف، هذا ضرورى جدّاً لإنقاذك .

راحت تنشج فقالت جمالات :

ـ لا . . تكلمى . . لابد أن أعرف .

بإزاء إصرارها همست عنايات :

ـ لا أحد .

ـ إذن لماذا هربت؟

ـ لا أريد أن أتزوج .

فقالت بريبة :

ـ لكنه زوج مناسب .

ـ لا أريده .

ـ تحلفين على ذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب :

ـ توجد أكثر من وسيلة لمعرفة الحقيقة .

فلم تنبس فقالت بحدة :

ـ كذبك واضح، أريد الحقيقة يا عنايات .

فرجعت تهمس :

ـ لا أحد .

ـ لعلك تحبين رجلاً آخر؟

هزت رأسها نفيا فهتفت جمالات :

ـ إنك تعبثين بى يا بنت .

فنشجت مرة أخرى .

ـ كفى عن ذلك ، أريد الحقيقة ، لماذا تخفينها؟ لقد ربيتك مذ كنت بنت سبع ، أنسيت ذلك؟

فغمغمت بانكسار :

ـ لا أحد .

ـ ما عيب عريسك؟

فلاذت بالصمت .

ـ أهو عجوز؟

هزت رأسها نفيا :

ـ أليس ابن عمك؟

فهزت رأسها بالإيجاب .

ـ هل به عيب؟

فلم تنبس فصاحت :

ـ أقلعى عن هذا الخرس ، أنا لا أصدقك ولابد من الحقيقة .

ولكنها لاذت بالصمت ونشجت للمرة الثالثة فحنقت عليها متمنية فى الوقت نفسه أن تكون صادقة . تساءلت :

ـ إذن لم يعتد عليك أحد؟

فهزت رأسها بالإيجاب . تتمنى أن تصدقها ولكن من أين لها اليقين؟ ورأت الاكتفاء بهذا القدر من الاستجواب مؤقتًا . قامت وهى تقول :

ـ خذى راحتك ونظفى نفسك والله يتولانا برعايته .

٧

رجع الرجال إلى البيت فتناولوا غداءهم. الشقة باردة مثل الخارج أو أكثر ولكن إحكام إغلاق نوافذها حماها من عواصف أمشير فلم يقتحم الداخل إلا زفيف رياحه. هذا البيت لا يحب الشتاء وبخاصة أمشير. توارت في أثناء ذلك عنايات في المطبخ فلم ينتبه لوجودها أحد. وطيلة الوقت جعلت جمالات تتأهب لإلقاء الخبر. رددت في أعماقها بإصرار «لا أحد». حل سعيد لم يجر لها في بال. لم لا؟ البنت بريئة ولأمر ما كرهت الزواج فهربت. إنه لا يصدق ولكنه غير مستحيل. لعلها تحب شخصاً آخر. إن صح تخمينها فهي تحب صبي الكواء فهو شاب وسيم ويخطر عادة في البلوفر والبنطلون. وبعد الفراغ من الطعام مضت إلى حجرة الجلوس وهي تشير إليهم أن يتبعوها. جلسوا على الكنب العتيق. توقعوا أمراً وقال محمد فتحي الأب:

ـ لو تمطر السماء يصفو الجو وتهدأ العاصفة.

نظرت صوب التليفزيون والراديو الصامتين فوق حاملهما الخشبي وقالت ببساطة:

ـ عنايات هنا..

شخصت الأبصار. شخصت إليها باهتمام واضح. باتت عنايات بؤرة الإثارة وهدفها. ولم ينبس أحدهم بكلمة. انتظروا المزيد بوجوه مفصحة عن الاهتمام وحده. قصت عليهم قصة رجوعها وخطة أمها ثم قالت بارتياح:

ـ حققت معها فأسفر التحقيق عن لا شيء، زوبعة في فنجان كما يقولون.

تساءل محمد فتحى :

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا جناية ولا جان .

تمطى الصمت حتى شمل الكون . تساءل الأب :

ـ لم كان الهرب إذن؟

فأجابت بسخرية :

ـ العريس لا يعجبها !

ـ هل يصدقونها هناك؟

ـ ما زالت حياتها معرضة للخطر ، ولعلها معلقة بشخص ما . لعله صبى الكواء ، سأعرف كل شىء فى حينه .

تمتم الأب :

ـ عادت المشاكل إلى بيتنا !

ـ قد تتزوجه وينتهى الأمر .

فقال الأب بامتعاض :

ـ كان من الخير ألا نقبلها .

ـ لم يكن بوسعى أن أطردها إلى الموت .

ـ قد يسعى إليها الموت هنا .

ـ إذا تزوجت انتهى كل شىء بسلام .

وقلبت عينيها فى الوجوه ثم قالت :

ـ لقد تصرفت فى نطاق ما نؤمن به من مبادئ فلا تلمنى .

٨

عاشت جمالات فى قوقعة الطمأنينة قانعة بمصارعة المعيشة. على رغم كل شيء تابعت عنايات بعين يقظة. لبث فى أعماق قلبها شك مثل دودة خفية. كلما حاولت استدارجها سمعت عبارة عنيدة: «لا أحد». اضطرت مرة إلى أن تسألها:

ـ لعله صبى الكواء؟

فهزت البنت رأسها نفيا.

ـ هل ترفضين الزواج إلى الأبد؟

فلم تحر جوابا ومضت فى عملها. وكانت عنايات تنام فى الطرقة المؤدية إلى المطبخ فوق شلتتين متلاصقتين تحت بطانية خشنة. ومرة فى جوف الليل وجمالات راجعة من الحمام تلقت من إحساسها رسالة خفية بأن الطرقة تموج بحياة حذرة مكتومة. توقفت وأطفأت النور وذابت فى الظلام بقلب خافق. أشفقت من الإقدام وعجزت عن الذهاب. امتلأ رأسها بأفكار مثل الظلام. هل يمكن أن يتسلل أحد من الخارج وهم نيام؟ أى شيطانة! وأى تعاسة تقتحمها من جديد؟! وقبل أن تتخذ قراراً رأت فى الظلمة التى ألفتها عيناها شبحا يتسلل من مدخل الطرقة ماضيًا نحو حجرة الأولاد. تلاشت أحلامها تحت صاعقة الحقيقة. صاعقة محقت أى أمل. جسدت الاتهام وقذفت به فى وجهها. تركته يذهب وهى مشلولة تمامًا. لم يهن عليها تفجير الفضيحة ولا إرعابه ولا حتى مواجهته. ثمة طرق أخرى توصل للحقيقة. وسوف توصل الحقيقة إلى الجنون. وبلا تردد اتجهت نحو الطرقة.

أسدلت ستارة مدخلها وأضاءت المصباح. فتحت عنايات عينيها فزعة ولم تكن نامت بعد. نهضت مرتعدة ووقفت مستسلمة للأقدار.
حدجتها جمالات بنظرة صارمة وسألتها:

- مــن؟

ولما ترددت لطمتها على وجهها قائلة بانفعال شديد:

- انطقى..

فاندفعت تهمس فى فزع:

- زغلول؟!

يا للداهية!.. يأبى الداء إلا أن يصيب مقتلا. اضطربت أنفاسها.

- زغلول؟!

لاذت بالصمت منهارة تمام:

- هو الجانى؟

هزت رأسها نفيا. ما معنى هذا؟

- ليس هو؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

- من الآخر؟.. انطقى..

وهزتها بعنف مكررة:

- انطقى..

فهمست:

- سيدى محمود..

- عرفت الاثنين فى وقت واحد؟

فصمتت ولكنه الصمت المغنى عن الجواب.. فتساءلت الأم:

- وهل يعلم أحدهما بما يفعل الآخر؟

هزت رأسها نفيا، ثم قالت بنبرة باكية:

ـ على رغمى.. لم أستطع صدهم.. جاءوا كلهم..

ـ رمضان أيضًا؟

ـ نعم.. على رغمى..

ـ أنت فاجرة!

بسطت راحتيها فى يأس وأجهشت فى البكاء.

٩

لما رجعت إلى الحجرة وجدت محمد فتحى يغط فى نومه. على ضوء المصباح السهارى رأت الساعة تدور فى الواحدة صباحا. لن يغمض لها جفن ولكنها أشفقت من إيقاظه. انتظرت فى عذابها حتى الفجر ثم نادته:

ـ معذرة، عليك أن تشاركنى سهادى.

فتح عينيه ثم تساءل:

ـ ماذا أيقظك؟

ـ إنى فى حاجة إليك.

طار النوم وحل محله قلق ثم تساءل:

ـ الموضوع نفسه أم شىء جديد؟

ـ نفسه!

تزحزح جالسًا وهم يتمتم:

ـ لم يطمئن قلبى أبدًا.

وصبت عليه الحقيقة صبا لتتخلص من قبضتها الخانقة حتى أسند رأسه إلى راحتيه وهو يقول :

ـ كارثة!

وتبادلا النظر فى حيرة فتركها حتى تساءلت :

ـ كيف نتصرف؟

ـ ليتك ما سمحت لها بالبقاء؟

ـ ما كان ذلك ليخفف من الجريمة .

وإذا به يقول فى خشونة :

ـ جمالات ، الكلام عن الأخلاق شيء والسلوك الأخلاقى شيء آخر تماما ، وقد حرصنا طيلة عمرنا على الاستقامة فلم يرسب فى تاريخنا ما نخجل منه ، وأنشأنا أبناءنا على مثالنا .

فتساءلت فى أسى :

ـ وما النتيجة؟

ـ لم تصادفنا تجربة بهذه القسوة ، كيف نتصرف؟ ، لنكن واقعيين ، لقد وقعت جريمة ولكن لن نعدم لها الأعذار الطبيعية المناسبة .

ـ ليكن ، ولكن المهم فى تصرفنا بعد ذلك .

فقال بنبرة لم تخل من غيظ :

ـ هذا صحيح ، فما التصرف الصحيح؟ إنه واضح وهو أن يتزوج محمود من البنت التى شاركه فيها أخواه وهم لا يعلمون ، بذلك نسترها ونكفر عن خطيئتنا وننقذها من الموت ، فهل أنت قادرة على الحل الصحيح؟

أرخت جفنيها فى ذل وانكسار فقال :

ـ هذا هو الواجب ، الكلام سهل أما الواجب فهذا هو ، وهو كفيل

بهز مستقبله ويجعلنا مضغة أفواه المحبين قبل الكارهين . إنى أعرف تشددك وتقواك ، عظيم ، افعلى ما ترينه صوابا .

ها هو ذا يلقى عليها الحمل . كأنما يتحداها . يخيرها بين الذل والجريمة . وهى تمقت الجريمة ولكنها تجزع أمام الحل الصحيح . هذه هى الحقيقة التى تصفعها . وعوضا عن الإجابة دمعت عيناها . ولم يتراجع عن خطه فقال :

ـ ما جدوى الدموع؟ القرار عسير ، خذى مهلة كافية للتفكر .

فقالت بصوت ضعيف :

ـ الأمر لا يخصنى وحدى .

فقال بلا تردد :

ـ إن أردت رأيى فاعلمى أنى رجل واقعى كما أنى أخلاقى .

فانتظرت فى امتثال فقال :

ـ ممكن أن نزوجها من ابن الحلال بعد اتخاذ الاحتياطات الطبية الواجبة .

صمتت مغلوبة على أمرها ولم تخل من سخط عليه وعلى نفسها معا . وشعرت بخجل كإنسان جرد من ملابسه فجأة . أما محمد فواصل قائلاً :

ـ لا مفر فى هذه الحال من إبقائها حتى نبلغ بها بر السلامة ، ولكن عليك أن تخترقى الحاجز بينك وبين الآثمين .

ـ ألا تقوم أنت بهذه المهمة .

فقال بحسم :

ـ بل أنت ، والأفضل أن تزعمى لهم أننى لم أعرف شيئًا .

ـ لماذا؟

ـ هو الأفضل .

فتفكرت وقتا ثم قالت :

ـ إنه الحل الممكن ولكنه ليس الأمثل ، أمرنا لله ، وهو سيعرينا جميعًا نحن وأبناءنا ويفضح ضعفنا الحقيقى .

ـ سيدركون أننا نضحى بالسلوك النقى من أجل مصلحتهم .

ـ وسيدركون أيضًا أننا كاذبون ، صناعتنا الكلام لا أكثر ولا أقل .

فتساءل فى عصبية :

ـ أليسوا المسئولين عن الجريمة؟

ـ ونحن المسئولون عن الحكم .

فقال بضيق :

ـ تصرفى إن استطعت على مستوى مبادئك .

فهتفت :

ـ كأنما تسعى لإذلالى .

فخفف من نبرته قائلاً :

ـ معاذ الله ، كلانا غارق فى مصرف واحد!

وتبادلا نظرة خلت من الروح والثقة وأترعت بالأسى .

١٠

الصباح يفتتح يوما مفعما بالمعاناة . ما زال البرد قارسًا والرياح عاصفة . وتنظر من وراء زجاج النافذة المغلقة فترى الطريق ممتدا حتى المنعطف ، لا شجرة به ، الريح تنشر الزبالة فوق أديمه ، وجه الطوار

متشقق متعدد الفجوات، والناس يترنحون هنا وهناك. لقد انصرفوا جميعا، وعنايات تعمل فى المطبخ، وهى تفكر فى المواجهة التى ستتم بينها وبين أبنائها منفردين. إنها الكآبة والحرج. وكانت بدأت بالبنت فقالت لها بحزم حاد:

- حذار أن تذعنى لأحدهم، كفى ما كان، وسنجد لمشكلتك الحل المناسب.

من آن لآخر جعلت تراقبها وهى منهمكة فى عملها. ترى ماذا يدور فى رأسها؟ تبدو خالية البال كأن الموت لا يتهددها. بل أخذت النضارة تلوح فى وجهها الأسمر ووجنتيها البضتين. كما رثت لها حنقت عليها. مأساتها مأساة من يواجهن الحياة بلا مال ولا علم. وتذكرت ضيقها إزاء الغلاء المتصاعد وكيف تهبط أسرتها درجة بعد درجة. إنها تلبى طلبات الأبناء بنسبة لا تزيد على خمسين فى المائة، ولولا جديتهم وتسلط روح العمل عليهم لانفجرت أزمات وأزمات. وهى تمر بالبنت قالت هذه:

- ستى.

فتوقفت متسائلة فتساءلت البنت:

- هل تريدين أن أذهب؟

فقالت بعصبية:

- لم أقل ذلك قط.

فتمتمت:

- أشعر بأنى غير مرغوب فى.

- انتبهى لعملك ونفذى ما أوصيتك به.

اتجهت إليها بكل جسمها وقالت بصوت منخفض:

- عرضوا على أمى أن أعمل فى شقة مفروشة!

يا لها من مفاجأة. تساءلت فى استنكار:

- ألا تفهمين ما يعنيه ذلك.

فقالت بصراحة لم تتوقعها:

- لن يكون أسوأ مما أنا فيه، ويمكننى أن أقتصر على السهر فى الشقة!

وقالت جمالات بامتعاض شديد:

- سنجد لك مصيرًا أحسن!

فقالت بصوت حزين دل على أنها ليست خالية البال كما بدت لعينيها:

- لا يوجد لى مصير حسن.

عند ذاك دق جرس الباب فذهبت جمالات لترى من القادم.

وكان القادم هو محمود.

١١

- ماذا أرجعك؟

مضى بها إلى حجرة الجلوس وهو يشير:

- تخلفت عن المدرسة لأحدثك على انفراد.

أجلسها إلى جانبه فجلست متوقعة أن تسمع اعترافًا و- ربما - حلا من نوع ما. قال:

- لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت.

فنظرت إلى الأرض بوجوم رافضة أن تتظاهر بما ليس فيها، فقال:

- الموضوع يتعلق بعنايات!

فلم يتغير من حالها شيء فاعترف قائلاً :
ـ لقد كذبت عليك ، هناك اعتداء وأنا المعتدى .
وتفرس فى وجهها ليرى أثر كلامه ، ثم قال :
ـ أدرك الآن أنك عرفت الحقيقة .
ـ أجــل .
ـ شد ما تعذبت عند سفرها مع أمها ، لن أغفر لنفسى تقاعدى عن مساعدتها ، كان الموقف أكبر من شجاعتى ، وتضاعف العذاب عندما علمت بهربها .
فقالت بهدوء :
ـ لا يداخلنى شك فى ذلك .
ـ أعتقد أن والدى يعرف أيضًا .
ـ نعم .
ـ إنها تنتظر أحد مصيرين ، الموت أو السقوط .
ـ ربما يوجد طريق ثالث .
فتساءل بلهفة :
ـ ما هو؟
ـ أريد أن أستمع إليك أولا .
فتردد قليلاً ثم قال :
ـ نحن قوم ذوو ضمائر حية .
ـ هذه هى المشكلة .
فتشجع قائلاً :
ـ الواجب يقضى علىّ بأن أحميها حتى أتزوج منها .
خفق قلبها منذعرة وسألته :

- هل تدرى ما يعنيه ذلك؟

- طبعا بكل أبعاده، وأدرى أيضًا ما يعنيه الغدر، وقد لقنت على يديك - ويدى أبى أيضًا - مبادئ لا يجوز أن تنسى.

انحبست الاعتراضات فى حلقها وتورد وجهها حياء أما هو فتساءل:

- أليس كذلك؟

فلم تجد بدّا من أن تقول:

- بلى.

وجفلت من أن تشير له إلى ما تم الاتفاق عليه بينها وبين محمد فتحى فرددت فى نفسها «إذا بليتم فاستتروا». سيقع ما كانت تحذره إلا إذا انبرى أبوه لإنقاذ الموقف. تخيلت عنايات زوجة لمحمود وأمها حماة له فغاص قلبها فى صدرها. غاص قلبها على الرغم من أنها تتذكر تمامًا أن جدتها لأمها لم تكن ترتفع درجة واحدة عن أم عنايات وأن جد زوجها كان فراشا فى مدرسة! وإذا بمحمود يقول:

- ولكن توجد مشكلة أخرى.

حدجته بنظرة مستطلعة فقال بحياء وتلعثم:

- إنى فى حكم الخاطب.

- خاطب؟!

- يوجد اتفاق لم يعلن بعد بينى وبين فردوس سمير جارتنا.

ذهلت جمالات حقا. إنها تعرف فردوس، كريمة المرحوم سمير المعلم، وهى صديقة حميمة لأمها جارتها منذ ربع قرن. أسرة طيبة ومحترمة، بكريها طبيب فى الأرياف، وفردوس فتاة تكبر محمود بخمسة أعوام، لم تتم تعليمها، ذات ثروة محترمة، ولكنها سيئة الحظ لأنها عاطلة من الجمال، لا حظ لها منه على رغم أناقتها المبالغ فيها، كما

أنها تترك فى نفس محدثها ما يثير السخرية لتصورها أنها محدثة لبقة واسعة الاطلاع. سألته بدهشة:

- هل تحب فردوس؟

فقال بمزيد من الحياء:

- المسألة أننى استجبت لتوددها، لم أدر كيف أرفضها.

- يا لها من خطوبة غريبة.

- والأدهى من ذلك.

وتوقف مرتبكا فتساءلت:

- هل يوجد ما هو أدهى من ذلك؟

- تورطت معها.

فقاطعته:

- يا خبر أسود..

- لا أعنى ذلك، أعنى أننى اقترضت منها بعض النقود.

فكررت فى عصبية:

- لا أصدق أذنى.

- قروض اضطررت إليها.

- ما مقدارها؟

- الحق أنها مستمرة!

- مستمرة؟!.. أأنت فى حاجة إلى ذلك؟

- ماما، كيف غاب عنك ذلك؟

- نحن نشقى لنوفر لكم حياة كريمة.

- أعرف ذلك، ولكن لولا نقود فردوس لأرهقتنا المعيشة إلى درجة عدم الاحتمال أنا وزغلول ورمضان.

ـ يا للمصيبة، أهما شريكاك فى ذلك؟

ـ نعم . .

ـ ألم يعترض أحدهما؟

ـ لقد شجعانى على ذلك .

ـ شجعاك على خداع بنت سيئة الحظ لسلب نقودها؟

فبادرها بحرارة :

ـ ليس فى الأمر خداع، صدقت نيتى على الزواج منها فى الوقت المناسب، وقال لى أخواى إن المال ميزة مثل الجمال، وإن فردوس على خلق ومن أسرة طيبة!

ـ يا للعار يا محمود، تخطب فتاة سرا لتنفق عليك!

ـ إنها قروش سأردها فى المستقبل، ولولاها لحدثت لك أنت وأبى متاعب كثيرة .

ألصقت راحتها بجبينها وهتفت :

ـ إنى فى حاجة إلى طبيب .

فصمت مستسلما لوجوم كئيب حتى سألته :

ـ وكيف أخطأت مع الأخرى؟

ـ بلا إرادة . . ولكننى أعترف لك بأننى أحب عنايات!

ـ ما شاء الله، وهل علم أخواك بجنايتك؟

ـ كلا .

ـ لعل لديهما حلاّ فريدًا!

ـ ماما، إنى معذب، لا أستطيع أن أتخلى عن عنايات كما أنه يعز على جدّا أن أهجر فردوس .

ونظر إليها فى تعاسة مستوهبا النصيحة، حتى ندت عنها ضحكة عصبية وقالت ساخرة :

ـ ما عليك إلا أن تتزوج من الاثنتين .

فقال بلهفة :

ـ يهمنى جداً رأيك .

فقالت بحيرة :

ـ أمك احتارت واحتار دليلها! ماذا يقول لك ضميرك؟

ـ يملى على أن أكون إلى جانب أشد الاثنتين حاجة إلى .

ـ ومن عسى أن تكون؟

ـ عنايات فيما أعتقد .

ـ ثم يقال إنك سرقت فتاة طيبة وخدعتها!

ـ أهون من أن أترك أخرى للموت أو السقوط .

ـ ستوجد على أى حال تضحية بفتاة بريئة .

وساد صمت ثقيل مرهق للروح حتى تساءل محمود :

ـ أليس هو الصواب يا ماما؟

فقالت بنفاد صبر :

ـ حسبى أننى ربيت ضميرك وعليك أن ترجع إليه وحده!

١٢

هكذا انضاف إليها واجب ثقيل آخر هو مواجهة زوجها قبل مواجهة زغلول ورمضان. تذكرت أياما خالية حرصت فيها على الاستئثار بحل المشكلات. كانت مشكلات هينة حقّا، أما اليوم فكم تتمنى لو أن زوجها كان أكثر إيجابية! وقد عاد زغلول ورمضان متعبين ولكن مرحين

أيضًا لا يدريان شيئًا عما يتجمع وراءهما من سحب، أما محمد فتحى فبدا وكأنه يتقدم فى العمر. وتساءل رمضان عن تخلف محمود عن الذهاب إلى المدرسة فأجابت أمه بأنه متوعك. وتناولوا الغداء فى جو لم يفلح جهد فى تبديد كآبته. وفى حجرة النوم قالت جمالات لزوجها:

- لدى مزيد من الأخبار المزعجة.

ورمته بالجديد منها بغير مبالاة. وراح الرجل يفكر ويضرب على كف بكف، ويقول:

- لن أدهش لو تكشف بيتى عن عصابة إرهابية للاغتيالات الدولية.

فسألته بوضوح:

- أتستطيع أن تقنعه باقتراحك الأول؟

فهز رأسه قائلاً باقتضاب:

- كلا. إنه لا يريد أن يتلقى درسًا فى الأخلاق على بر ابنه وتلميذه.

قالت:

- الحق أننا أصغر من الأخلاق التى نعلمها.

- أى حل الآن لن يعفينا من سوء السمعة.

- ما أكثر الخاطئين ولكن ذوى المبادئ وحدهم هم الذين يدفعون الثمن..

فابتسم ابتسامة ساخرة ولم ينبس فثارت ثائرتها وقالت:

- إنك تخجل من مواجهة ابنك باقتراحك.

- بل اقتراحنا فقد وافقت عليه أنت أيضًا.

وكالعادة سارع إلى ملاطفتها فقال بهدوء:

- لا ترهقى ذاتك بالندم، فلنطارد التعاسة معًا، المسألة أنه كان لنا حلم وتبدد.

لكن سخطها تمطى حتى شمل كل شيء. نالت عنايات أرقى نصيب منه فهي التي ـ بضعفها لا قوتها ـ زلزلت الأسرة وعرتها. ونال زوجها نصيبًا لا يستهان به لضعفه وسلبيته. ولكنها لم تتجاهل أنها المسئولة عن ذلك. بقوة شخصيتها وذكائها حولته من شريك إلى أسير. وطالما سعدت بذلك واستمتعت بقوتها بلا حدود. اليوم تشعر بوحدتها فتنحى عليه باللائمة وتكيل له التهم.

١٣

على الرغم من أن الغداء لم يهضم، والجو لم يهدأ ولم يلطف، فإنها لم تشعر بالبرد، بل شعرت بأن رأسها يشتعل. تمنت أن يهطل المطر. شارع العاصي يتحول في أعقاب الأمطار إلى برك ومستنقعات ومع ذلك تمنت أن يهطل المطر. وتلبية لإشارتها لحق بها زغلول ورمضان بحجرة الجلوس. رتبت في ذهنها ما يقال وما لا يقال، وسرعان ما لاحظت أنهما لا يخلوان من قلق. لا مفر من أن يعلما بقرار محمود وبدواعيه، فيما يتعلق بعنايات وفيما يتعلق بفردوس. لن تشير من قريب أو بعيد إلى خطئهما أو خطيئتهما ولكنهما لن يتوطا فيها مرة أخرى من دون حاجة إلى تنبيه. وفي تقديرها أن عنايات تحب محمود، وأن ضعفها وحده هو المسئول عن استسلامها لزغلول ورمضان.

هكذا قصت عليهما قصة محمود وقراره. لمست اضطرابهما وضيقهما. تطايرا في الهواء على رغم المحاولة المستميتة للتظاهر بالحياد والثبات والبراءة. وهي محيطة بأزمتهما بكافة أبعادها، بمشاعرهما نحو أخيهما الذى اعتديا على من ستصير زوجة له، ونحو النقود التي

سيفقدونها لقطع العلاقات مع فردوس. لم تشعر نحوهما بعطف إذ رأتهما مستحقين للعقاب. ختمت قصتها بقولها:

- اعتدنا أن نناقش مشكلاتنا معًا.

وسأل زغلول:

- هل علم أبى بالقصة؟

- كان لابد أن يعلم.

تبادلوا نظرات حائرة. قال زغلول:

- إنه قرار خطير جدًا.

- أجل، ولكن هل عندك حل أفضل؟

لم يحيرا جوابا، فقالت:

- علاقته بفردوس خطأ لا مبرر له وإنكما تتحملان تبعة ذلك مثله أو أكثر.

فقال زغلول مدافعًا عن نفسه:

- كان صادق العهد فى الزواج منها.

- ومسألة النقود؟

فقال رمضان بجرأة:

- لم نجد من الإنصاف أن نطالبكما بما تعجزان عنه.

فقالت بحدة:

- لم نقصر أبدًا.

- أجل، ولكن الممكن كان دون المطلوب.

- اعتقدت أنكما قادران على مواجهة الموقف بما يتطلبه من تضحية.

فقال زغلول:

- بذلنا ما نستطيع، أكرر أن القرار خطير جدًا.

وإذا برمضان يقول :

ـ ماما ، نحن لم نعد ندرى بيقين ما الصواب وما الخطأ .

فتساءلت بانزعاج :

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أصارحك يا ماما أنه بإزاء ما صادفنا من مشكلات تناقشنا ـ أنا وزغلول ـ فى ماهية الأخلاق التى نشأنا عليها .

فسألته وهى تتفرس فى وجهه :

ـ هل رابك منها شىء؟

ـ تساءلنا إلى أى درجة تصلح لهذا العصر!

فقالت بحدة :

ـ مدى علمى أنها تصلح لكل زمان ومكان .

فقال رمضان بأسى :

ـ ما أكثر الذين يستهينون بها وينجحون .

فتساءلت بذعر :

ـ هل أقنعتم أنفسكم بأن النجاح هو كل شىء؟

فقال زغلول بسرعة :

ـ كانت مجرد مناقشة استطلاعية .

فواصلت بحدة :

ـ تصوروا أن نقنع بطرد عنايات ، والاستمرار فى ابتزاز أموال فردوس حتى يتخرج ثم يفسخ الخطوبة ، تصوروا ذلك!

ـ كانت مجرد مناقشات مثل لعب الشطرنج .

ـ لا أريد أن أختم حياتى باليأس .

ـ هذا مسلم به .

وقال رمضان فى حيرة :

ـ لنا زملاء يخطئون بفكر متكامل، وهم يرمون كثيراً بالانحراف، وطالما غبطنا لأننا لم ننحرف، ولكن من نحن؟

فقالت بإصرار :

ـ مبادئنا فوق الجميع .

ـ معذرة، أريد أن أقول إن طمأنينتنا لا تقوم على أساس، يوجد خطأ ما، لم تلوح الحياة بهذه القسوة؟

ـ لذلك أسبابه، أحد هذه الأسباب الانحلال الأخلاقى .

فتمادى رمضان قائلاً :

ـ قد يقتل الإنسان دفاعًا عن نفسه!

فارتفع صوتها وهى تقول :

ـ المهم أن يكون على صواب، إنكم لا تقدرون تعبنا حق قدره، لقد عملت حتى اضطرنى المرض إلى طلب المعاش، أبوكم يعمل عملا مضاعفا على رغم انحداره إلى الشيخوخة، وتفوقكم ميزة لا يستهان بها فلم الشك والانتهازية؟

فضحك زغلول تلطيفا للجو وقال :

ـ ما زلنا عند حسن ظنك .

سخرت من قوله فى نفسها ولكنها قالت :

ـ أشكرك، سيكون لنا عودة إلى الحديث، أما الآن فإنى أفضيت إليكما بأخطر قرار اتخذ فى أسرتنا حتى لا تفجآن به غداً، فما رأيكما؟

وساد الصمت، وتبودلت النظرات، فقالت :

ـ حسبت الأمر لا يحتاج لتردد طويل؟

فقال زغلول :

ـ ليس التردد نتيجة للشك فى صوابه ولكن إشفاقا من عواقبه!

فقالت ببرود :

ـ قدرنا ذلك قبل اتخاذ القرار .

ـ عظيم!

ـ ماذا تعنى؟

ـ إنه قرار صائب تمامًا .

لقد غادرتهما وهى مليئة بالشك والغم .

١٤

وجدت رب البيت نائمًا . لمحت فوق الكومودينو قارورة البريكتين فأدركت أنه استعان بالمهدئ ليهرب . ما أحوجها هى إلى حبة بريكتين . لا شك فى أن الضغط الآن يتصاعد مثل الجو العاصف حولها . استلقت على ظهرها تحت الغطاء . تحت سطح الماء الساكن تيارات تتلاطم فى الأعماق . أسرتها أسرة مثالية ولكن على الورق فقط ، وها هى ذى تتمخض عن مفاجآت غريبة وقبيحة . زغلول ورمضان يتملصان من قبضتها . الجو الفاسد يتسلل إلى الداخل على رغم النوافذ المغلقة . لا جديد فى أن يختلف الناس فى الصواب ، المهم أن ينشدوه لا أن يطرحوه أرضًا . وآمنت بأنها لو خرجت من هذه الأزمة دون مضاعفات صحية فسوف تكتب فى المعمرات .

ولبثت تعانى يقظة حادة ، وترفض فى الوقت ذاته أن تمد يدها إلى قارورة البريكتين ، فلم تدر أنها غفت قليلاً إلا بفضل حلم رأته عن

أمها. ولدى استيقاظها شد انتباهها شىء فى الخارج. خارج الحجرة حركة وأصوات. ماذا يجرى؟ زوجها ما زال يغط فى نوم عميق. انسحبت من تحت الغطاء فارتدت الروب وغادرت الحجرة بسرعة. وجدت محمود فى الصالة واقفًا شاحب اللون مرتجف الأطراف. حدست فى الحال أن وجه الحقيقة الآخر كشف له عن بشاعته كلها أو بعضها.

- ماذا جرى؟

ضرب جبهته براحته حتى خيل إليها أنه سيحطمها. مضت به إلى حجرة الجلوس. أضاءت المصباح وحبكت الروب وقاية من برودة شديدة. جلست ولكنه لم يجلس. كررت السؤال فجعل يذهب ويجىء، ثم قال:

- عرفت أشياء غاية فى القبح.

- ما هى؟

- عنايات لم تكن ضحية كما توهمت ولكنها كانت داعرة!

- ماذا تعنى؟

- كانت تعبث بثلاثتنا، أنا وزغلول ورمضان.

- اعترفت لك بذلك؟

- اعترف لى زغلول ورمضان ليحذرانى.

آه.. إنهما يقصدان إجهاض القرار. وهى تعرف بواعثهما. بعضها أنانى وبعضها لا غبار عليه. وعلى رغم إيمانها بأن عنايات مظلومة فإن باطنها لم يخل من دبيب راحة. وسألته:

- ماذا فعلت؟

- قررت الداعرة حتى أقرت.

- خفض من صوتك أو يصل إلى الشارع، هل دافعت عن نفسها؟

ـ تدعى أنها استسلمت على رغمها الفاجرة!

ـ اهـدأ .

ـ فوق طاقتى!

ـ أرجو أن تنتظرنى حيث أنت .

مضت إلى المطبخ .

لكنها لم تجد لعنايات من أثر .

ورجعت إلى محمود متسائلة :

ـ هل طردتها؟

فهز رأسه نفيًا، فقالت :

ـ لقد ذهبت .

١٥

انسرب الجو العاصف إلى القلوب . الإخوة ـ على رغم الاعتراف المريح للضمائر ـ فقدوا شعورهم الطبيعى بالبراءة وعزة النفس . جمالات تدرك ذلك وتلاحظه بنفس مكلومة . الأمور الآن تناقش جهراً، وها هو ذا الأب وزغلول ورمضان يلحون على اعتبار الموضوع منتهيا، أما محمود فقد تبعثرت ذاته . وضاعف من عذابها أنها فى صميمها قد ارتاحت إلى اختفاء البنت وهى بريئة من دمها . ولاحظت أن زوجها لا يأبه لأحزان محمود ولكنه يتابعها هى بقلق . وقال لها وهو منفرد بها :

ـ لقد رضينا بالحل الصحيح الذى دل على شرف الولد ثم حصل ما حصل بلا تدخل منا فلا مسوغ للحزن يا جمالات .

فقالت بوجوم:

- محمود ضائع تمامًا وسيخسر عامه الدراسى!

- خرج الأمر من يدنا ولم يعد فى وسعنا شىء.

- لن يغسل ذلك ملابسنا القذرة.

فقال بضجر:

- فلنتركها للشمس والهواء.

وحدجته بعصبية قائلة:

- إنى أحسدك.

فتغيظ وقال:

- إنى أصرح بما فى ذاتك أكثر منك.

فاصفر وجهها من شدة الغضب وهتفت بكبرياء:

- إنى ضمير حى لا يموت.

فهز منكبيه ولم ينبس. إنها واثقة بأنه يتجنب دائمًا مواجهتها فى معركة حقيقية. فى الوقت ذاته قد تعرت أمامه، بل تعرت أمام نفسها. وقال متراجعًا:

- جمالات، إنى أواصل العمل بطريقة تهدد صحتى، اعذرينى وكونى لطيفة معى ما أمكن.

وتساءلت فى نفسها: كيف تمضى الحياة إذا أصرت طوال الوقت على احتقار أسرتها ونفسها؟!

١٦

ولاحقت محمود فى انعزاله لشعورها بأنه أحوج الجميع إلى الدواء، حذرته قائلة:

ـ مستقبلك، لم يبق لك إلا مستقبلك وهو فى خطر.

بدا وكأنه لا يشعر بالخطر. أين حساسيته الشديدة؟ وأين مرحه؟ قالت:

ـ يوم أمثالنا لا يقدر بثمن.

فقال لها بحزن:

ـ رضيت بالتضحية ولكنى حرمت منها.

ـ أثبت حسن نيتك بلا أدنى شك.

ـ ما الفائدة؟.. سأظل المجرم الأول فى حياتها.

ـ لنتركها لرحمة الله.

ـ الموت أو السقوط، هذا ما تبقى لها.

ـ لا شائبة تشوب ضميرك.

وتفكرت قليلاً ثم واصلت:

ـ ولا تنس أنك ملتزم بفردوس!

فتنهد قائلاً:

ـ كلا.

ـ كلا؟!

ـ لقد بادرت إلى إرسال خطاب لها قبل أن يكاشفنى زغلول ورمضان بما خفى على.

ـ فسخت الخطوبة غير المعلنة؟

ـ اعتذرت بظروف قاسية، وسجلت المبالغ التى اقترضتها، واعدا بتسديدها عند الميسرة.

ـ وصل الخطاب إليها؟

ـ يصل اليوم أو غدًا.

ـ يا له من تصرف مرعب.

ـ ولكنه كان خيرا من الاستمرار فيه.

ـ لم يعد كذلك الآن.

ـ لقد فات الأوان.

ترى هل تمضى الأمور نحو الأحسن أو الأسوإ؟ قالت:

ـ على أى حال عليك أن تسترد صفاء ذهنك وقوة إرادتك لتواصل تقدمك الدراسى.

وتساءلت مرة أخرى: ترى هل تمضى الأمور نحو الأحسن أو الأسوإ؟!

١٧

وجاءت أم فردوس لزيارتها. ما أكثر الزيارات بينهما ولكنها شعرت بأن هذه الزيارة غير عادية. وجاءت كالعادة أيضًا عصرا وقد سفعت الرياح الباردة وجهها فاحمرت أرنبة أنفها. وهى تماثلها فى السن، لا تخلو من وسامة، إذ كان من سوء حظ فردوس أن ورثت خلقة أبيها لا أمها. وغشى جو الزيارة ارتباك خفى وشى بأسرارها. وما لبثت أم فردوس أن قالت:

ـ أريد أن أحدثك كأخت .

فقررت أن تواجهها بالصراحة اللائقة فقالت :

ـ ما علمت بالأمر إلا منذ أيام قلائل !

ـ وأنا كذلك وإلا ما أخفيت عنك شيئًا .

ـ كنت سأسر ، فردوس ابنتى كما أنها ابنتك ، وهى شابة ممتازة ، ولعلهما أخفيا الموضوع لشعورهما بأنه سابق لأوانه بعض الشىء .

فقالت أم فردوس بصوت شاك :

ـ ولكنه انتهى نهاية غاية فى السوء .

تنهدت قائلة :

ـ أعلم ذلك .

وبعد فترة صمت مشحونة بالانفعالات تساءلت أم فردوس :

ـ ما الظروف الخطيرة التى أوجبت القطيعة؟

ـ لقد صدق فيما قال .

ـ ألا ترين أنه من الضرورى أن أعرفها؟

ـ بلى ، ولكن فيما بعد .

ـ أهو قرار نهائى؟

فتفكرت جمالات مليا ثم قالت :

ـ أعدك بأننى سأبذل أقصى ما أستطيع .

فقربت منها رأسها وقالت بصوت خافت :

ـ اعتبريها مهمة بالغة الأهمية ، البنت حالها فى غاية من السوء .

ـ أسفى فوق ما تتصورين .

ـ إنى واثقة بمحبتك ، وإليك اقتراحا مستعدة أنا لتنفيذه حال

موافقتك، وهو أن نزوجها الآن، فردوس غنية، وسيجد محمود فى بيتنا مكانا هادئًا ليتم تعليمه.

فوضحت الدهشة فى وجه جمالات فقالت الأخرى:

ـ فكرة وجيهة وحكيمة.

فقالت جمالات بعد تردد:

ـ محمود حساس جدًّا!

ـ لكنه اقتراح لا غبار عليه.

فقالت جمالات بصدق:

ـ أعدك بأننى سأبذل أقصى ما فى وسعى.

وهما يفترقان همست أم فردوس فى أذنها:

ـ البنت حالتها سيئة جدًّا.

١٨

داخلتها رقة فى غمار القلق والأحزان. اعتادت أن تحب فردوس منذ طفولتها. وهى تعطف عليها دائمًا لخلوها من الجمال ولقعودها فى البيت دون أن تتم تعليمها. وهذا الزواج المقترح إذا تم فسيفسر أسوأ تفسير، سيقال إنه زواج اليأس من ناحية العروس والطمع من ناحية العريس. ثم إن خطيئة محمود مع عنايات يمكن الدفاع عنها، أما ما ارتكبه مع فردوس فلا يمكن الدفاع عنه. وقد نبذ محمود عنايات بوصفها منحلة فلن تقف عنايات عثرة فى سبيل الزواج. محمد فتحى قال أول الأمر:

ـ إنه قراره هو . .

ولما ألحت عليه جمالات قال :

ـ فليتزوج بها ، سيضمن مستقبله ويصلح خطأه .

فقالت جمالات متهكمة :

ـ ويخفف عنك بعض الأعباء .

فقال بتحد :

ـ عنى وعنك .

زغلول قال :

ـ إنه موقف مناهض للرومانسية ولكنه ليس مناقضا للأخلاق .

وقال رمضان ساخرًا :

ـ مع السلامة ، حل غاية فى التوفيق .

إن ثقتها بزغلول ورمضان لم تتدهور ولكنها لم تعد تفهمهما تمام الفهم ، وعما قليل ربما تلاشى التفاهم بين الجميع . ومن حسن الحظ أن محمود لم يعارض فكرة الزواج . لعله يرى فيه إصلاحا لخطئه أو تكفيراً عنه . إن مثله لا تطيب له الحياة بلا تكفير . على ذلك قال لها :

ـ سيبقى فى النفس جرح لا يلتئم بسبب عنايات .

سيبقى فى نفسها أيضًا . لعل سر عطفها عليه أنه يشاركها العذاب ، وأنه جاد فى تحويل القول إلى عمل ، ولكنه كان أيضًا الجانى الأول! فلتنته هذه المحنة التى عرَّتهم جميعًا بلا رحمة . فلتنته ليرجع إلى وسادتها النوم الهادىء وليخف عنها الضغط . وإذا كانت لم تحظ براحة ضمير كاملة فقد لقنت درسًا فى التواضع والأسى . وسرعان ما زفت البشرى إلى صديقتها الحميمة أم فردوس ، وسرعان ما تم الزواج بلا تكاليف من ناحيتهم غير مؤخر صداق مقداره خمسمائة جنيه .

١٩

واشتدت الزوابع فى أواخر الشهر غير أن جمالات قالت لنفسها إن أمشير يلقى تحيات الوداع وعما قليل يهل الربيع بالنضارة والبهجة . وإذا بالبواب يقول لها وهى راجعة من السوق :

ـ عنايات تعمل فى شقة مفروشة بالعمارة الجديدة عند الناصية .

ارتعد قلبها وغشيتها سحب الأكدار . إنها إحدى النهايتين ، وهى تؤجل النهاية الأخرى ـ الموت ـ ولكنها تؤكدها . وقد ضاق محمد بالخبر ضيقًا شديدًا وقال :

ـ بوسعها أن تصون نفسها ، فلن يرغمها أحد على الفساد .

أشفقت من التمادى فى مناقشته غير أنها تمتمت :

ـ سيعلم محمود بذلك عاجلاً أو آجلاً . .

فلوح بيده قائلاً :

ـ فليعلم ، لن يغير ذلك من الأمر شيئًا .

* * *

وذات يوم رجع الرجل من عمله فى ميعاده ولكنه كان شاحب الوجه زائغ البصر . خفق قلب جمالات فشخصت إليه ببصرها دون أن تنبس . عند ذاك قال دون أن يشرع فى خلع ملابسه :

ـ خبر سيئ جدًّا يا جمالات .

فغمغمت فزعة :

ـ اللهم احفظنا !

ـ محمود تزوج من عنايات وذهبا معًا!

فهتفت بصوت مبحوح:

ـ غير معقول.

ـ لكنه حصل.

ـ لقد انصرفت نفسه عنها بعد ما توكد له أنها . . .

قاطعها بنفاد صبر:

ـ لكنه حصل . .

فتساءلت بذهول:

ـ وفردوس؟ . . ومؤخر الصداق؟

ـ واضح أنه لم يصدر فى عمله عن عقل أو منطق.

ـ ومستقبله ودراسته؟

فقال بأسى:

ـ لم تتح لى مناقشته!

ـ وكيف يعيش؟ . . كيف يواجه الحياة؟ . . هل وجد عملا؟!

رفع الرجل منكبيه فى يأس وقال:

ـ لا معنى لهذه الأسئلة، التصرف جنونى لا سبيل إلى فهمه فى نطاق العقل والمألوف.

وفرق بينهما صمت ثقيل فراح ينظر إلى صورة زفافهما المعلقة بالجدار نظرة خالية من الرؤية، على حين امتد بصرها من الزجاج المغلق إلى السحب الراكضة.

الحب والقناع

أول ليلة فى الڤيللا الجديدة عقب العودة من شهر العسل. شهر العسل - أغسطس - مضى فى رأس البر ثرى البهجة والرياضة والحساسية. بدأ حبا من جانب واحد - جانبه - ثم تسلل إليها الرضا والإقبال مقتلعا ذكريات بالية. استقبلا المساء بالجلوس فى الشرفة على كرسيين هزازين متجاورين فى ضوء خافت مطلين على الحديقة الصغيرة المفعمة بأنفاس الليل الناعمة. كم يطيب له أن يلحظ عارضها الجميل ورأسها النبيل بشغف ورغبة فى الاستطلاع. وكانت ترسل الطرف إلى شارع الهمذانى الغائص فى قلب المعادى بأشجار الكافور المغروسة على جانبيه. استرخت فى قميص أبيض طويل طارحة شالها على ذراع الكرسى على حين تمدد فى بيجامته الزرقاء الراسمة لطوله الرشيق. فى شهر العسل تم تعارف حميم، تولدت ألفة حارة فاطمأن إلى نجاح مغامرته. قال:

- ضعى الشال على كتفيك.

فقال بصوت رخيم:

- الجو دافىء.

- سبتمبر لا أمان له.

فقالت بعذوبة:

- أشعر بالأمان الكامل.

وجد فى قلب الجملة معنى خاصا فامتلأ صدره بالامتنان. مالت بالكرسى إلى الأمام فملأ قدحين بعصير الموز له ولها. وردته ذكرى من ذكريات رأس البر حين قدم كأسين من الويسكى قالت وقتذاك بجدية لم يتوقعها:

ـ مستحيل.

فقال معتذرا:

ـ إنه شهر العسل.

ـ ولو.

ثم مستدركة برجاء وحزم معا:

ـ ولا أنت!

لم تنثن أمام الحرج أو المجاملة. حتى فى أيام التلاقى الأولى وفى غمرة طوفان العواطف رفضت ما تأباه بقوة وشجاعة. وقد تراجع متلقيا نذيرا من المتاعب. أجل لم يكن الأمر مفاجأة له فهو يعرفها من قديم. خبر صلابتها التى أرهقت قلبه، وطالما رآها وهى طالبة بكلية العلوم ترفل فى زى المسلمات المحتشمات مطوقة الرأس والوجه بالخمار الأبيض. وألم يقل له صديقه عبدالبارى خليل المحامى: «إنك مقدم على الزواج من كائن له مظهر أنثى ومخبر إمام مسجد»؟! لكنه الحب أو لعله الحب والعناد.

وسألها:

ـ أعجبتك الڤيللا يا فتحية؟

ـ إنها تفوق الخيال ولكنى لم أقدم لها إلا القليل..

ـ قلامة ظفرك أثمن منها ومما فيها.

فقالت ضاحكة:

ـ أنت رجل غنى تجود بالكلام كما تجود بالأشياء الثمينة..

ـ أنا رجل عاشق بلا زيادة . .

ـ وأنا سعيدة .

ـ لكن لم يجر الحب على لسانك بعد . .

فضحكت قائلة :

ـ أنت تعرف تماما ما تسأل عنه . .

تجلى لعينيه يسرى أحمد . لا يمكن أن يجيء وحده ، ولكن فى إطار جامع لعبدالبارى خليل ووهدان المتجلى وعدلى جواد وفتحية سليمان وشارع ابن خلدون بالسكاكينى . جيران وأصدقاء من الطفولة . أعمار متقاربة حتى فتحية لا تصغرهم إلا بعام واحد فهى فى التاسعة والعشرين بينا هو فى الثلاثين . لكن يسرى أحمد تجلى لعينيه وحده فى تلك اللحظة . تجلى له فى موقف لا ينسى حين خلا إليه فى حديقة الظاهر بيبرس . كان أحب الجميع إلى قلبه وكان يسعفه فى العلوم والرياضة المستعصية عليه . تطلع إليه بوجهه الشاحب الجذاب وارتبك فسأله :

ـ مالك يا يسرى؟

ـ لا أدرى كيف أبدأ .

ـ أمر مهم ولا شك؟

ـ فعلا ، لبيب ، نحن أخوان .

ـ طبعـــا .

ـ وأنا باسم الأخوة أحدثك ، المسألة تتعلق بفتحية بنت الشيخ سليمان .

خفق قلبه خفقفة رسبت فى حفريات صدره إلى الأبد .

ـ ما لها؟

ـ إنك يا عزيزى تطاردها فى الشوارع .

تساءل بوجوم :

ـ شكتنى إليك؟

ـ معذرة ، إننا متفقان على الزواج . .

تمتم وهو يتجرع المرارة :

ـ لم أكن أدرى . .

ـ طبعا فأنت أخ كريم . .

. . هاهى ذى تقول له : «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه» بعد أن تلاشى الماضى تماما . ولكنه تلقى الخبر وقتها بحزن مجنون بها . ودفعته انفعالاته إلى جحيم الكراهية . انقسمت عاطفته نحو يسرى أحمد فجرى الحب فى نصفها والمقت فى النصف الآخر . يسرى قصير رقيق وهو طويل رشيق ، صاحبه رقيق ضعيف وهو رياضى قوى نسخة طبق الأصل من أبيه داود الناطورجى . وتساءل بحقد : هل أصابها العمى؟ وتساءل أيضا : هل يسلم بالهزيمة أو ينتظر نجدة من المجهول ، من الموت نفسه؟ ها هى ذى تقول له : «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه» . وقال لنفسه : «إن خير ما اهتديت إليه هو أنه لا معنى لشىء» .

ـ أعددت فى الڤيللا حجرة خاصة لوالدتك ولكنها عنيدة .

ـ وأنا أيضا ألححت عليها ولكنها كما قلت لك لا تفرط فى بيتنا القديم .

هز رأسه متظاهرا بالأسف . عادا يتبادلان شعورا خفيا بوجودهما معا ويلوذان بصمت هنىء حتى خطرت له خاطرة فضحك فسألته :

ـ ماذا يضحكك؟

ـ عرفتك دائما جادة فلم أكن أتصور أنك أنثى كاملة . .

فضحكت بسرور وقالت :

ـ ولكنك أقدمت على رغم ذلك على طلب يدى!

ـ إنه الحب . .

ـ أنت أيضا لا تخلو من تناقض، فمظهرك القوى غير متناسب مع رقتك الحقيقية . .

فتملى قولها قليلا ثم تساءل:

ـ لعلك لا تتصورين أنى قاتل مثلا؟

فقالت ضاحكة:

ـ إنى كيميائية لا سيكلوجية وهذا من حسن حظك.

ـ بهذه المناسبة أقول لك إننى شرعت أغازل كتبك العلمية فعليك أن تغازلى كتبى الثقافية، كلانا يكمل صاحبه . .

فقالت باهتمام:

ـ ولكننى أسيء الظن بكتبك، ولن تجد يقينا حقيقيا إلا فى الدين والعلم . .

إنها تتحدث عن اليقين. لعلها تظن أنها تعرفه كما يعرفها. وهى صارحته بكل شيء، صادقة صريحة ومنذرة بالمخاوف. أما هو فلا تعرف عنه إلا السطح، فهل تزوجت من رجل آخر؟ إنه الحب ولكنه الخوف أيضا، فهل تتسع هذه الڤيللا لثلاثة؟ وثمة الشعور الحقير بالذنب يطارد العذابات الخفية. هيهات أن ينسى منظر يسرى أحمد قبيل وفاته، والانقضاضة الوحشية الدنسة فى ظلام الليل.

٢

وقفت فى الشرفة عند الضحى فى مهبط الشعاع الذهبى. عقب جولة من المشى السعيد فى شوارع المعادى. يا لها من قامة رشيقة ووجه

جذاب. إنه يملك ذلك كله بعد حسرة التهمت الصبا والشباب الأول.
تمتمت:
- غدا أرجع إلى العمل، لكل شىء نهاية.
كما انتهى شهر العسل. وكما يدب الفناء فى الوليد منذ اللحظة الأولى. قال بأسف:
- غاب ذلك عن بالى تماما.
فقالت متهكمة:
- هكذا ذاكرة الأعيان.
- ترجعين راضية إلى معامل وزارة الصحة؟!
- كل الرضا.
- ذكرياتى عن الكيمياء تتلخص فى أنابيب يتصاعد منها دخان كريه الرائحة..
- ولكنى أراها بعين أخرى.
- وكيف يستقبلونك بعد شهر العسل؟
- طبعا لن يخلو الاستقبال من غمز.
فتنهد قائلا:
- كم أحلم باستقرارك فى بيتك.
أقبلت نحوه حتى وقفت أمامه فى ردائها المكون من قميص أزرق وبنطلون رمادى وسألته:
- خبرنى متى تشرع أنت فى العمل؟
الصوت الذى يخشاه يتكلم. الوعد لديها ميثاق دولى. تذكر لقاء الخطوبة الثالث عندما بدا أنها تميل للموافقة عقب إصرار طويل على الرفض. وقتها سألته:

ـ متى تخرجت؟

فأجاب ببساطة:

ـ منذ ستة أعوام..

ـ ولماذا بقيت بلا عمل؟

ـ لست فى حاجة إلى العمل كما تعلمين.

ـ لكنه العمل الذى يخلق الإنسان لا دخل خمسمائة جنيه.

ـ لا ينقصنى شىء، وإنى لخبير فى التعامل مع الوقت، لى مكتبة ضخمة، لى أصدقاء، ثم إننى لم أقتنع بعمل أبدا..

ـ إن كنت تضيق بالوظيفة فافتح مكتبا للمحاماة. صديقاك عبدالبارى خليل وعدلى جواد محاميان، صديقك وهدان المتجلى قاض..

ـ إنهم فى حاجة إلى العمل..

ـ الإنسان بلا عمل عرضة للرعب.

ـ الرعب؟!

ـ الضجر، العادات السيئة، العزلة..

ـ قد توجد جميعا مع العمل..

ـ الاستثناء يؤيد القاعدة ولا يهدمها.

ـ هناك الزواج والأبناء.

ـ العمل أيضا مهم، إنه لأمر مهين أن يخطر الإنسان فى الحياة بلا عمل..

ولما كان متلهفا على الظفر بها فقد قال:

ـ سأجرب ذلك..

ـ فى أقرب فرصة.

فحنى رأسه بالإيجاب. تجاوز عن مزاجه الراسخ من أجل الحب. وتأثر بنظرة عينيها وثبات نبرتها تأثرا أشاع فى نفسه الحذر والتوجس. وتذكر موقفها الرافض للزواج حتى شارفت الثلاثين فازداد حذرا وتوجسا. وتساءل: هل يعثر تحت ذلك السطح الصخرى على ينبوع من ماء الأنوثة العذب؟! تساءل مرتين ولكنه كان يحب حبا عنيدا أيضا. وآلمه شعوره القديم بضعف شخصيته. كان وما زال ناقدا قاسيا للذات فلم تخف عليه علله. إنه الآن يضع أمله فى حياة زوجية متوازنة فى الحب، حبها المتصاعد له. ستحبه كما أحبها وأكثر بل لعلها أحبته بالفعل فهمسات الفؤاد الخفية لا تغيب عن الوجدان اليقظ.

قالت بفخار:

- ملف خدمتى يحوى أجمل الشهادات بكفاءتى فى العمل.

- طبعـا.

- طبعا؟.. لماذا؟

- إنك تتحرين الكمال فى كل شىء.

- أيرضيك ذلك؟

- بلا أدنى ريب، ولكنى أحب أيضا الاعتدال!

- يا لك من رجل طيب.

ماذا تعنى يا ترى؟ أما هى فتساءلت:

- كيف كنت تمضى يومك؟

فقال مستبشرا:

- كنت أبدأ يومى بالسباحة طيلة أيام السنة عدا الشتاء فألعب التنس، فآوى إلى مكتبى حتى الغداء، أذهب إلى لقاء عبدالبارى ووهدان وعدلى بركننا المختار فى الفردوس، وقد أذهب إلى سينما أو أمضى السهرة أمام التليفزيون.

ـ إنهم يستريحون من العمل، أما أنت فتواصل حياة الفراغ . .

فابتسم بلا تعليق فقالت :

ـ قراءاتك متنوعة، يسرنى أنك تضم إليها العلم أخيرا، لكن لأى هدف تقرأ؟ . . هل حلمت يوما بالتأليف؟

ـ أبــدا .

ـ وفى المقهى كنت تشرب الويسكى؟

ـ بضع كئوس .

هزت رأسها بأسف فقال :

ـ علينا أن نأخذ الأمور بهوادة ورفق . .

ـ أعتقد أن الإيمان يتطلب جدية أكثر .

تذكر قول عبدالبارى عن إمام المسجد . إنها طراز نسائى غريب حقا . قالت :

ـ إنك بذرة طيبة تعد بشجرة طيبة وسوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك .

ياللداهية . ها هو ذا صوت داود الناطورجى ـ أبيه ـ يتردد من جديد . ماذا تظن؟ وماذا تدبر؟ تذكر اجتماعا ذا مغزى بركن الفردوس فى الشهر السابق لزواجه . قال وهدان المتجلى القاضى المعروف بميوله الدينية :

ـ فتحية ممتازة ولكن عليك أن تتغير .

فقال عبدالبارى خليل :

ـ أو اضمن حبها لك فيجىء التغيير من ناحيتها .

فتساءل هو بقلق :

ـ ألا يمكن أن يستقل كلانا بحياته؟

فقال عدلى جواد :

ـ كان عليك أن تختار فتاة من نوع آخر .

وهدان أسعد الثلاثة إذ ظفر بزوجة تملك شقة ، أما عبدالبارى خليل وعدلى جواد فيحلمان بالزواج منذ خمسة أعوام دون جدوى يأسا من العثور على شقة . ها هى ذى تهدده قائلة : «سوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك» . قال مدافعا :

ـ إنى شجرة بالفعل ، لست بذرة . .

فقالت باسمة :

ـ سأعتمد على الحب والعقل . .

قال لنفسه إنه سعيد حقا ولكن ماذا يخبئ المستقبل؟

٣

هذا أول صباح ينفرد فيه بنفسه منذ زواجه . بعد أن أوصلها بالمارسيدس السوداء إلى وزارة الصحة واعدا إياها بانتظارها الساعة الثانية بعد الظهر فى المكان نفسه . إنه يشعر بوحشة لغيابها ولكنه يجد أيضا نوعا من الراحة . كما ألف منذ قديم معايشة المتناقضات جنبا إلى جنب . كثيرا ما يبدو نصفين يناقض أحدهما الآخر فى العواطف والآراء جميعا . أما ما يكربه حقا فهو الوجه الآخر من حياته الذى أخفاه عن فتحية . منه جانب تافه مثل عش الهرم الذى كان يمارس فيه نزواته . لن تحاسبه على الماضى ، ولن تنسى موقفه من ماضيها أيضا الذى أغدقت عليه بسببه صفة النبل والشهامة . من السخرية بعد ذلك أنه قد ارتكب ما ارتكب من آثام من أجلها هى . ها هو ذا يخلو إلى نفسه فى مكتبته كالأيام الخالية ، وها هى ذى كتب الفلك والطبيعة والأحياء الجديدة ، ولكن نفسه مشتتة .

حتى فى شهر العسل كشفت عن جوانب نفسها دون مجاملة. إنها تذكره بأبيها الشيخ سليمان مدرس اللغة العربية بخلاف شقيقها المنتدب مهندسا بالكويت الذى شابه فى الدماثة أمه، فلم لم يحدث العكس؟!

إنها لا تدرى شيئا عن مقته ليسرى أحمد عندما علم بأنه حبيبها. فى تلك الأيام المتوحشة تمنى لصديقه الموت. أطلق على صورته خيالاته المدمرة المشحونة بالفناء. وشد ما سر عندما ألقى القبض على الشاب فى جنازة مصطفى النحاس. لم يعرف يسرى أحمد مصطفى النحاس ولكنه اشترك فى جنازته إكراما لذكرى أبيه الشيخ سليمان. وكان - لبيب - يسمع عما يجرى فى المعتقلات فناط أمله بأيدى الطغاة تقتلع يسرى من سبيله. على الرغم من أن حبه له لم يتبخر تماما، وعلى الرغم من أنه لم ينس أنه كان أستاذه فى العلوم والرياضة ومرشده فى أخطر مرحلة من مراحل حياته، مرحلة الإلحاد والثورة على أبيه داود الناطورجى. صرخت الرغبة السوداء فى قلبه: «القتل فى المعتقل أو السرطان».

فى غضون أسابيع أطلق سراح يسري أحمد لمرضه. وإذا بالأشعة تكشف فيه عن سرطان فى المثانة. تلقى الخبر بفزع واضطراب وحزن. شعر أيضا براحة عميقة. وكان فى إلحاده يتقزز من الإنسان بوصفه كائنا قذرا ذا إفرازات كريهة لا حصر لها فاقتنع بأن فى الإنسان من النوايا والسلوك ما يفوق الإفرازات الكريهة فى قذارته. وقد زاره فى رقاده الأخير. رأى الغطاء يشى بانتفاخ غريب فى منطقة البطن، على حين لم يبق فى الوجه الجميل سوى الجلد والعظم. ولما رآه يسرى ابتسم ابتسامة خفيفة كأنما يلقى عناء حتى من التبسم وقال بصوت ضعيف:

- لبيب، اقترب، إنى فى حاجة إلى قلب محب..

تفجرت دموعه بإخلاص فى تلك اللحظة. تذكر الماضى الحى والعواطف الجياشة والذكريات المشتركة فآمن بأن يسرى كان أصدق الأصدقاء جميعا. كيف هان عليه أن يقتله؟ لقد انطلق الغدر من صميم

القلب الأسود إلى المثانة. كم ازدرى نفسه. كم ازدرى البشرية جميعا. وساعده ذلك الاحتقار، بالإضافة إلى الخيبة فى الحب، إلى التمادى فى الاستسلام للوحش. وتبدت فتحية فى تلك الأيام تمثالا للجمال والحزن. رثى لها وشمت بها. ألم تكن شريكته فى جريمة القتل؟ وتأمل بقسوة وحنق استقامتها الفريدة فقال إن لها أيضا إفرازتها الكريهة. وبكى فى جنازة يسرى طويلا حتى اقتنع بأنه لا خلاص إلا بتحطيم الكون.

ها هو ذا يصمم على القراءة فيقلب صفحات «الكون.. ذلك المجهول». ويتساءل: هل فى وسع الحب والزواج أن ينتشلاه من الجفاف؟ ربما. ولكن فتحية تتبدى كثيرا كأنها نذير جديد بالمتاعب. وواضح - وهو الأدهى - أنها تروم خلقه من جديد.

برجوعها إلى الفيللا حوالى الثالثة مساء دبت فى الفيللا حياة جديدة. ولما دخلت الحمام عاودته خواطره الساخرة، ثم جلسا يتناولان الغداء. له طاه خبير بصنع الطعام الجيد. وهما - فتحية ولبيب - يتصفان بشهية جيدة، ولكن تناول الطعام كان من الخواص التي يتقزز منها ويطالب بسببها بتحطيم الكون. جعل يختلس إليها النظر وهو يرفع الشوكة إلى فيه ويقارن بينها وبين القطط والكلاب. حقا إن الطعام أس التعاسة البشرية. قالت:

- يوم مرهق بالقياس إلى العطلة.

فابتسم وقال بدوره:

- بدأ البحث عن شقة للمكتب.

فهتفت بسرور:

- جميل أن أسمع ذلك.

فحنق عليها فى باطنه ولكنه أفرخ حنقه فى صدر الدجاجة الرقيق. قال:

ـ قراءة العلم متعة فريدة حقا . .

فقالت بثقة :

ـ بالدين والعلم تكمل صورة الوجود ويطمئن القلب .

ولما همّ بتقشير تفاحة سألته :

ـ أليست مغسولة جيدا؟

ـ بالصابون أيضا .

فقالت بلهجة آمرة :

ـ كلها بقشرتها . .

الظاهر أن الوصايا ستمتد إلى التفاح أيضا ! صدع بالأمر صامتا فسألته :

ـ ما رأيك فى زيارة ماما بعد العصر؟

فقال بسرور خفى :

ـ ليكن ذلك غدا إذ إنى دعوت عبدالبارى ووهدان وعدلى إلى فنجان شاى مساء اليوم .

٤

سر بوجودهم حوله فى الشرفة سرورا لا مزيد عليه . جالستهم فتحية وحثتهم على تناول الشاى والحلوى . إنهم أبناء شارع واحد وذكريات كثيرة مشتركة ، ومطلعون أيضا على دخائل أسرهم لدرجة لا يستهان بها . حتى المرحوم يسرى أحمد فرضت ذكراه نفسها فى سهو الحديث فمر على لسان فتحية مرورا عاديا ، فارتاح لبيب وأيقن أن الماضى قد مات تماما . فى أثناء الحديث قام وهدان المتجلى ليصلى العشاء فى

ميعادها كعادته، فتوجس لبيب خيفة مجهولة. لقد امتنع عن التردد اليومى على الفردوس كيلا يهجرها وحدها عقب نهار مرهق ولكنه بيت أن يسألها السماح بسهرة أسبوعية. وكالعادة شاع فى المجلس الشكوى من الحياة اليومية، غلو الأسعار، المواصلات - التليفونات، المجارى، حتى تساءلت فتحية:

- ماذا تتوقعون من دولة كافرة؟

فتساءل عبدالبارى خليل:

- هل الإيمان يجفف المياه الطافحة؟

فقالت بابتسامة متحدية:

- اسخر كما ينبغى لماركسى أن يسخر.

كره لبيب انعطاف الحديث إلى منعطف متفجر ولكنه لم يدر كيف يسكت عبدالبارى الذى قال:

- أسعد شعوب الأرض تعيش فى كنف دول ملحدة.

فقالت فتحية بقوة لم تبلغ الحدة إكراما لآداب الضيافة:

- الإنسان بغير الله أتفه من ذرة غبار، ماذا نعرف عن هذه الشعوب؟ لا شىء فى الواقع ما دامت محرومة من التعبير الصادق عن قلوبها الخاوية..

فقال عبدالبارى:

- للبطولة والنبل ثمن.

- أى بطولة؟ وأى نبل؟ حتى المؤمنون يهبطون أحيانا إلى النفاق فيفقدون الأمل فى البطولة والنبل، فما بالك بالضائعين..؟

وتساءل وهدان:

- لماذا لا تشترك فى الحديث يا لبيب؟

فبادره على الفور :

ـ زوجتى تتكلم بلسان الأسرة . .

ثمة غيوم كثيرة لم تظهر بعد فى الأفق . لقد بعث أبوه من قبره على غرة منه . ليتها كانت امرأة مستغرقة فى الأنوثة والبيت . إنها رجل أيضا ، تعاليم لا هوادة فيها ، ولا بديل عن الكذب إلا بخوض معركة . وألح عليه شعوره بضعف الشخصية . ذلك الشعور القديم الذى فطن إليه بفضل نقده القاسى للذات وتضعضع ثقته بنفسه تحت ضغط إرادة أبيه الصارمة . ها هو ذا لا يطيق الحياة بلا فتحية واستقرار الأسرة الزوجية . ولا شك فى أنها تحبه وستحبه أكثر ولكن يبدو أنها لا تفرط فيما تؤمن به . ولقد وجد فى معاشرتها معنى على حين أنه لا يجد معنى وراء ذلك . وراء ذلك خواء وعدم ورعب . فبين يديه صخرة نجاة تنتشل من الغرق وإن لم يلح شاطئ آمن للنجاة قريبا كان أو بعيدا .

عندما ذهب الأصدقاء الثلاثة قالت له :

ـ عبدالبارى شيطان ، فكيف تتعامل معه؟

فقال بحذر :

ـ الصداقة فوق تناقضات الآراء .

ـ الصداقة يجب أن تقوم على أساس أقوى من ذلك .

ـ بغير تسامح تصبح الحياة غير محتملة .

فقالت بامتعاض .

ـ إنه التهاون لا التسامح .

ـ إذا بالغنا فى التدقيق فقدنا الناس أجمعين !

فتمتمت بأسف :

ـ يا له من مجتمع يكتظ بالقذارة .

أخيرا سمع رأيا يتفق معها فيه بلا حدود فرحب به قائلا :

- إنى أتفق معك تماما، فما الإنسان إلا كائن ذو إفرازات كريهة ودوافع فظيعة مرعبة!

فرنت إليه بعينين دهشتين وقالت :

- ماذا قلت؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان، ولكنك تتحدث عن إفرازات ودوافع كأنك عدو البشر أنفسهم؟!

- أعتقد أننى لم أتجاوز الحق.

- لا . . لا . . معذرة إن قلت إنها نظرة غير عميقة. فما تشير إليه يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء.

تساءل فى نفسه : ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا إفرازات كريهة ودوافع وحشية وسلوك دنىء؟! لكنه جفل من التفوه بكلمة زائدة، بل هز رأسه كالمقتنع طاويا صدره على أسراره . .

٥

يميل الجو إلى شىء من البرودة ليلا فيطيب الجلوس فى حجرة المعيشة الموصولة بالشرفة. وهى مأهولة بطاقم من الإسفنج المدثر بالقطيفة الزرقاء، ويتوسط جوارها الأيسر دولاب من خشب الأرو يقتعد التليفزيون الملون أعلاه ويستقر الراديو أسفله. رجعا منذ قليل من زيارة لأم نظيرة هانم مفعمين بذكريات ابن خلدون فتبدت فتحية منتشية على حين كتم هو انفعالاته المتناقضة المراوحة بين الجميل والمرعب. وفى أثناء تناولهما العشاء مع نظيرة هانم أبدت المرأة جزعها من تأخر حمل كريمتها. تذاكرا ذلك باسمين وقالت فتحية :

ـ ماما دقة قديمة .

لكنه فى الحقيقة متلهف على الإنجاب تلهف من يروم تحصين ذاته المزعزعة ضد المجهول والخواء فقال :

ـ لها حق أيضا يا عزيزتى . .

فحدجته بنظرة متفحصة فقال :

ـ يوجد الأطباء، لم لا؟

لم تعترض، مما قطع بتلهفها أيضا . آنس من ذلك آية على حبها له وزوال الماضى تماما . كما وجد فيها آية على أنوثتها التى يتمنى أن تغمر «الإمام المتصلب» الكامن فى أعماقها . لعلها كانت قلقة طوال الوقت ولكنها أحسنت إخفاء قلقها . هى أيضا لها أسرارها الباطنة كما أن له أسراره المرعبة . تمثلت له الظلماء وحركات الشبح اليائس والصرخة المكتومة فارتعد للذكرى .

وسألته وهى تلقى نظرة على الصور العائلية المعلقة :

ـ على فكرة أين صورة والدك؟

توجد صورة أمه الشابة، صورة نظيرة هانم، صورة الشيخ سليمان، ولكن أين صورة داود الناطورجى؟ عادت تسأل :

ـ سهو أم أنه لا توجد صور له؟

رحب بحديث لن يضطر فيه إلى الكذب فضلا عن فوائده الأخرى التى فطن إليها من اللحظة الأولى، لذلك أجاب :

ـ الحق أنى لا أحب ذكراه!

فحدجته باهتمام ودهشة قائلة :

ـ إنه أبوك . .

ـ ولو .

- يا للغرابة.

- لا غرابة فى الدنيا.

- إنى أتذكره جيدا، كان أشهر شخصية فى حى السكاكينى، ظل محترما حتى بعد إحالته إلى المعاش بعد الثورة، اللواء داود الناطورجى، بيت اللواء، سيارة اللواء، أنت ورثت عنه طوله وروعته، وكنت وحيده. مازلت أتذكر منظرك وراء نعشه وأنت تجهش بالبكاء..

فقال ببرود:

- كنت أحبه حتى موته، لم أجد نحوه إلا حبا خالصا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد ماتت أمى وأنا دون العاشرة فلم أعرف بعد ذلك أما أو أبا سواه، وانقض علىّ موته كالصاعقة، ولما انفض المأتم وآويت إلى الدار الخالية وجدتنى لأول مرة وحيدا، لا أم ولا أب، فلم أصدق أنه ذهب حقا إلا فى تلك اللحظة، وعند ذاك اجتاحنى شعور غريب بالراحة والأمان والحرية، شعور يتناقض تماما مع حزنى. ذهلت لذلك ولكنى استشعرت بتمهل السرور الخفى المثلج للصدر.

فقالت بوجوم:

- إنه رد فعل لشدة الحزن؟

- إنه أفظع من ذلك، شعرت لأول مرة بتحررى من قبضة غليظة قاسية. تخيلت هول الكارثة لو أننى استيقظت فى اليوم التالى فرأيته واقفا فى الصالة يمارس رياضته الصباحية ويحاسبنى على تأخيرى فى الاستيقاظ!

جعلت تتابعه باهتمام وقلق فقال وكأنما يعنيها هى بمغزى حديثه:

ـ مع الأيام جعلت أحاسبه على معاملته الصارمة لى فيحتدم الغيظ فى قلبى ويشتعل الحنق، ويتولد النفور وينتشر حتى انقلب كراهية سافرة . .

ـ لا أصدق .

ـ فتحية، لقد بلغ بى النفور درجة حملتنى على أن أبنى لنفسى مدفنا خاصا حتى لا أرقد ذات يوم إلى جانبه!

هتفت :

ـ إنه ما لا يتصوره العقل . .

ـ وفاة والدتى فى عز شبابها كانت مصيبة لم أعرف أبعادها إلا فيما بعد .

ـ قيل إنه لم يتزوج بعدها إكراما لك . .

ـ وهذه كارثة أخرى، فقد كرس حياته لينشئنى على مثال مرسوم بدقة وصرامة، وراح يصبنى فى قالبه كأننى طينة لا هوية لها مستعينا بعنف لا مثيل له، هكذا تلقيت الدين وشعائره كما تلقيت كل شىء . العجيب أنه لم يقرأ كتابا فى حياته، حتى دينه أخذه عن إمام جاهل اكتراه ليعلمه الإسلام ثم نقله إلى نقلا ميكانيكيا فحفظته ومارسته فى جو من الفزع . .

تمتمت بحيرة :

ـ أبى هو أيضا من علمنى دينى . .

ـ كان أبوك من علماء الدين أما أبى فكان جاهلا وإرهابيا!

ـ كنت أراك وأنت تتبعه إلى صلاة الجمعة . .

ـ وحملنى أيضا على صلاة الفجر فكان يغلبنى النعاس فى الفصل، وحملنى على ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والعدو وحمل الأثقال بالعنف نفسه . أما ولعى بالقراءة فلم يخف احتقاره له

ولكن جهله بالكتب منحنى فرصة فريدة للسياحة الثقافية بعيدا عن رقابته الصارمة . .

وضحك ضحكة جافة ثم واصل :

- لم يكن يفوق عنفه إلا تعصبه الأعمى لأفكاره، من هذه الأفكار إيمانه بالمقاومة الطبيعية واحتقاره للدواء. ولما أصابتنى نزلة معوية قرر أن يتركنى لمقاومتى الذاتية، طالبته المربية بإحضار طبيب فرفض، ومضيت أهزل من الإسهال يوما بعد يوم حتى صرت كالخيال وهو لا يبالى، كان يمكن أن أفقد حياتى وأشفيت على ذلك ولكنه لم يكترث، ولما نجوت بأعجوبة قال لى بفخار. «إنك ابنى حقا ولن يهزمك المرض بعد اليوم، لماذا رحلت المرحومة أمك فى عز شبابها؟ . . لأنها كانت ضعيفة فلم ينفعها طب ولا دواء».

انساقت فتحية إلى ضحك بلا صوت فابتسم هو أيضا ثم قال :

- على رغم أنفى أجبرنى على الالتحاق بالكلية الحربية، لم تجد توسلاتى ولا دموعى، محتجا بأنها كلية الرجال والحكام أيضا. وأنها ستنقذنى من داء القراءة الوبيل، ولولا وفاته الفجائية . . .

قاطعته قائلة :

- لقد تساءلنا وقتها عما جعلك تترك الكلية، ولكنك لم تفد شيئا من التحاقك بكلية الحقوق!

- كانت أفكارى مختلفة فى ذلك الوقت. المهم أنك أنت نفسك تحديت أوامره وأنت لا تدرين!

فتساءلت بدهشة :

- كيف؟

- رشح لى ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء على المعاش من أقرانه تاركا لى حرية اختيار إحداهما ومعتبرا ذلك من ناحيته تنازلا

ديموقراطيا شاذا. وكنت أحبك كما تعلمين فصارحته بذلك معتمدا على صداقته القديمة بالمرحوم والدك، ولكنه انفجر غاضبا.

فقطبت لأول مرة متسائلة:

ـ لماذا؟

ـ بحجة أنه لا ثقة له ببنات الأرامل.

فقالت باستياء:

ـ كان سيئ الظن بالنساء!

ـ وبالرجال والحيوان والنبات والجماد. شد ما انتقد أصدقائى بلا سبب وكأنما يرغب فى أن ينشئنى بلا صديق سواه. وفضلا عن ذلك كله كان شديد الحرص فعاش فى حدود معاشه ولم يمس مليما من دخله الوفير من عماراته، ولعل ذلك ما جعله يتمسك بالبقاء فى البيت القديم بابن خلدون متعللا بأنه راسم أن يعودنى على الحياة البسيطة، وأعترف بأن ذلك لم يضايقنى إذ إننى لم أكن أطيق الحياة بعيدا عنك..

ساد صمت كئيب تبادلا فيه نظرات باسمة وحزينة حتى قطعت الصمت قائلة:

ـ كان شخصا غريبا ولكنه عرف فى الحى بالقوة والبهاء والتدين وحب العزلة، وبالتضحية بمسراته فى سبيل وحيده، الله يرحمه. على أى حال، أليس عجيبا أن ينحدر من صلبه رجل مثلك آية فى الكرم والاتزان وحسن الخلق؟!

ارتجف باطنه برعدة قاسية. غشى خياله الظلام الذى أخفى الوحش والفريسة، وتجسدت لعينيه نواياه القديمة بأنيابها ومخالبها. وتساءل بفتور:

ـ ألا يحق لى بعد ذلك أن أكره ذكراه؟

فقالت ضاحكة :

- كلا ، لا تنس أنه وهبك الحياة والمال ، ولكن ألم يخالط قلبك فى حياته أثارة من عاطفتك الرافضة؟

- كان يرمى به شديدا متواصلا ولكنى أحببته دائما ، ولم يكن من الممكن أن تتسلل إلى باطنى عاطفة أخرى لأنه كان يعيش فى باطنى أيضا ، فى تلافيف مخى ونبضات قلبى وأحلامى ، كان الخوف يكمن هناك كالديدبان . .

قالت متنهدة :

- كان أبى شيخا ولكنه كان ذا عقلية متفتحة ، ربما كان يفضل أن يعدنى للبيت ولكنه حين آنس منى تعلقا بالتعلم سمح لى بالاستمرار فيه ، دخلت الجامعة أيضا دون معارضة تذكر ، وعلمنى دينى أحسن تعليم فكرست حياتى للعلم بوصفه قراءة جديدة لدنيا الله .

فقال بحذر :

- كثيرون ألحدوا بسبب العلم . .

- لا دخل للعلم فى ذلك ، الإلحاد عجز فى النظر .

- على أى حال كان أبى رجلا من صنف آخر ، كان جاهلا ومتعجرفا وقد وجد فى الشكل مبتغاه ، وكان يمقت المناقشة ويقاتل التساؤل البرىء ، كان يلاحقنى من الصباح الباكر حتى النوم بالأوامر والتعليمات والمراقبة . .

- ألا يشفع له عندك حسن نيته؟

فقال بامتعاض :

- كلا .

- أكان كذلك فى حياة المرحومة والدتك؟

ـ ذكرياتى عن أمى قليلة، أجل كانا يختلفان كثيرا، وكانت هى عصبية مستعدة دائما للتمرد والتهديد بهجر البيت، وكان ينبغى أن أتعلم منها ولكنه نجح فى استعبادى، تارة بالعنف، وتارة بإقناعى بأن أى استهانة بأوامره هى خروج عن إرادة الله المتعال، ولو أننى تمردت عليه حقا لضمنت لنفسى حياة أفضل . .

ـ حياتك مقبولة جدا . .

فقال مضمنا كلامه تنبيها لها :

ـ كانت حياتى لعنة ولكنها لم تخل من عبرة، فقد علمتنى أن أتجنب الاستبداد بالغير، واحترام الآخرين فكرا وعقيدة، علمتنى ألا أعُدّ نفسى مقياس الخير والشر فى الوجود!

وتساءل فى باطنه ترى هل أحسن الدفاع عن نفسه؟!

٦

مضى من الخريف ثلثاه وتشبع هواء الليل ببرودة مستقرة. من مجلسهما وراء الزجاج المغلق يرى البستانى نهارا وهو يكنس الأوراق المتساقطة، وتلوح فى السماء سحائب بيضاء وهى تهدهد الشعاع الذهبى. فتحية تملأ الفيللا بحركاتها الرشيقة. ما أشد الفارق بين الكيميائية المتدينة والأنثى الدافئة. إنه لتناقض يذكره بالتناقضات التى تمزقه. بوسعه دائما أن يهاجم أو أن يدافع عن أى رأى أو مذهب أو عقيدة، الحجج السالبة تعادل عنده الحجج الموجبة، ولكن لا أحد من أصدقائه يأخذ حديثه مأخذ الجد فهم يعرفون تماما أن قلبه ينبض فى خواء. وهو يرى فى زوجته نساء كثيرات: ثمة فتحية ذات الرداء

الأبيض العاملة فى المعمل، وفتحية المؤمنة المتطرفة، وفتحية الفراش الباهرة. أيهن أصدق؟ فتحية الغريزة أم فتحية المؤسسات؟!

قالت له ذات مساء وكانت متجهمة:

ـ اختاروا زميلا دونى كفاءة لبعثة صيفية!

تساءل وهو يلحظ حنقها بسرور خفى:

ـ لماذا؟

ـ أسباب سخيفة طبعا أهمها قرابته لأحد أعضاء مجلس الشعب.

ـ صحتك النفسية أهم عندى من البعثة.

ـ السكوت عن الخطإ أفحش من الخطإ، أثرت الموضوع عند المدير، وطلبت تحديد ميعاد لمقابلة وكيل الوزارة.

وعقب صمت قصير قالت مستعملة لغة الشعارات التى ينفر منها.

ـ على الحياة أن تكون جهادا متصلا.

ها هو ذا صوت مؤسسة يعلو. الغضب الذى احتقن به وجهها هو صوت الغريزة. لعلها تمتلئ الآن بالرغبات المدمرة. باسم الدين أو العلم يمكن أن ترتكب فظائع. أسعده أن تشاركه ولو بصفة عابرة صدق الغريزة الوحشى. شرها يقربها إليه بقدر ما يبعدها تطهرها. اقتحمته ذكرى وفاة يسرى أحمد. عرف وقتها أنها عاهدت نفسها على البقاء عذراء احتراما لذكراه. رفضت أيدى كثيرين. عنيدة وقادرة على الرهبنة. تربص منتظرا من بعيد. تتابعت الأعوام حتى قاربت الثلاثين من عمرها. وهى مصممة وهو صابر متصبر. إنها اليوم قلقة لتأخر الحمل، كلما جاءها الطمث تجهمت. لعل حبها ليسرى لا يمكن أن يتكرر ولكنه قتل غريمه وفاز أخيرا بامرأته. فعل الإنسان الأول. لدى ظهور الإنسان انعقدت عليه آمال كبار. ألم يئن الأوان لإعادة النظر؟ رائحته تفسد جو الأرض وفعاله يندى لها جبين الحيوان.

ثم قرر أن يجرب حظه فمضى إلى مقابلة نظيرة هانم أمها. لم يتراجع أمام الرفض ولكنه طالب بالانفراد بها فى حجرة الاستقبال التقليدية المذهبة الطاقم. إنه ليذكر تماما ما دار من حديث فى أول لقاء:

- أتوسل إليك أن تصغى إلى.

- إنى مصغية.

- موقفك طال وهو غير معقول.

- لا أراه كذلك.

- ينتظر من أساتذة الكيمياء حكمة تماثلها.

- لا علاقة لذلك بالكيمياء.

- كلنا سنموت.

- إنى متيقنة من ذلك.

- لست الأولى.

- ولا الأخيرة.

- إنى أحبك من قديم.

- أشكرك.

- إنى أحب فتاة لا ذكرى.

- هل يوجد فرق كبير؟

- أظن ذلك.

- لا أظن.

- لا يمكن أن تضيع حياتك فى رهبنة.

- لا ينقصنى شىء.

- لن أطالبك بالحب فلنكل أمرنا للمعاشرة.

- إنك كريم ولكننى آسفة.

ـ لا تسدى الطريق فى وجهى، دعينى أحاول وأحاول . .

فى تلك الأيام لم ينتحر بفضل مكر الحياة. لم تكن الخيبة خيبة الحب وحده ولكنها خيبة الحياة نفسها. هام بالحب كصخرة للنجاة فى خواء فقد أى معنى. تعلق بأى شىء من صداقة أو دعارة أو شراب، شبع كثيرا وغاص فى الكآبة أكثر . .

بالإصرار نال أخيرا مبتغاه. وكان فاتحة التحول عندها أن راحت تحاسبه على بقائه الطويل بلا عمل. تزوج فطار بها من ابن خلدون إلى المعادى. رضى بها بلا قلب. سرعان ما تفتح القلب وتغيرت الحياة. لكن مجلسه السعيد معها لا يخلو من توجس. إنه يخشى الإمام وصوت المؤسسة . .

٧

أصبحت عادة جميلة مثل سحائب الخريف. تدثرت بالروب، كذلك هو فالجمال عند اقتراب الشتاء يتوارى كالأزهار. كلا إنها مثل الأشجار دائمة الخضرة ما زالت تعبق بأنوثة ريانة. وجاء وعد الطبيب أخيرا منعشا للآمال. ولكن فى غمرة النعومة ينبثق سؤال مثل:

ـ ما أخبار الشقة؟

ينقبض صدره ويجيب:

ـ إنى أتصل بالسمسار كل يوم.

ـ هل تنظر فى مراجعك القانونية؟

ـ طبعـا.

الكذب عادة يومية أيضا. كما تطبع به فى عهد أبيه. يقول وهدان

المتجلى: «العمل قيمة عظيمة لمن كان مثلك، وزوجتك على حق». لمن كان مثلك يعنى لمن لا يربطه معنى بالحياة. لعله صدق. ولكن أى جدوى فى الاشتغال بقضايا المتطاحنين؟ وهى لا تصدقه تماما فرجعت تقول:

- أحيانايخيل إلى أنك غير مهتم..

فيوكد اتصاله بالسمسار. صوت أبيه يتردد من وراء القبر. إنها متوثبة دائما لصبه فى القالب المنشود كأنها لم تسمع بمأساته مع أبيه. سيظل دائما وأبدا فريسة للمؤسسات. كم سعى إلى الانخراط فى مؤسسة وكم فشل! طبعه أبوه بطابع الانقياد فقتل قواه الخالقة.

- على فكرة لم لا تصلى؟

- آه.

ابتسم ولم يجب.

- كنت قديما تصلى الجمعة والفجر.

هز رأسه صامتا.

قالت برقة تخفى انفعالها:

- ما أكثر المسلمين وما أقلهم.

أشار إلى قلبه وقال:

- هنا كل شىء.

- كلا، كيف أقلعت عن الصلاة؟

قال ضاحكا:

- تمردت على أبى عقب وفاته.

فتساءلت بجزع:

- إلى أى مدى؟

فقال بوضوح :

ـ إنى مؤمن، حسبى ذلك .

حتى متى يكذب؟ أما هى فشرعت تقول :

ـ ليتنى . . .

ولكنه قاطعها قائلا :

ـ كلا، أرجوك، الزمن كفيل بكل شىء .

فقالت بحرارة :

ـ ليت العمر يمتد بى حتى أشهد الله يحكم الدنيا مرة أخرى!

ـ آمين .

هيهات أن يخطر لها أن يسرى أحمد هو من قادة الإلحاد . لم يجد صعوبة فى زعزعة إيمانه فقد صادف فيه متوثبا للتمرد على أبيه، كما وجده سريع الانقياد كما طبعه أبوه . أجل خاض تجربة مرعبة معذبة، ثم سرعان ما وجد نفسه فى كون بلا إله ولا حدود . وكان يسرى على رغم إلحاده ذا خلق متين، وطالما قال له : «النبل أن نعيش كما ينبغى لنا من دون أمل» . وقد حفظ ذلك القول وردده كثيرا . حتى حيال أقرب الناس إليه ـ عبدالبارى، وهدان، عدلى ـ أسدل على وجهه القناع . أما الحقيقة فهى أنه لم يستطع أن يلتزم بالنبل فقتل ثم ارتكب ما هو أفظع من القتل . ولم يتركه ضميره بلا عقاب . وعجب لتطفل ضميره الذى رسب فى باطنه منذ العهد القديم . آية على ضعفه وجبنه . عندما يتحرر منه تماما يبلغ الصدق المنشود . سأله عبدالبارى : «لماذا تركز على السلبيات؟ . هذا ما يقتل أى معنى للوجود» . الحق إن إفرازات الإنسان وغرائزه هى عقدته لذلك هان عليه أن يكفر بمؤسساته فيراها هياكل خاوية وهمية . إنه يطوى أسراره فى صدره أما فتحية فتتحدث عن الصحابة قائلة :

ـ كانت أغلبيتهم من الشباب، ما أكثر من استشهد منهم، كانوا يعشقون الموت!

ويقول لها بعقل شارد:

ـ هكذا المؤمنون . .

الإنسان يفوق الحيوان فى شهوة القتل فيقتل نفسه أيضا. وهذه الزوجة المحبوبة لا تخلو من شعرة جنون. كم تبدو مطمئنة متألقة كما يجدر بخليفة الله فى أرضه. بقدر ما يسخر منها فإنه يوشك أن يحسدها. التناقض دائما وأبدا. كما مزقه أمام كل شىء. حتى الانعدام الكلى للمعنى لم يمحق متناقضاته. أما فتحية فإنها لا تردد الشعارات فحسب ولكنها تصدقها وتؤمن بها. كيف يستمر التعامل معها؟ إنه حريص جدا على ألا تتبدد سعادته وهما من الأوهام.

٨

هلت بشائر الأمومة. والأبوة أيضا. صادف ذلك أوائل الشتاء وأياما ممطرة. راحت فتحية تحسب الزمن وقالت:

ـ سألد فى سبتمبر، شهر مناسب للولادة.

فقال بحبور:

ـ بالسلامة.

لاح فى وجهها ذبول طارئ. أعقب ذلك فتور فى العواطف. وهدان المتجلى أخبره أن ذلك يحدث كثيرا ولا يخلو من فائدة. قال له ساخرا: «إنه تغير له معنى ككل شىء». اقتنع هو بأن متاعب الذرية تقع حال تخلقها فى الأرحام. رمق الأمومة بأمل أن تشغل بها عن تربيته هو

وتربية المجتمع الحديث. إنها جديرة بهذا الختام السعيد. هنيئا له انتزاعها من الرهبنة والجفاف. لقد فسر رهبنتها القديمة على أساس خاطئ. تذكر موقفا لا يمكن أن ينسى. ثمة تصرفات تهز النفس بنبلها حتى النفس الخاوية. احتسيا القرفة فى حجرة المعيشة وهما يشاهدان مسلسلة تليفزيونية. بات البار خاويا من قوارير الويسكى. عيناها السوداوان هادئتان متعبتان. إنها سعيدة ولا شك وتؤمن بأنه نبيل أمين. ما يزعجه حقا هو أنها تحب «الممثل» لا الشخص الحقيقى. الممثل رجل نبيل أمين مثقف لا عيب فيه إلا أنه مؤمن سلبى كغالبية المؤمنين فى هذه الأيام. لكنه ممثل، شخص آخر، ولو عرفت الشخص الحقيقى لولت تقززا. هى ليست من النوع الذى يحب الجسد وحده. ليست من النساء اللاتى يحببن اللصوص والبرمجية والقتلة. إنها تحب بروحها وجسدها معا. سلت حب يسري أحمد لتقع فى حب رجل وهمى. أما هو فلم يبرح موقعه القديم. موقع العاشق الخائب. موقع المحب من جانب واحد. ما زال يغتصبها ساعة بعد أخرى ويخدعها يوما بعد يوم. لقد فقد معانى الأشياء ولكنه طمح إلى الحب بوصفه معنى مستغنيًا بذاته وهو حريص على ألا يلحق بالأوهام. يمكن أن نجد فى الحب والزواج والذرية معنى محليا يستغاث به. غاب عن التلفزيون فتذكر الموقف المثير. حين دعته إلى لقاء مفاجئ بحديقة الأمازون. عقب عدولها عن الرهبنة وقبل إعلان الخطوبة. كان سعيدا باللقاء فوق البساط الأخضر. راح يعلن خططه عن الخطوبة والزواج حتى لاحظ أنها ليست موجودة معه. فسألها:

ـ مالك يا فتحية؟

فقالت بوجوم:

ـ كان يمكن أن تمضى الأمور فى طريقها المرسوم بلا كدر.

ـ وهى ماضية كذلك فأى كدر تقصدين؟

ـ إنى أرفض الخداع وأمقت الكذب ولست نهازة للفرص بأى ثمن.

فقال بضراعة:

ـ لا تتركينى للحيرة.

فتريثت قليلا مكفهرة الوجه ثم قالت:

ـ يوجد فى حياتى سر لا يجوز أن تجهله.

خفق قلبه وتخايل لعينيه شبح واحد. تساءل:

ـ أى سر؟

فقالت بحرارة متصاعدة:

ـ إنه مأساة..

ثم فى شىء من الاندفاع:

ـ وقعت المأساة وأنا طالبة. كنت راجعة ليلا من بيت زميلة عقب ساعات من المذاكرة، رحت أقطع حارة حمزة فى طريقى إلى ابن خلدون، وإذا بأنوار الحى تنقطع فجأة فيغرق كل شىء فى ظلام مخيف..

رجع الظلام بوحشيته فتجنب ملاقاة عينيها بحذر ولم ينبس فقالت:

ـ لن أطيل فالذكرى معذبة، هاجمنى شخص فى الظلام، كتم فمى، تصارعنا حتى فقدت الوعى..

تهدج صوتها حتى سكتت ولكنها تغلبت على ضعفها قائلة:

ـ لعلك أدركت بقية ما حدث!

ـ يا للفظاعة!

فاه بها وهو يرتعد فهتفت غاضبة:

ـ وحش.. حيوان.. قذر.. جبان..

فردد غائصا فى ظلمة باردة :

ـ وحش . . حيوان . . قذر . . جبان !

صمتا ليستردا أنفاسهما . . ترامقا فى تعاسة ، كلاهما أتعس من صاحبه . تمتم :

ـ أنت ؟ ! يا للفظاعة !

ثم هز رأسه متسائلا :

ـ أكان لذلك علاقة برفضك الزواج ؟

فقالت على الفور :

ـ أبدا ، لقد اعترفت لأمى فلم يهدأ بالها حتى أصلحت كل شىء ، فلم يكن ثمة ما يخيفنى من الزواج .

حنى رأسه مصدقا ، ولكنها تجلت أمامه فى هالة وضيئة . قالت مؤكدة :

ـ كان يمكن أن يمضى كل شىء بلا أثارة من شك !

ـ أدرك ذلك .

فقالت بصوت واضح :

ـ ولكننى أرفض الكذب والخداع ، فضلا عن أنك شخص جدير بالصدق !

فقال وبنيانه ينهار :

ـ فعلت ما هو جدير بك .

ـ شكرا .

فقال مزدردا ريقه :

ـ لا يمكن للشك أن يرتقى إليك وقد ازداد احترامى لك .

فتساءلت :

ـ ألا تخلو إلى نفسك بعض الوقت؟

ـ لا داعى من ناحيتى لتبديد الوقت .

فهمست باسمة لأول مرة :

ـ لبيب . إنك نبيل كما اعتقدت دائما .

هكذا وهب وسام النبل والأمانة . أما كان يجدر به أن يعترف لها بدوره؟ بدا ذلك مستحيلا ، كان على القاتل المغتصب أن يتوارى . الممثل يتهادى اليوم على المسرح وحده . لولا الحب والعناد ما أقدم على طلب يدها . كان حانقا عليها بقدر حبه لها . وكان يراها الحقيقة الوحيدة المتاحة له . ها هو ذا الممثل يمعن فى التمثيل ويتمادى . على حين يختفى الشخص الحقيقى ويذوب فى الظلام . هو الظلام القديم الذى مكن له من الحب والانتقام . كان مرفوضا معذبا ، رفضته فتحية كما رفضته الحقائق . كان لقيطا ملقى فى الوجود بلا أمل . وكان ينتظر خروجها من بيت صديقتها ليتبعها عن بعد . وانطفأت الأنوار فجأة وتمطى الظلام العميق . اعتقد أن الظلمة معجزة يجود بها الدهر . استيقظت شياطينه التى لم يعد يزجرها شىء . انقض على الحلم الجميل مدفوعا بالهوس والرغبة والتحرق على الانتقام . كاد يهلكها لولا أن أنقذها الإغماء . حملها إلى دهليز بيت قديم . انحصر فى ذاته الهائجة ففقد الوعى بالوجود . نسى أنه مهدد بقادم من فوق أو من الخارج أو بعودة النور . ثم مضى لاهثا ذاهلا لا يصدق بالنجاة . مضى متشفيا من ذاته ، من أبيه ، من فريسته ، من الوجود نفسه .

كانت تتابع المسلسلة مسترخية باسمة . .

٩

جلسا فى مجال المدفأة الكهربائية. الجو فى الخارج يصرخ ويزمجر وإيقاع المطر يتتابع فوق الأشجار والنوافد المغلقة. منظرها يستحق الرثاء. شحب لونها وغارت عيناها وانطفأ سحرها. وكان رمضان يطرق الأبواب فقال مداعبا:

ـ سأصوم وحدى يا عزيزتى.

قرر إعلان الصيام على أن ينتهكه سرا كلما ألح عليه الجوع إيثارا للسلامة. تمتمت:

ـ الله رحمن رحيم.

اعتقد أنه نال حظوة جديرة بالتقدير، ولكنها سرعان ما سألته:

ـ ما أخبار الشقة؟

اشتعل غضبه ولكنه انكتم فى أعماقه فقال:

ـ لم أوفق إلى شىء مناسب بعد.

ابتسمت ابتسامة أحنقته فقال:

ـ سيجىء كل شىء فى وقته..

لازمت الصمت ولكن وشى منظرها بقلة الثقة، فواصل:

ـ وعدت وسوف أفى..

ـ يبدو أنك تفعل ذلك من أجلى.

فنفس عن صدره بالصدق ولو مرة فقال:

ـ هى الحقيقة..

ـ ما زلت ترفض العمل؟

فقال ضاحكا:

ـ الفراغ هو أمل الأحياء المنشود..

ـ إنك تعيش فى الواقع لا فى الحلم.

ـ دخلى يمكننى من أن أعيش الحلم..

فتساءلت بعتاب:

ـ تأخذ دون أن تعطى؟

فهتف محتجا:

ـ إنى أملك عشر عمارات تخدم المئات من الأسر، وجريرة العمل أنه يشغل الإنسان عن التأمل..

ـ اليوم طويل وفيه متسع لأشياء كثيرة.

ـ على أى حال لقد وعدت وأنا ملتزم بوعدى.

سكتت عنه. لا مفر من فتح المكتب. سيتظاهر بالعمل كما يتظاهر بالصوم. ربما تورط فى العمل. إنها أقوى منه وهذا يثيره. غيرت ظاهره ولا يبعد أن تغير باطنه ذات يوم. ربما أدى الصلوات فى أوقاتها أيضا. ربما ساقته يوما إلى الحج. الممثل يتضخم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقى يموت. متاعب متلاحقة يعانيها من أجل الحب والحياة الزوجية. إنه أدرى الناس بضعفه وانقياده. إنه أدرى الناس بما تطبع به على عهد داود الناطورجى. هل يتاح له يوما أن يقتل الممثل؟!

* * *

وسألته ذات ليلة:

ـ هل يوجد شىء لا تعرفه عنى؟

فأجاب متوجسا:

ـ إنى أعرفك تماما .

ـ وأعتقد عادة أنى أعرفك كذلك ، ولكنك تبدو لى أحيانا كاللغز . .

رأى شبح تحقيق يقترب فقال :

ـ إنى شخص فى غاية البساطة .

ـ أقول أحيانا لنفسى إنه يكره العمل ، إنه ينهمك فى القراءة ، إنه لا يهتم بشىء مما يهتم به الآخرون!

فرمقها بحيرة ، فقالت :

ـ من أنت؟ ما أنت؟ . . فى البلد هموم وتيارات ما موقفك منها؟

فتساءل وهو يفكر بسرعة وحذر :

ـ ألا يعيش الإنسان حياة كاملة بغير ما تسألين عنه؟

ـ إنسان مثلك لابد أن يكون صاحب رأى ولو كان مفاده الكفر بجميع الآراء!

ـ لا حديث لنا مع الأصدقاء إلا ذلك .

ـ ألا تعدنى صديقة أيضًا؟

ـ بلى ، ولكنى أصون حياتنا مما يزعجها .

ـ أكنت دائمًا تعيش فى نطاق ذاتك؟

فضحك عاليا . بوسعه أن يبوح بأسرار صادقة كثيرة دون خطر . قال :

ـ لى تجارب حافلة .

فقالت بلهفة :

ـ هات ما عندك ، حدثتنى مرة عن رد فعل عنيف عقب وفاة أبيك؟

ـ أجل ، رد فعل اجتاح أبى وتراثه . ولعلك تدهشين إذا عرفت أن المرحوم يسرى أحمد هو أول من ساعدنى على التمرد ، كان وقتها

يتمرد على الإيمان فنفخ فىَّ من روحه المتمردة وأشركنى فى قراءة كتبه فتعرضت لأزمة غير يسيرة وتبنيت إلحادا شاملا .

تمتمت بامتعاض :

ـ فقدت إيمانك كله؟

ـ كله . . وخيل إلى أنى أكتشف العالم من جديد .

ـ أدام ذلك طويلاً؟

ـ على فكرة ، لا شىء يدوم معى طويلاً فى عالم الفكر ، ما هو إلا طور يعقبه طور جديد ، وفى أقصر وقت يتصوره العقل .

فقالت بقلق :

ـ وهناك العواقب العملية لذلك!

ـ هو ذلك ، إنى لا أحب الكذب!

ـ وانتهيت إلى إهمال الدنيا!

فتفكر قليلاً ثم قال :

ـ لا أظن ، العكس تمامًا ما حصل ، اندفعت لاكتشاف الدنيا ، وملء الفراغ . عند ذاك تسلمنى عدلى جواد ففتح لى باب الديموقراطية فى وقت كانت تذكر عادة مصحوبة باللعنات ، فعرفت تاريخ مصر المجهول قبل الثورة ، واستفزنى الحماس فطال لسانى حتى استدعانى رجل الأمن بالكلية وأنذرنى .

ـ لذاك الحد؟

ـ أجل لم أكن سلبيّا كما تتصورين ، غير أن المرحلة الديموقراطية لم تطل ولم ترسخ ، فسرعان ما تقدم الصفوف عبد البارى خليل!

ـ أعوذ بالله!

ـ تبوأ مركز الأستاذ منى وراح يعيرنى كتبا عن المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ وصراع الطبقات والجنة الموعودة .

فتمتمت ساخرة:

- على الرغم من أنك وريث دخل يربو على الخمسمائة الجنيه شهريا؟!

- اقتنعت تمامًا، ووجدت فى تجاوز طبقتى ما يشرفنى أكثر.

تزايد الاهتمام فى نظرة عينيها الذابلتين فواصل:

- اجتاحنى الحماس للماركسية كما اجتاحنى من قبل للإلحاد والديموقراطية، وإذن فأنا مريض بالاهتمام لا بعدم الاهتمام.

فقالت بمرارة:

- ولكنك تتغير بسرعة مذهلة!

يا له من حكم صادق! فطن إليه بنقده المرهف للذات. سرعان ما يقع تحت سيطرة الصديق أو الكتاب. إنه ضعف ملموس محسوس طالما حمَّل أباه تبعته. هو الذى طبعه بسرعة الانقياد. هو الذى جعل من ذكائه أداة سلبية فى خدمة التلقى وبلا طاقة على التمحيص والنقد. وقال بامتعاض:

- إنه الشباب والحماس ورد الفعل لخضوع طويل للأب.

فتساءلت بقلق:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد اعتقلت، وتلقيت إهانات لا تمحى ولكن ثبت عدم تورطى فى أى عمل غير مشروع فأفرج عنى بخلاف عبد البارى الذى اعتقل طويلاً كما تذكرين حتى اشتهر أمره فى الحى.

- ثم؟

- زلزلنى الاعتقال والإهانة، أكان ذلك ما كفرنى بالماركسية؟ الذكرى غائمة، أما ما أذكره بوضوح فهو أننى عثرت على كتب

الوجودية بلا مرشد، ولكن الكتاب كان وحده كافيا للإلقاء بى فى عبث الوجود واللا معنى!

فقالت بحزن:

- ما أجدر رحلة تبدأ بالإلحاد أن تنتهى بالعبث.

- صدقت!

- إنك قطعت فى أعوام ما قطعته البشرية الضالة فى عمرها كله!

- صدقت أيضًا.

- ثم؟

حسبه ما نفس به عن صدره وعليه الآن أن يرجع إلى التمثيل، قال:

- رجعت إلى الإيمان والحمد لله.

- أكان وهدان المتجلى وراء ذلك؟

- القراءة أكثر، والعناية الإلهية قبل كل شىء.

فقالت بجدية ملفتة للنظر:

- من حسن الحظ أنك تزوجتنى وأنت مؤمن وإلا لورطتنى فى علاقة غير شرعية!

يا للداهية! إنها تعنى ما تقول. وتتصور العلاقات على ضوء واضح صارم حاد النصل. وأزعجه جدًا أن تكون علاقته بها فى الحقيقة - من وجهة نظرها على الأقل - غير شرعية. وما تمالك أن قال:

- يوجد ملحدون معروفون وهم فى الوقت نفسه أرباب أسر!

فقالت بقوة:

- ما هى إلا زيجات باطلة لا يبقى عليها إلا داء التهاون المنتشر!

فحنى رأسه موافقًا أو متظاهرًا بالموافقة وهو يلحق هذا السر بآثامه الخفية. حقًا إن زواجه تجربة مثيرة اعترضت حياته لتهزها من الأعماق. واستطاع أن يقول بنبرة المنتصر:

ـ ها أنت ذى ترين أننى لست عديم الاهتمام كما تصورت .

ـ ولكن رحلتك تركت فيك آثاراً باقية .

فتساءل بقلق :

ـ حقّــا ؟

ـ مثل تهاونك فى شئون دينك وكراهيتك للعمل !

فضحك ليخفف من توتر أعصابه وقال :

ـ أخطاء محتملة ويمكن علاجها ، ولعلك أنت فى حاجة إلى قدر من التسامح .

فقالت بحرارة :

ـ المسألة إيمان أولا . .

ـ التسامح جميل أيضًا .

ـ أجمل منه أن تطابق بين إيمانك وسلوكك .

فتمادى فى كذبه وخوفه قائلاً :

ـ إنى ماض بعزم فى هذا السبيل .

وتساءل فى باطنه : هل تتمخض سعادته عن وهم زائل ؟ !

١٠

القلق يلازمه . على رغم استهتاره بالقيم كافة ، فالقلق لا يبرحه . مجلسهما الليلى يهبه شعورين متناقضين ، السعادة والقلق . الشتاء يسحب أذياله وعما قليل تفتح النوافذ وتشيع البسمات فى الحديقة . صحتها تبدو الآن أفضل مما كانت أول عهدها بالحبل . وهى تفضل

الراديو على التليفزيون فيجاريها مرحبا بأنه لا يفصل بينهما فصلا كليا. إنه صادق فى حبها ولكن لا يجمعهما إلا الكذب. من حسن الحظ أنها تصدق «الممثل» ولا تدرى شيئًا عن الأصل. وسوف تجىء النهاية عندما تطلع على الشخص الرابض وراء الممثل. ما زالا يتمشيان عند الأصيل وبخاصة بعد أن أصبح المشى ضرورة صحية لها، وهى ترتدى اليوم فساتين مرسلة، وتعد عدتها لاستقبال الوليد. وشوقه إليها يزداد ومخاوفه تزداد أيضًا. شخصه الحقيقى لا يكف عن تعذيبه. إنه يعيش وحده فى عزلة تامة، لا يمارس الحب ولا الزواج ولا حق له فى التعبير عن ذاته. إنه كامن فى أعماقه فى ذل، يغلى بالحنق، ويحلم بالثورة. غارق فى العبث الذى وجد فيه الحل لمتناقضاته الماضية. هو الذى أخرجه من تردده المعذب بين الإيمان والإلحاد، بين الديموقراطية والحكم المطلق، بين الماركسية والرأسمالية. هو الذى أنقذه من الهياكل الخاوية ولكنه أصابه بمرض جديد، مرض الفراغ والرعب. وفتحية لم تفصل بين الممثل والأصل فحسب ولكنها تهدد الاثنين أيضًا. ألا ينقاد لها ذات يوم كما انقاد من قبل ليسرى أحمد وعدلى جواد وعبد البارى خليل؟ وأى عواقب تتربص به إذا تحقق ذلك الانقياد المتوقع؟!

* * *

سألته باهتمام:

ـ أى مراحل حياتك تراها الأفظع؟

بعد تأمل أجاب:

ـ لعله العبث.

ـ لماذا؟

ـ لأنه فراغ، والفراغ مرعب.

ـ أوافقك تمامًا، أى مذهب وضعى فهو انحراف. أما العبث فشلل للعقل، وإذا شل العقل فماذا يبقى من الإنسان العاقل؟!

أجاب بلا وعى:

ـ لا شىء..

ـ أى سخرية أن تتصور الإنسان لقيطا فى الكون، تجىء به المصادفة العمياء ثم يندثر بالمصادفة أو العجز!

إنها تذكره بيأسه وهى لا تدرى ولكنه يوافقها بحماس قائلاً:

ـ أحسنت التصوير.

ـ يسرنى أنك تطالع كتب العلم بشغف، إنها تؤكد المعنى فى كل شــىء!

ـ تمـــامًا!

ـ حتى المتشكك يسلم بوجود معنى وإن عز عليه إدراكه.

ـ أجل، يسلم على الأقل باحتماله.

وتأمل قوله بقلق. وازدادت مخاوفه. وغاب عنها وقتا فلم يدر كيف تطرقت إلى موضوع الصلاة، كانت تقول:

ـ يستحسن أن تصلى وأنت صائم، ولو شهر رمضان فقط!

أليس لديها اهتمامات أخرى؟ ألا تحب أحاديث النساء؟ لم لا يقاوم؟ هل زاده شعوره بالإثم ضعفا على ضعف؟! تمتم:

ـ فكرة مقبولة..

إنها تحكم الحصار حوله. إذا ولى رمضان ستطالبه بالاستمرار فى الصلاة. وستذكره حتمًا بأن الصلاة لا تتفق وشرب الويسكى فى ركن الفردوس. وسيجىء الحج فى يوم من الأيام. سوف يتضخم الممثل ضاغطا بثقله المتصاعد فوق الشخص الحقيقى السجين. جعل يلحظها

فى فترات الصمت فيراها وهى تغمض عينيها إعياء أو تنظر من خلال الزجاج إلى رءوس الأشجار المتوهجة بأنوار المصابيح. حنق عليها. وحنق على داود الناطورجى أيضًا. حنق على ضعفه وجبنه. عز عليه أن يتوارى فى بيته تاركًا الممثل الغريب يعاشر زوجته أمام عينيه ويتلقى حبها ويهبها بكل وقاحة بذرة حياة جديدة. كل ذلك يحدث أمام عينيه وهو متوار صامت مستسلم.

١١

لأول مرة من أكثر من عام تخلو الفيللا من فتحية. انتقلت إلى مستشفى الولادة قبل ميعاد الوضع بأسبوع - لتوعكها المفاجئ - لتكون تحت الملاحظة الدقيقة والرعاية المتاحة. وجد نفسه وحيدًا. لم يعد كما كان، ففى الربيع والصيف تكاملت شخصية الممثل وترامت أبعادها. إنه يجيد الآن تمثيل دور المؤمن والمحامى، بل إنه يسعى إلى تولى القضايا حتى لا يرمى بالخيبة. وشغل التمثيل جل حياته فلم يترك للرجل الحقيقى إلا وقتًا قصيرًا يمضى عادة فى السخرية والمرارة والغضب. على سبيل المزاح قال له عبد البارى خليل:

- وراء كل عظيم امرأة!

فأحنقه ذلك جدًا. إنه يشير إلى تغير أسلوب حياته ولكنه يعلم فى الوقت نفسه أنه تغير ألقى عليه من الخارج قهرًا بلا اقتناع ولا إرادة ولكن تحاميا للعواصف وإيثارا للسلامة وإبقاء على راحته الشخصية. ولم يخف عواطفه فقال لأصحابه:

- إنى غاضب.

فقال له عبد البارى خليل :

ـ إن تكن صادقًا فى عبثك فلتعتبر الأمر كله فكاهة لا بأس بها .

فقال بإصرار :

ـ ولكننى صادق بلا ريب .

ـ ماذا يغضبك إذن؟ الضمير لا يوجد إلا فى رحاب إيمان ما .

فقال بحدة :

ـ رواسب اللاوعى لم تجتث بعد .

ـ الرواسب هى مشكلتك .

فقال وهدان المتجلى :

ـ إنى أضع الأمل فى الممثل لا فى الشخص ، فلعله يندمج فى دوره فينقلب تمثيله صدقا مع الزمن!

عند ذاك قال عدلى جواد :

ـ لا بأس مطلقا من أن تعيش الشخصين حفاظًا على أسرتك وحبك!

كرر جملته مرتين ثم واصل حديثه :

ـ مَن مِن الناس حولنا يحظى بشخصية واحدة؟ نحن فى مسرح كبيرٍ ، الجميع ممثلون ، يقولون كلامًا جذابا فوق الخشبة ، ويتهامسون بكلام آخر وراء الكواليس ، هكذا الجميع من القاعدة حتى العلالى ، فليس فى حياتك شذوذ ، احذر أى تصرف جنونى ، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون . عليك بالسلوك الجديد بعبثى ، ملايين يمثلون بلا فلسفة ولكن بوحى من غريزة البقاء ، ويواصلون الحياة فى ارتياح واستبشار وسرور!

ها هو ذا ينفرد بنفسه ويزِن تلك الأقوال بدقة . إنه الآن متحرر من ظلها . وهى طريحة الفراش بين أيدى الممرضات مشغولة بوعكتها عن

المبادئ، تتأهب لاستقبال الوليد الذى ستنشئه على مثالها. أجل لقد تلقى النصيحة العملية السديدة التى تصون له حياته وسعادته. سيعيش فوق المسرح زوجا وأبا ومؤمنا ومحاميًا، ويبقى وراء الكواليس ضائعًا بلا معنى، قاتلاً، مغتصبا، عزبا، وحيدًا، ينتظر موتا سخيفا فى أعقاب حياة سمجة. وكلما ترامق الشخصان ـ الممثل والأصل ـ فعليه أن يبتسم، وإن شاء فليضحك، بلا هم ولا غم، وليتذكر أنه لا يمارس شذوذًا ما، وأنه يقلد الملايين فى حياتهم اليومية.

١٢

بدا فى وقت ما أن الصراع يمضى نحو مستقر. لاح الأمان أيضًا فى الأفق مع سحائب الخريف. وقال لنفسه إن آثامه ليست شيئًا إذا قيست إلى آثام الآخرين من السادة القتلة وقطاع الطريق المتهادين فوق المسرح بين التهليل والتصفيق.

ولكن فتحية عادت فأشرقت الفيللا بنورها. عادت إلى مقعدها وانتفض الوليد بحياته الجديدة فوق حجرها. لقد سمته سليمان باسم أبيها وسوف ينشأ نشأة جديدة تقيه من وباء الانقسام وتحقق له وحدته. وتبدت سعيدة بوليدها، سعيدة أيضًا بالرجل الذى أعادت خلقه من جديد. الحق أن استقراره تزعزع بحضورها. إنها نقية صادقة. على رغم تزمتها، بل على رغم صرامتها وعنفها. فهى نقية صادقة. إلى جانب نصاعة بياضها لاح لونه أغبر قاتمًا. حقا إنها ينبوع الحب والعذاب. من القلة النادرة التى لم تحترف التمثيل، فرجع مضطرا إلى المقارنة بين ذاتيهما. فى غيبتها ساد العقل والمنطق وسيطرت ذكرى الحب

ولكن في حضورها انكشف الحب عن خدعة وفرية. هذه السيدة الجميلة الصادقة لا يمكن أن تبقى على حب قاتل مغتصب ضائع. ستقضى على العلاقة بعدم الشرعية. لا حب ثمة ولا زواج ولا أبوة في محضرها. المطاردة تعنف، واليأس يستفحل. وعجب لشأنه ولحدة انقلابه. التزعزع لا يغزوه نتيجة لضعفه وحده ولكن بوحى الحب أيضًا. الحب ذو التزام ويجفل من الخداع. هل يدمر الحب باسم الحب؟ وكأنه أزمع الدفاع عن نفسه فقال لها:

- من يقرأ الصحف يقتنع تمامًا بأن الصفوة نفسها تعيش وجهين، وأنها لا تصدق مع ذاتها إلا وهى تمارس الشر في الخفاء!

فقالت على الفور:

- المؤمن وحده من يعيش بوجه واحد.

سرعان ما صمم على ألا يقدم مختاراً على طعن سعادته طعنة الموت. سوف يألف هذه الحياة على رغم قربها، وسوف يتحرر مع الزمن من آلامها. ونسمت من الباب المفتوح نفحة خريف عذبة مختلطة بالأصوات الغامضة الصادرة عن سليمان.

ولكن حدث شيء.

انطلق فجأة وبلا مقدمات من أعماقه المترعة بالقهر والقلق.

انطلق عملاقًا ثملاً حراً مزهوا بحقيقته الراسخة وتأثيره المطلق. كأن صدره انشق عن ثغرة متفجرة بانفعالات طاغية غامضة لتغزو الفضاء كله. استطار خياله في نشوة من السكر الأصيل مستمدا من المجهول قدرة شاملة. رأى بنظرة خاطفة الكون ماثلا في صورة واحدة ملتحمة الأجزاء متعانقة الأبعاد تنبعث من بهائها نغمة ساحرة. في غمرة السكرة الصافية مرق بكل قواه من قفص الزمن وعلا فوق المخاوف والحذر. انغمس حتى قمة رأسه في انتصارات اللحظة الراهنة.

وبصوت غريب متهدج قال لها :

ـ فتحية، أصغى إلى، سأفضى إليك بأسرار مذهلة .

١٣

الخريف مستمر فى نفث أنفاسه ولكن العذاب انتهى. الحزن يغشى الوجود ولكن العذاب انتهى. إنه غارق فى هدوء عميق سبق بإعصار مدمر. تقوض المسرح وتلاشى التمثيل، استرد ذاته، لا حب ثمة ولا زواج ولا سليمان ولا شعائر ولا قضايا. الجدب والوحدة ولكن العذاب انتهى.

من خلال جو جنائزى قاتم أطلت عليه وجوه الأصدقاء. لتوهم رجعوا من زيارة واجبة للحى القديم. مسعى تقليدى ولكن بلا ثمرة.

قال عدلى جواد :

ـ لا يمكن فهم تصرفك.

ـ ما أهمية ذلك؟ لكنه كان حتما من الحتم وعاصفة لا سبيل لمقاومتها.

وقال وهدان :

ـ حزنها لا يوصف.

فقال عبد البارى :

ـ وغضبها كذلك.

وقال وهدان :

ـ لم تغفر لى سكوتى من أول يوم.

رجع عدلى جواد يردد:

ـ لا يمكن فهم تصرفك؟

فقال:

ـ صعقنى بلا مقدمات. لعله نوع من الجنون.

ثم تمتم بعد قليل:

ـ ولكن لا ندم ولا أسف.

فقال وهدان:

ـ قياسًا على ما حدث يمكن أن يجد جديد لا يخطر الآن ببال أحد.

فقال عبد البارى:

ـ قول حسن.

من ناحيته فلا ندم ولا أسف. ولا عذاب أيضًا. ثمة حزن عميق ولكنه يتنفس فى الزمن.

السـلـطـان

من فوق قمة المقطم لاحت قمة القاهرة مثل خلايا النحل، بيوتًا وعمائر متلاصقة متلاحمة، تمرق من بينها المآذن والقباب، يغطيها الأصيل بستار رمادى نعسان.

توقف السلطان نوح عن متابعة السير، التفت نحو تابعه منصور وقال:

ـ اذهب، ثم عد قبيل الفجر.

ولكن منصور لم يبرح. وقف واجمًا حائرًا، فقال السلطان:

ـ اذهب فقد أزف ميعاد العبادة.

وأخرج منصور من عباءته بلطة يلمع الموت فى نصلها. رمى بها تحت قدمى السلطان، وقال بحزن:

ـ كلفت بقتلك يا مولاى!

فرمقه السلطان بذهول فواصل الرجل:

ـ كان المتفق عليه أن أتوارى حتى يجثم الليل ثم أزحف نحوك لأطيح برأسك!

فاصفر وجه السلطان غضبا مثل الشعاع الغارب، وتساءل:

ـ من؟

ـ الملكة!

ـ يا للشيطان! لها شركاء يا منصور؟

ـ القائد كرداش . . والوزير عقبة . .

ـ يا للفظاعة! قصر من الرمال، عاصفة من الظلم تبغى اجتياح رجل كرس حياته للعدل!

ـ إنه الطمع فى أرزاق العباد يا مولاى!

استدار السلطان وهو يتمتم:

ـ لأنكلن بالمجرمين!

فقال منصور بانكسار:

ـ لن تستطيع الرجوع يا مولاى.

ـ ماذا قلت؟!

ـ عيونهم منتشرة، وخناجرهم مشهرة.

ـ ما أحب العباد سلطانا كما يحبوننى.

ـ لذلك دبروا مؤامرتهم ليزعموا بعد ذلك أنك اختفيت، فإذا رجعنا اكتشفوا خيانتى لهم فانقضوا علينا كالشياطين.

ـ أنهزم تاركا رعيتى تحت رحمتهم؟

ـ اهرب . . اختف تمامًا عن الأعين، لقد تظاهرت بخيانتك لأنقذك، دعنى أرجع لأبشرهم بقتلك ودفنك!

فاشتد امتقاع وجه السلطان وراح يقول:

ـ الملكة، الأفعى، الجباه التى تنحنى وهى مثقلة بالنفاق والغدر، الألسنة التى تلهج بالثناء وهى تنقع بالسم، الجسد الذى يذعن للحب وهو يتراقص فوق موجة من الفسق المضمر، كيف جرى ذلك كله من وراء ظهرى؟!

فقال منصور بأسى:

ـ ما أشد حزنى يا مولاى!

ـ دع الحزن فما أملك الآن سواه، وسوف تفجر الطبيعة فى غشاوته شواظا من نار الغضب والانتقام.

ـ اختف يا مولاى، اذهب إلى أقاصى الصعيد أو إلى بر الشام، إليك هذه الصرة من الذهب.

لبث السلطان جامداً وهو يتحول إلى شبح تحت أهداب الليل فقال منصور جزعا:

ـ لا وقت لديك، اهرب قبل أن يسعى إليك القدر.

فتأوه قائلا:

ـ أودع الحياة بلا دفاع، أتطوع للموت، أهيم مطاردا بلا رعية، تاركا ورائى رعية بلا سلطان، مفسحا المكان للمجاعة والأوبئة؟!

أكب منصور على يد مولاه فبللها بدمعه، ثم غاص فى الظلام.

٢

أقام السلطان نوح فى أطراف المدينة فيما يلى المقابر. لم يكن يعرف وجهه إلا المقربون وقلة من الرعية الذين شاهدوه فى مواكب المواسم، فتنكر ما وسعه التنكر واستثمر الذهب فى تجارة الغلال، فكان يتاجر نهارا، ويعتكف ليلا ليتفكر فى الانتقام من أعدائه أو ليواصل عبادته التى شغف بها أيام ملكه.

وتسربت أنباء اختفائه مثل رائحة يتعذر كتمانها. عمل المتآمرون على نشرها فمضت من لسان إلى لسان ومن حى إلى حى. وأنهاها إليه بعض عملائه من التجار. أما سمعت عما يقال من اختفاء السلطان نوح؟

الناس حيارى محزونون يتساءلون. يقال إنه كان يمضى الليل متعبدا فوق جبل المقطم، هل باغته وحش؟ هل اغتاله قاطع طريق؟ هل اعتزل فى كهف مثل الرهبان؟ أما عن أحزان الملكة وحيرة الوزير والقائد فحدث ولا حرج، ليتك ترى الناس وهم يتجمهرون فى الطرقات؟ ما أشد الأسى على المحبوب الغائب!

ثم أعلن النبأ بصفة رسمية فنادى به المنادون. ونصب ولى العهد ـ ابن السادسة ـ سلطانا، وعين الوزير عقبة وصيا، كما عين القائد كرداش وزيرا وقائدا.

تلقى نوح الأنباء كالمطارق فوق رأسه. سمع نعيه على كل لسان. تبخرت شخصيته فى الهواء. عاشر الموت وهى حى. عجز عن دفع زحفه تماما. من مات فى وعى الخلق فقد مات. هذا هو الموت الذى بدا له غامضا فيما مضى. ليست الحياة قلبا يخفق أو دما يجرى ولكنها معنى يتردد فى وعى الناس. وقد مات نوح. ولم يعد التفكير فى الانتقام مجديا. لقد حل آخر محله فوق العرش، واغتصب غريب فراشه، وأدت رعيته ضريبة الحزن والدموع عليه. لم يعد لرجوعه معنى. سيهدم عالما أعيد بناؤه وتكوينه. وها هى ذى الأعوام تمضى مؤكدة موته، مقوضة لدنياه، ومن الخير له أن يبذل ليله كله للعبادة، وأن يسلم للمقادير، وأن يمهد طريقه إلى أعتاب الله ورحابه.

وجاءته أنباء جديدة ذات لون داكن ضارب للصفرة. لم يكن السلطان وحده الذى اختفى ولكن ها هو ذا طعم الحياة يتغير، ووجهها يتجهم، يعسر ما كان يسيرا، ويمر ما كان حلوا، ويضن ما كان مبذولا، ويغلو ما كان رخيصا، والمعاملة تسوء، والشدة تضرب، والجبروت يستفحل، والظلم يغشى. ورجع الناس يتذكرون سلطانهم الفقيد، ويترحمون على عهده، ورجع نوح يشعر بالحياة تدب فى أوصاله ولو فى صورة ذكرى، ولكن فيضا من شائعات مدبرة اجتاح

العباد بغية تشويه سمعته. قيل إنه كان مهملا، وإنه كان يتعبد على طريقة الرهبان، وإنه كان شاذا مدنسا، وإنه جن جنونا كاملا حتى دعا أهل بيته إلى عبادته. وارتاب أناس فى حقيقة ما يذاع، وصدقه آخرون، وحدثت بلبلة ضاعفت من محنة الشدة والبلاء. وجزع نوح واكتأب، لقد رضى بالموت، ولكنه عانى ما هو أفتك من الموت.

٣

وفى السنة الخامسة عشرة من اختفائه زاره صديق يدعى طالب. كان يلهث من الانفعال والبهجة، وسرعان ما ارتمى على أريكة وهو يقول:

ـ قلب المدينة ينبض ببعث جديد.

فسأله نوح بهدوء صار طبعه من طول التعبد:

ـ ماذا حصل لقلب المدينة؟

ـ ألم تعلم؟.. السلطان نوح لم يمت..

فاقتلع هدوءه اضطراب طارئ وتمتم:

ـ نوح لم يمت؟!

ـ إنه حى ويسعى بين الناس..

ـ مستحيل يا طالب.

ـ هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان!

ـ أرأيته بنفسك؟

ـ أجل.

ـ أكنت تعرف صورته من قبل؟

ـ طالما رأيته فى الأعياد . .

ـ ووجدته أنه هو هو؟

ـ بنصه وفصله! وقد تعرف عليه كثيرون . .

ـ يا للعجب!

ـ وسرعان ما التف حوله المظلومون . .

ـ وماذا فعل السلطان الشاب «المتوكل»؟

ـ القتال محتدم بين الفريقين، بين المتوكل ونوح، وما زال رجال نوح يقاتلون فى جماعات متفرقة ولكنهم ينهكون جيش السلطان .

فتمتم نوح فى حيرة :

ـ قتال بين الأب وابنه؟!

ـ الابن يزعم أن الآخر دجال دعى!

ـ ولكن نوح يعرف أن غريمه هو ابنه . .

فقال طالب بحماس :

ـ فى سبيل العدل يهون كل شىء!

٤

زلزلت نفس نوح فسلَّته من عزلة العبادة إلى خضم الدنيا . سمع اسمه يتردد على ألسنة العباد، وسمع الحناجر وهى تهتف به، وتستنجد به على ما تعانى من جور وظلم . خيل إليه برهة أنه بعث، أنه حى، أن قد مات الموت، ولكنه سرعان ما باخ وانهزم، فأدرك أن الحى رجل آخر، لعله دجال أو مجنون أوْ داهية، وأنه جاء ليؤكد موته هو إلى أبد الآبدين .

وقال له طالب :

ـ قم بنا إلى معسكره خارج باب الفتوح لمبايعته . .

تاقت نفسه إلى رؤيته فمضيا معا فى غلس الظلام حتى انضما إلى جموع لا حصر لها ، ووقفا فى طابور طويل ، مقدمته أمام خيمة السلطان وذيله عند مشارف الصحراء . ومثل بين يديه فوجده يماثله فى الطول ولكنه أدق فى البناء ، تضىء عيناه بنور قوى ، وتتسم قسماته بالنبل . تطامن لتقبيل يده ثم قال :

ـ نبايعك من جديد كما بايعناك أول مرة .

فقال السلطان المبعوث :

ـ فليؤيد الله المؤمنين .

ـ ليكن النصر على يديك .

ـ أسبق لك أن مارست القتال؟

ـ كنت جنديا قبل أن أصير تاجرا . .

ـ إذن تنضم إلى قواتنا . .

٥

قال نوح لنفسه : إن الرجل سلطان حقيقى لا شك فى ذلك . وبقدر ما هو سلطان بقدر ما أنا ميت . أعدمت نفسى اتقاء الموت ، واتخذ هو هوية غير هويته متحديا الموت . ولم يعد لى من أمل فى الوجود إلا تحت جناحه . هذه هى لعبة الحياة والموت التى خسرت فيها حياتى . وإنه لرجل مخلص ينطلق بكل قواه وراء العدل المفقود . ينطق وجهه بالنبل

والصراحة والعزم. وإن تصدق فراستى فيه فما أهمية أن يكون السلطان الحقيقى أو لا يكون؟

ونازعته نفسه إلى الرجوع إلى عزلته ولكنه سرعان ما خجل من ضعفه فقرر أن يصير جنديا فى جيش السلطان وأن يجعل من الجهاد عبادته.

٦

وتوثب الجيشان للقتال. وكالعادة المتبعة فى تلك الأزمان تقدم القائد كرداش متحديا السلطان لنزاله. وكلما تطوع لمقاتلته فارس صرعه. وكان السلطان الجديد زعيما أكثر منه مقاتلا، فخرج للقتال السلطان الحقيقى. ولم يعرفه كرداش. تبادلا ضربات عنيفة، وتمكن نوح من خصمه فجندله. ووقف فوق رأسه وهو ينزف، وقال:

- مت أيها الخائن، ألم تعرفنى بعد؟

ورنا إليه كرداش ببصر معتم فعجز وجهه عن التعبير عن ارتياعه فغمغم:

- أنت؟!.. لا.. لا..

وفاضت روحه.

والتحم الجيشان، وكان السلطان الشاب يقود جيشه بمهارة أثارت إعجاب نوح. وتواصل القتال حتى غابت الشمس وراء الأسوار فتراجع كل فريق إلى معسكره.

٧

فى اليوم التالى برز السلطان الصغير من بين الصفوف مطالبا بالنزال . وخرج لنزاله فارس فدارت معركة شديدة تابعها نوح بقلب خافق . وجد نفسه يتمنى السلامة لابنه . وشعر بالإثم لتمنياته . . غشيته كآبة ثقيلة . ولما انتصر الصغير أغمض نوح عينيه كأنما يفر من عذابات هذا العالم .

واستمر السلطان الشاب فى تحديه للأبطال . وتكرر انتصاره حتى قال السلطان الجديد لنوح :

ـ اخرج له فإنك فارس مدرب!

فتردد نوح غارقا فى جيشانه فقال له السلطان بنبرة آمرة :

ـ اخرج والله ناصرك .

فلم يجد نوح مفرا من الخروج .

ولم يعرف السلطان الشاب أباه ، ولم يفطن إلى ما يتصارع فى صدره من الانفعالات المتضاربة ، وقال له بحقد :

ـ أنت قاتل كرداش ، وسوف تدفع ثمن جنايتك . .

والتحم الأب وابنه ، الابن يندفع لقتل أبيه ، والأب يتلقى ضرباته بمهارة ويفسدها بحذق متجنبا فى الوقت نفسه إصابته . ولكن مهارة الابن أوقعته فى مركز حرج فقد صمم ضربة قاتلة عرفت طريقها إلى مقتل أكيد فلم يجد الأب بدا من مبادرته بضربة أطارت سيفه وتركته أعزل .

توقف السلطان الشاب متوقعا الضربة القاضية ، وتردد نوح ، على حين هدرت الأصوات من جيش السلطان الجديد :

ـ طير رقبته . .

ولكن نوح شل تماما فهجم جنود ابنه ليحموا سلطانهم والتحم الجيشان فى قتال مرير حتى غروب الشمس .

٨

واستدعى نوح إلى لقاء السطان فسأله بجفاء :

ـ لِم لَم تقض على عدونا وعدوك؟

فقال نوح معتذرا :

ـ لا أقتل الأعزل يا مولاى!

فقال بغضب :

ـ بل أهدرت حقك ، وأبحت دماء المئات من رجالنا!

لم يشك نوح فى صدق قوله ، وغاص فى الحزن والكآبة . .

٩

وعاد الجيشان إلى الاشتباك فى اليوم الثالث . وعند الظهيرة رجحت كفة السلطان الجديد ، ووقع السلطان الشاب ورجاله فى الأسر . ودخل الجيش المنتصر المدينة دخول الظافرين فاستقبله الخلق بحماس وسعادة .

وأمر السلطان فزج فى السجن بالسلطان الشاب والملكة وكبار رجال الدولة .

واستدعى السلطان الجديد نوح وقال له :

ـ أنت أيضا ستوضع فى السجن حتى يبت القاضى فى أمرك . .

فتساءل نوح ذاهلا :

ـ ألا يشفع لى ما أبليت فى القتال؟

ـ لا تشفع لك إلا براءتك!

١٠

هكذا جمع السجن بين الجميع وهم مكبلون بالسلاسل . وكان أول من عرف نوح تابعه القديم منصور ، الذى أنقذه من الغدر ، والذى صار بعد ذلك حاجبا مكافأة له على جريمته الوهمية . نظر نحو سيده بذهول ثم هتف بفرح :

ـ مولاى . .

فحدق الجميع به حتى عرفوه وسرعان ما ارتعدت فرائصهم . وصاح منصور بسلطانه الشاب :

ـ هذا أبوك يا مولاى ، هذا سلطان مصر الحقيقى . .

وراح نوح يقلب عينيه ما بين الملكة والوصى القديم وابنه ، ثم قال :

ـ أجل إنى أبوك ، غدر بى رجالى وأمك وأنت لا تدرى .

فتمتم السلطان الشاب :

ـ أبى؟!

ـ أجل ، إنى أبوك نوح ، ضحية الخيانة والغدر . .

ـ ولم كبلوك بالسلاسل مثلنا؟

ـ جزاء امتناعى عن قتلك . . !

فقال الابن بتأثر :

ـ طالما حيرني ذلك . .

ـ ولكن لا مفر من الجزاء .

وراح نوح يردد عينيه بين الملكة وسائر الرجال الذين خانوه، ثم قال متهكما :

ـ انعموا بعاقبة الخيانة . .

وأومأ بلحيته إلى شخصه وقال :

ـ ولأنعم بعاقبة الغفلة !


أيـــــــــوب

إنه سجن بلا قضبان. وبلا ذنب أيضا. عليّ من الآن فصاعدا أن أحمل جسمي بعد أن حملني خمسين عاما. حيثيات الحكم تبلورت في مرثية طبيب الأسرة صبرى حسونة إذ يقول:

ـ لا مجال للخداع، سيطول بك الرقاد، الكورتيزون فعال ولكنه لا يخلق المعجزات، المسكنات والمهدئات فعالة أيضا في مقاومة النوبات، ولكن عليك أن تتزود من الصبر، لا تتصور أن حجرة نومك زنزانة، كلا، لديك الراديو والتلفزيون والجرائد والمجلات، معك الهانم وآنسة نبيلة، ووفيق مشهود له بالكفاءة، أصدقاؤك كثيرون ولن يتخلوا عنك، المهم أن تسلم بالقضاء وأن تنحى عنك العناد والحسرة، والله معك..

لست أسير حجرة فحسب. الحقيقة أنني أسير الفراش. حتى الحمام أحمل إليه كطفل. أعاني الألم على فترات ولكنني أتجرع العبودية طيلة الوقت. إني محتج لحد التمرد. أضرب كفا بكف. لا أدرى متى أذعن للقضاء. الصدمة شديدة تدهم النفس بعنفها وقسوتها ولامبالاتها. لماذا؟.. لماذا؟ أين الحياة الثرية الحافلة؟! أين تلال الأموال الطائلة؟ أين المكانة المرموقة؟ في الخزائن والذكريات ولا شيء معي. ويجيء الأطباء من الداخل والخارج. يجمعون على حكم لا استئناف له. يناقشون الأسباب وما تراءت لي إلا ضربة عابثة. ويبقى اليأس والمفاصل

المتـورمة، ويتفـشى اليـأس والأسى. ويل لعـابر العـواصم الكبـرى من أغلال مستحكمة.

* * *

حـول الفـراش الـوثيـر ذى المرآتين المتـقـابلتين تجلس أفكار ونبـيلة ووفيق. فى الأعين نظرة حزينة مواسية. بؤرة تستورد العطف بعد أن كانت تصدره. لا يفارق أحد منهم الحجرة ولكن حتى متى؟ إنه رقاد يبدو ألا نهاية له. والحيـاة هى الحياة لا أكثر ولا أقل. قلت متـجاهلا انفعالاتى الجياشة:

ـ أمر ربنا، فلنواجه الأمر بشجاعة وبساطة.

فقالت أفكار:

ـ رأيى أن نسافر إلى الخارج.

فقلت بشجاعة لا أشعر بها:

ـ لم ينصح أحـد بذلك، جئنا بأكـبـر أخصـائى عـالمى وأخـذ الشىء الفلانى..

ـ لا شك فى أنه توجد فى الخارج استعدادات لا تتوافر هنا.

فقلت باسما:

ـ المسألة أنك تؤمنين بالخارج.

وقالت نبيلة بصوت متهدج:

ـ قلبى معاك يا بابا.

الكلمة اللطيفة ممن نحب مثل الكورتيزون وأنجع. قلت:

ـ أسأل الله أن يكفيكم شر المرض.

وفيق متجهم الوجه ولكنه متمالك لأعصابه. كما ينبغى لرجال الأعمال. والولد سر أبيه. قال:

ـ ستنهض معافى، إنها محنة صبر وتصبر .

فابتسمت له فقال مستطردا :

ـ لك أن تطمئن تماما إلى سير العمل فى المكتب .

ـ طمأنينتى من هذه الناحية كاملة .

ـ وسوف أرجع إليك عند كل خطوة .

ـ لا يهمنى من ذلك إلا أن أراك كثيرا .

فقالت أفكار :

ـ أقترح أن نتناول طعامنا هنا معا . .

فقلت :

ـ الإفطار فحسب أما الطبيخ فله رائحة يعافها الإنسان إذا شبع !

وضحكت بلا سبب لأقنعهم باستعلائى على المفاصل، ثم قلت :

ـ لا يمكن أن تبقوا حولى إلى الأبد، إنى أكره أن أكون عبئا عليكم، فلتسر الحياة سيرتها المألوفة .

إنى أستبق المتوقع والمألوف والطبيعى كما يجدر برجل مجرب فى الخمسين من عمره . لن أطالب الدنيا بما ليس فى دستورها . ثم إننى أحبهم .

٢

هرع الزوار إلى قصرى من كل ناحية . اكتظت مواقف السيارات بشارع المعتصم بجاردن سيتى . المقاولون وتجار الجملة والموزعون وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وبعض المسئولين . كنت محورا

دائرا لكون هائل فأمسيت مركزه الجامد ولو إلى حين. يقبلون الجبين ويجودون بنظرات المودة والرثاء. ثم تتضارب الأقوال:

ـ لم يعد شيء على الطب بمستعص..

ـ أقرب مثل ابن أختى، اعتقدنا أن حال مفاصله مزمنة، وهو يمشى اليوم مثل جواد السباق!

ـ كيف تكون لنا ليال قمرية والقمر غائب!

ـ اعتبرها هدنة سترجع بعدها فارس النضال المرموق.

ـ ولكن لا تنس أنك أهملت نصح طبيبك باستهتار غير محمود.

تمتمت:

ـ العمل والحياة..

ـ والصحة؟.. أليس لها حق أيضا؟

فقلت متأففا:

ـ الحق أنه عقاب لا أستحقه..

ـ لا تعترض على قضاء الله..

فقلت مستدركا:

ـ أحمده على أى حال.

ـ ليكن ذلك من قلبك..

ـ كيف لنا بإدراك حكمته!

ـ عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

تتابعت الشعارات الدينية من قوم لا يحفلون من الدين إلا بقشوره. أنا مثلهم أيضا. طالما نددت بإلحاد أعدائنا وأنا سكران. ما أعجب أن يتبادل أناس الأكاذيب وهم يعلمون أنهم يكذبون. الأدهى من ذلك أن بعضهم لا يفطن إلى كذبه. ولم تخدعنى حرارة مودتهم.

زميلنا إبراهيم جندية المشلول منذ عام منذا يذكره اليوم؟ وقتنا - نحن رجال الأعمال - لا يتسع للوفاء. ولن أطالب الدنيا بما ليس فى دستورها. إننا نقدس الوقت والنظام. وندرك تماما أبعاد حياة العمل ومقتضيات العصر. سوف يطول الرقاد. غالبا حتى النهاية. إنها الوحدة بلا صديق..

٣

من جنون الحركة إلى جنون السكون، هذه هى الرحلة. اليوم بسنة كما تقول الأغنية. الآن أسمع الأغانى لأول مرة. لا استيعاب لها بعد فما زال الشعور مكتظا بالاحتجاج والضجر. لكنه سماع لا يخلو من اكتشاف على أى حال. فى الماضى كنت أعطى الأغنية من انتباهى ما أعطيه الشحاذ وهو يردد شعاراته. على رغم اهتمامى بالغناء فى صدر الشباب. ثمةعادات جديدة مقبلة. وتدخل زكية بجسمها القصير البدين المتحدى لتنظيف الحجرة. أقول لها:

- افتحى النوافذ ليدخل الهواء والشمس.

نحن فى أواخر الربيع - سيقبل الصيف ولكن لا مصيف ولا انتفاع بجهاز التبريد. تقول زكية:

- ليتنى بدلك يا سيدى.

كذبة حلوة وما أكثر الأكاذيب. أشرئب بعنقى ناظرا من النافذة فأرى النيل وشاطئه الآخر. النيل يجري بسمرته الشاحبة والشمس تغطى مساحة منه ببراءتها الفضية.. أراه أيضا لأول مرة. الباص النهرى يتحرك حاملا القادرين على الحركة. أناس يسيرون على الشاطئ والحمام يطير أسرابا. السيارات تتتابع فى حركة متصلة. كل شىء يسير

إلا الشجر. طابور الجازورينا ثابت رغم شموخه ولكن دون مبالاة ولا ملل. لما أقبلت أفكار فى روبها الفضى قلت لها:

ـ انقلى الساعة إلى خارج الحجرة..

رفعت من فوق حاملها الرخامى بصندوقها المذهب وبندولها المتحرك. وضع تلفزيون ناشيونال مكانها، كما جيء براديو فوق التابل دى نوى. حملت إلى الجرائد والمجلات، عربية وإنجليزية وفرنسية. إنى أقرأ أيضا لأول مرة. كنت قبل ذلك متصفحا للعناوين لا تجذبنى إلا أنباء السوق والأسعار والأوراق المالية. بالمقارنة النسبية فإنى أسمع وأرى وأقرأ والبقية تأتى. وأحاول أن أتذكر أحيانا. رؤى قديمة لم يبق منها إلا ذكريات شاحبة. لعل أفكار نسيتها تماما. متى أقترن حقا بالحياة الجديدة؟!

العادة تحتوى «المصيبة» فتمتص حرارتها. أجل أبت الأسرة أن تصطاف هذا العام وأصمت آذانها عن سماع إلحاحى. عدا ذلك قد شغل وفيق بالمكتب ولكنه يلقانى يوميا أكثر من مرة. أفكارونبيلة يترددان على النادى من آن لآن ويستقبلان الصديقات ولكنهما يمضيان جانبى وقتا لا يستهان به. زيارات الأصدقاء تقل يوما عن يوم. التليفون يحل محل الزيارة كثيرا. اختفى أناس تماما كأنما لم ألقهم إلا فى إحدى محطات السفر. وحدى أكثر ساعات النهار والليل. أسمع، أشاهد، أقرأ، أتصبر. متى تشملنى العادة بسحرها العطوف؟! متى يخلصنى أنس التلفزيون والراديو والفكر من الوحشة؟ متى يعوضنى عن السوق والرحلات والسهرات؟ متى أنسى عالم السحرة الحائزين لخاتم سليمان؟ متى أنسى إلهام المال المفعم بالسيادة؟ ألا يكفى أن يحظى وفيق بالحيوية والانتشار؟ ألا يكفى أن تضىء أفكار ونبيلة غشاء المجتمع الحريرى ويقتنيان كل ثمين وجميل؟

عجيبة الحياة، مخيفة الحياة، محيرة الحياة..

٤

مضت الحياة الجديدة تفرض على ذاتها كواقع يجب التسليم به. لم يفارقنى الشعور بالعبودية ولكن استجابت نفسى للرؤية والسماع والقراءة، بل اكتسبت عادات التفكير والتأمل والحلم وإن ناوشتها كثيرا أحلام اليقظة. ألفت الرچيم والدواء وداويت نوبات الألم بالمسكنات والمهدئات. بات وفيق همزة الوصل بينى وبين العمل. فما زال يصدر عنى الاعتماد والتوجيه. واشتد حرصى على متابعة العمل بوصفه باب الأمل الأخير.

وجاءنى مرة بحساب البنك عن أموالى السائلة البالغة خمسة ملايين من الجنيهات فخطر لى أن أسأله:

ـ متى يشبع الناس من اكتناز المال؟

فأجاب وهو يرفع حاجبيه الكثيفين:

ـ لا حد للنجاح، وما قيمة الحياة بلا عمل؟

هكذا ربيته منذ الصغر. تخرج فى كلية التجارة مثلى. نجحت فى تنشئته كابن رجل يعبد العمل لا كابن مليونير. وهو يسهر فى كل ليلة فى الهرم ولكنه لا ينفق كالمجانين. يملك سيارة مرسيدس طراز ١٩٧٨، ويتكلف فى الليلة عشرين جنيها ولكنه يغضب لإنفاق مليم فى غير موضعه الضرورى. إنه صديق ولا يخفى عنى شيئا. وطالما سهرنا وشربنا معا. وقد داخلنى قلق لدى أول عهده بالسهر فإنى أكره التبذير وحسبنا ما تبدده أفكار ونبيلة ذات اليمين وذات اليسار. يومها قلت له:

ـ تمتع بحياتك ولكنى أكره أن يبدد السفه ما يجمعه العرق والمغامرة.

فقال لى بوضوح مريح :

ـ أوافق على رأيك تماما .

وسرعان ما تبين لى «عقله» . ترامى إلى أن أصدقاءه يطلقون عليه على سبيل الدعابة «النتن» . لم يسرنى ذلك بطبيعة الحال ولكن كان أحب إلى من أن يعرف بالمسرف أو المجنون . وحذرته مرة قائلا :

ـ النساء! . . النساء!! . .

فقال لى مطمئنا :

ـ إنى أتجنب العلاقات الدائمة ، أما العابرة فلا ترهق عادة .

ـ وإذا دهمك الحب؟

فقال بسخرية :

ـ إنى لا أعترف بالحب .

لم آخذ قوله مأخذ الجد على الرغم من أنى لم أعرف له حبا واحدا . تزوجت أنا عن حب . أجل لم تؤدِّ المرأة دورا فى حياتى ولكنى عرفت الحب . هذا الفتى جررته معى إلى ساحة العمل منذ سن المراهقة . نشأ عاشقا للعمل والمال . وأغرانى قوله بأن سألته :

ـ متى تفكر فى الزواج؟

فأجاب ببساطة وحسم :

ـ لن أتزوج .

فسألته مستنكرا :

ـ ألا ترغب فى الذرية؟

فأجاب ببساطة :

ـ كــلا .

ـ إنه لأمر غريب يا وفيق .

ـ لم؟ ماذا ينقصنى؟ اللذة فى العمل، وأختم يومى بشىء من الشراب والرقص واللهو . .

لا اهتمام له بشىء بعد ذلك . لا السياسة ولا الدين ولا . . ولا . إنى على الأقل ذو إلمام بشكليات الدين، أما هو فقد نسى كل شىء . لعل أفكار هى الوحيدة بيننا التى ما زالت تملك نظاما من العقائد الموشاة بالخرافات . أخيرا سألته :

ـ أأنت راض عن نفسك؟

فأجاب بارتياح :

ـ نعم، العمل تاج الحياة .

٥

جاءتنى أفكار ساحبة نبيلة من يدها، جلستا وهى تقول :

ـ أشكو إليك ابنتك!

تساءلت باسما :

ـ جنحة أم جريمة؟

رددت عينى بينهما، صورتان متماثلتان لكن الأم أجمل . جمالها متوسط فهى سمراء صغيرة القسمات معتدلة القامة ملفوفة الجسم . نبيلة تماثلها لولا الذقن العريض الذى استعارته منى . قالت أفكار :

ـ إنى أعتبرها جريمة .

ـ ما هى؟

ـ للمرة الثالثة ترفض عريسا دون حجة مقنعة .

فقالت نبيلة :

ـ هذا شأنى وحدى .

فقلت برقة :

ـ أوافقك تماما ، ولكن من العريس؟

فأجابت أفكار :

ـ شاب ، مهندس ، أبوه مستشار .

ـ من النادى؟

ـ نعم .

ـ مواصفات مقبولة ولكننا لم نسمع رأى المتهمة؟

فقالت نبيلة :

ـ لا يعجبنى وكفى .

فتساءلت أفكار :

ـ ترى من يحوز إعجابك؟

فقلت بهدوء :

ـ سنعرفه فى حينه .

ـ إنها لم تعد صغيرة .

فقلت :

ـ بنت عشرين صغيرة فى هذا الزمن ، وهل يخشى على ابنة مليونير من البوار؟!

أفكار على رغم تطبعها بالحياة العصرية ما زالت أسيرة الرواسب الماضية . تزوجتها وهى فى المرحلة الثانوية فعشنا ما لا يقل عن عشرة أعوام حياة كاتب حسابات بالأشغال بين الثامنة والسابعة . ست بيت ممتازة كانت . مخلصة مدبرة ممن خلقن ليسندن الرجال . المرأة الجديدة من صنع يدىَّ . العصرية المولعة بالأضواء والاقتناء والقمار . أردت أن

أجعل منها امرأة ثانية فأفلتت من يدى وخلقت من نفسها امرأة ثالثة. ثم تولت بنفسها صنع نبيلة. القصر يضيق بمشترياتهما على سعته. يعيشان فى النادى وقد ترجع نبيلة بسيارتها بعد منتصف الليل. إنى واثق فيها ثم إن يد الزمان تغمض عينى. تبدى جنون نبيلة فى مساعدتها لصديقاتها الفقيرات على عهد دراستها الجامعية التى لم تتمها. لم أرفض الفكرة ولكن حرصى الطبيعى راقبها بقلق. يوما قالت لى:

- بابا، صديقة فى حاجة ماسة إلى خمسمائة جنيه.

فزعت وقلت:

- الناس تحتاج إلى جنيه أو اثنين لا إلى خمسمائة، إنك بسذاجتك تجعلين من نفسك هدفا للجشع، يوجد فارق بين الشعور الإنسانى وبين الكفر بقيمة المال.

فقالت بإصرار:

- أسرتها فى حاجة ملحة إذ إنها مضطرة إلى إخلاء شقة فى عمارة قديمة آيلة للسقوط، وقد وعدتها بالمساعدة.

هكذا دفعت بالمشكلة فى منطقة الكرامة فغلى دمى وقلت:

- لا تعدى بشىء ليس فى يدك الوفاء به، أو ارجعى إلى أولا، وتذكرى أن أباك رجل لا دولة.

أفكار أيضًا ضعيفة من هذه الناحية غير أن مساعداتها تختص غالبًا بأهلها الفقراء. ولم يسؤنى ذلك لما فيه من حفظ كرامتنا فى النهاية، ولم تخل حياتى أنا من مساعدات من هذا النوع أيضًا. ولكن لزوجتى نزوات مظهرية سخيفة كما أنها تؤمن بالنذر وتتبرع لصندوق السيد البدوى أحيانًا بحماقة.

* * *

فى حياتى الجديدة أتيح لى - على رغم همى الثقيل الرابض - أن أسمع

وأن أرى وأن أقرأ وأن أكشف مسرات جديدة. أتيح لى أيضًا أن أفكر وأن أتذكر. لكنى وجدتنى أبعد ما يكون عن الرؤية الواضحة. بل وقعت فى حيرة معتمة كئيبة مما جعلنى أتلهف أكثر على الشفاء البعيد، أو المستحيل. وقلت لنفسى:

ـ ليس أفظع من أن يخلى بين الإنسان ونفسه.

٦

رباه.. من هذا الزائر الجديد؟

نظرت نحوه بذهول وهو يقترب فى خطاه الوئيدة، تسبقه نظرة مفعمة بالمودة والأسى. تغير كثيرًا ولكنى عرفته من أول نظرة على الرغم من أنه تعمد أن يحجب عنى اسمه. كهل يماثلنى فى العمر، خف وزنه ولكنه بادى الصحة، جدّ عليه الصلع والنظارة الطبية. هتفت:

ـ غير معقول!.. دكتور جلال أبو السعود!

فتحت ذراعى وأنا أقول:

ـ كيف ظهرت من جديد على سطح الأرض؟.. بالحضن والقبل.

تعانقنا وتبادلنا القبل. كان اليوم جمعة والوقت أصيلا والزمن أواخر الصيف. قدمت إليه زوجتى وابنتى وابنى ثم قلت لهم:

ـ دكتور جلال أبو السعود، رفيق المولد والدراسة، كنا زميلين فى الأولية والإعدادية والثانوية، دخل الطب ودخلت التجارة، كنا نذاكر معا على رغم اختلاف دراستنا، جمعتنا صداقة وأفكار.

أخذت شهيقا لأهدئ انفعالى وهم يتصافحون ثم يجلسون، وواصلت حديثى:

ـ عقب تخرجه انتقل إلى الأقاليم، تراسلنا عامًا أو عامين.

فقاطعنى:

ـ خمسة أعوام..

فتمتمت فى حياء:

ـ ثم شغل كلانا بحياته.

فقال باسما:

ـ من حسن الحظ أن الإنسان يحظى بقلب وذاكرة.

ـ صدقت، ولكن كيف أسعدتنى بهذه الزيارة؟

ـ نقلت منذ قليل مديراً لمستشفى الحميات بالعباسية، ثم علمت بمرضك أول أمس من الدكتور صبرى حسونة، فجئت أزورك وأصل ما انقطع.

ـ أهلا. أهلا.. لا تتصور كم أنى سعيد.

ـ وددت أن ألقاك فى صحة جيدة مثلى.

فقلت ضاحكًا:

ـ أدامها الله عليك، أما عنى فإنى فى سجن كما ترى وكأنما رددت إلى الحال النباتية.

فقال جادا:

ـ قد يطول ولكنه لم يعد مؤبدا، الطب يصارعه ويصرعه.

فقلت ضاحكا:

ـ رجعت قهراً إلى عصر الثقافة.

ـ رب ضارة نافعة.

وقالت أفكار:

ـ لتكن هدنة من إرهاق مستمر.

فقال جلال :

ـ أحيانا يمر الإنسان بتجربة مرة ولكنه يذكرها فيما بعد بالخير .

فقلت باسما :

ـ كلام جميل ، ما علينا ، كم أنجبت من الأبناء؟

ـ ثلاث بنات ، كبراهن متزوجة ولم تتم تعليمها ، والأخريان بكلية الطب .

وأعلنت زوجتى عن رغبتها فى التعرف على أسرته فالتحما فى حديث جانبى سرعان ما غاب عنى فى انفعال طارئ . فجأة توقف كل شىء عن الحركة فيخيل إلى أننى أسمع دبيب الزمن وهو يجد فى سيره . أجل الزمن يسير وهذا صوته . بل المؤكد أنه لم يتوقف لحظة عن السير فأين كان يختبئ؟ متى وكيف بلغت الخمسين؟ ومتى وكيف اقتلع شعر رأس جلال؟ كنا أطفالا وغلمانا وشبانا بلا شك وهذا جلال شاهد على ذلك . يا لها من انتباهة مرهقة حقا . وإذا به يسألنى وقد لاحظنى فيما بدا :

ـ أين أنت؟

فقلت ضاحكا :

ـ معك .

ـ حذار من الأفكار المثبطة .

ـ ثق بأننى فى دور النقاهة منها .

ـ يسعدنى أن أسمع ذلك .

وتبادلنا نظرة طويلة ، ثم خطر لى خاطرة وجدت فيها مهربا من انتباهتى المزعجة فقلت :

ـ أطباء كثيرون يرفضون الترقية من أجل العيادة .

فقال بهدوء :

ـ كنت دائمًا طبيبًا طول الوقت .

فسألته بدهشة :

ـ تعنى أنك لم تفتح عيادة؟

فحنى رأسه بالإيجاب فقلت :

ـ أعجب ما سمعت .

ـ كيف تعجب وأنت تعرفنى حق المعرفة؟

ـ كنت مثلك أيضا ولكنها الحياة .

فابتسم صامتا فقلت مخاطبا أسرتى المستمعة :

ـ دكتور جلال من عشاق الثقافة منذ نشأته، آمنا معا فى ماضينا بأنه أيا كان عمل الإنسان فالثقافة يجب أن تستمر كمعين دائم لإنسانيته الحقة . . وقد طبق ذلك عمليا .

عند ذاك سأله وفيق :

ـ هل العيادة تتعارض مع الثقافة؟

ـ أعرف أطباء لا يجدون وقتا لتصفح الصحف .

ـ ولكنهم يؤدون خدمة إنسانية لا تقدر بثمن .

ـ إنى أؤديها فى المستشفيات على خير وجه .

ـ ولكنك لن تكون ثروة مثل زملائك؟

ـ المعيشة معتدلة ولكن لا ينقصها شىء مهم . . ثم إن لى ثروة من نوع آخر .

فقلت له :

ـ إنى أفهمك ولكن تضحيتك جسيمة .

فقال بهدوء :

ـ كانت لحظة الحسم عسيرة، ولكنى اخترت ولم أندم.

فسأله وفيق بارتياب:

ـ ألم تندم حقا؟

ـ لماذا أندم؟! إنى أقوم بواجبى الإنسانى، لا ينقصنى شىء، حياتى ثرية جداً، إن يكن ثمة من يرثون لى فإنى أرثى لهم أكثر، ولكن معذرة أنا لم أجئ لأتحدث عن نفسى.

ولكن وفيق قال بإصرار أدركت بواعثه:

ـ ألا توافقنى على أن العمل هو هدف الإنسان الأعلى؟

فابتسم. صمت مليا. ثم قال مخاطبا ابنى:

ـ إنك تستدرجنى إلى حديث طويل لا يتفق مع أغراض الزيارة فدعنى إلى مناجاة والدك بعد غياب ربع قرن.

فقال وفيق:

ـ أبى يهمه ولا شك أن يعرف رأيك.

فحركت رأسى موافقا وأنا ألاطم أمواج الانتباهة المزعجة. عند ذاك قال الدكتور جلال:

ـ العمل ضرورة ولكنه ليس الهدف.

ـ إذن فما الهدف؟

ـ لعله التحرر من ضرورة العمل.

وحل صمت ولكن بدا من تألق عينيه أنه يمنحنا فرصة لاستيعاب قوله قبل أن يستمر فيه، وقال:

ـ مثلا، مهنة الطب ضرورة ما بقى المرض، فإذا قهرنا الأمراض امحت ضرورة الطب.. هدف الإنسان الفراغ الثرى!

فقلت ضاحكًا:

ـ إذن فقد حقق لى المرض الهدف المنشود!

فقال جادا:

ـ لقد أوصلك إلى الطريق الذى يجب أن تلتزمه فى حالتى المرض والشفاء.

ثم التفت إلى وفيق قائلاً:

ـ دعنى أشرح لك رأيى، بماذا يتميز الإنسان عن الحيوان؟ بالعقل والروح، فعمله الإنسانى الجدير به حقا يجب أن يكون عقليا أو روحيا، ولكن حضارته بدأت بالسعى نحو الطعام، بدأت بالصيد مثل الحيوان، تاريخ الحضارة هو تاريخ العمل. ولكنه أيضًا تاريخ التحرر من العمل درجة بعد درجة، حرر يديه باختراع الآلة ومضى فى ذلك السبيل الطويل حتى بلغ مرحلة المصنع الأوتوماتيكى الذى يَعدُه بأقل عمل وأكبر فراغ، فلا تتصور أبدًا أن الزراعة أو الصناعة أوَ تكديس المال يمكن أن تكون أهدافا فى ذاتها، إنها مراحل من الضرورة يمارسها الإنسان ليبلغ حريته ويمارس إنسانيته.

إنى على أى حال أكثر استعدادًا لتلقى هذه الأفكار من أسرتى التى تجلى الذهول فى أعينها. وتجسد الانفعال فى وجه وفيق فقال:

ـ يا له من خيال! أحدثك يا دكتور عن حياتنا الواقعة فتحدثنى عن حياة لن تتحقق أبدًا، إنى أتحدث باسم أربعة آلاف ملايين من البشر ربعهم مهدد بالمجاعة!

فقال جلال بهدوء:

ـ لا يغيب عنى ذلك، إنى أعرف أن العمل ضرورة حيوية، ولكنى أريد أن أنبهك إلى أنه ليس الهدف، هذه الحقيقة تغيب عن كثيرين، بل تغيب عن الرسالات التى خلقت من أجل تحقيقها كالليبرالية والاشتراكية، ولكن هدف آلاف الملايين يجب أن يكون واحدا.

أردت أن أخفف من توتر الجو، وألطف من انفعال وفيق قبل أن ينسى نفسه، فضحكت عاليًا وقلت:

ـ توهمت أنى مريض وإذا بى سوبرمان العصر.

فقال جلال:

ـ أرجو ذلك..

فسألته:

ـ ألممت بنشاطى على رغم البعد؟

ـ بفضل الصحف، شذرات من الأنباء عن رحلات ومعارك مع اليساريين، وتخيلت الباقى.

ـ دعنى أقرأ لك أفكارك، قلت لقد غرق فى جمع المال وعبادته، نسى ولا شك أيامنا الماضية، وانحدر إلى الأمية وهو لا يدرى!

فضحك وقد تورد وجهه حياء ثم قال مجاملا فى الغالب:

ـ أثرت إعجابى ولكنه إعجاب لم يخل من أسف.

فتساءل وفيق:

ـ ألا يستحق الإعجاب الخالص من يصبح مليونيرا فى أقل من خمس سنوات؟

هز رأسه هزة غامضة فقلت من فورى:

ـ لست غبيا كما تعلم، دعنى أقرأ أفكارك مرة أخرى على ضوء فلسفتك. قلت عنى لذاتك إننى ضيعت حياتى فى سبيل استيراد سلع كمالية عاقبتها الحتمية تخريب الاقتصاد الوطنى وخدمة الطبقة الجديدة وتعذيب عامة الشعب، ولا يمثل هذا الاستيراد إلا مزيدا من الاستعباد بخلاف العمل الإنتاجى الذى يمثل الضرورة والتحرير معا، أليس كذلك يا جلال؟

فضحك وجهه بلا صوت وركبه حرج الموافقة الصامت. عند ذاك هتف وفيق متناسيا أصول المجاملة:

ـ هذا ما يردده المخربون!

فقلت ملطفا من وقع كلامه:

ـ ليسوا وحدهم، صبرا، لكن اللوم لا يقع علينا بقدر ما يقع على من أذنوا بذلك.

فقال جلال وكأنما يستثقل نفسه:

ـ دعنا من التفصيلات، اعتبر إذا شئت رأيى حلما خياليا، من الناس من يأنس إلى الأحلام ليتزود بقوة يواجه بها قسوة الواقع، إنما أردت أن أهون لك من شأن الحياة التى انقطعت عنها وأزين لك الحياة التى حبست فيها، فهى ليست شرا خالصا كما قد تتوهم، ما هى إلا مرحلة عابرة إن شاء الله، ويمكن أن تجد فيها من المسرات الشىء الكثير.

فشكرت له مودته، ثم خضنا معا ـ باتفاق شعورى خفى لنتفادى من حدة وفيق ـ ذكريات مشتركة قديمة، فشرقنا وغربنا فى متعة صافية ساعة نادرة من الزمان.

٧

خلفت الزيارة وراءها رجة. قالت أفكار:

ـ لم أفهم كلمة واحدة مما قال هذا الرجل.

على هذا بدت منفعلة كالآخرين. وتظاهرت بالمرح وهى تتساءل:

ـ أهذا شأن أصدقائك القدامى جميعا؟!

فقالت نبيلة :

ـ إنه شخص جديد ومثير .

فسألها وفيق بحدة :

ـ ماذا تعنين؟

فقالت ساخرة :

ـ ليس جريمة أن يقول إن الحياة ليست المال فحسب!

فقال لها وفيق :

ـ دليني على فعل واحد فى حياتك لا تعتمدين فيه على المال، كلامك يدل على أنك تعبدين المال ولكنك تتنكرين لقيمته .

فقالت بعناد :

ـ إنى معجبة به!

وتدخلت فى الحديث قائلاً :

ـ دعها وشأنها، ساءتنى حدتك يا وفيق .

فقطب قائلاً :

ـ إنه شيوعى حاقد .

ـ إنى أعرف صديقى خيرا منك .

ـ من أين لك أن تعرفه بعد انقطاع ربع قرن؟

ـ لقد أراد أن يعزينى عن السجن .

ـ لم تكن فى حاجة إلى تعزيته .

ـ شعر ولا شك بضيقى وكربتى .

ـ إنى أفهمه تمامًا يا بابا ولا تخدعنى فلسفته، لقد جرب أن يثرى من المهنة ففشل، وما أكثر العفة المتولدة عن العجز!

فهتفت أفكار :

ـ صدقت، سأبخر القصر غرفة غرفة، لا يحتمل أحد أن يصير قرينه في الفقر مليونيرا من غير أن يحرقه الحسد.

فضحكت قائلاً:

ـ الأفضل أن تعقلي فلسفته وتقلعي عن التبذير.

فقالت لي:

ـ أتريد أن تدعم حرصك بفلسفته؟.. هيهات أن يجوز ذلك علينا.

ولما خلت الحجرة استبد بي الانفعال دون شريك. استعدت أقواله وأدمت التفكير فيها حتى قلت:

ـ لن أذوق النوم حتى أتناول المهدئ.

عاودتني الانتباهة فرجعت أنصت إلى صوت الزمن الجاري. رجعت أتساءل أين كان يختبئ. متى أنسى الكدر لأكتشف المتعة المتاحة؟.. متى أسمع الأغنية فلا أسهو عن شيء من إيقاعاتها؟

٨

خفت ألا يجيء جلال أبو السعود مساء الجمعة التالية فتلفنت إليه. وقلت لأسرتي منبها:

ـ سأستدرجه إلى الحديث إياه فمن كره منكم ذلك فلا يحضر.

وجاء في الميعاد فاستقبل بحرارة صادقة وكاذبة. ورحنا نتناول الشاي والحلوى. وفي أثناء ذلك نقل عينيه بين أفراد أسرتي وتساءل:

ـ ماذا قلتم عني بعد ذهابي في الجمعة الماضية؟

فقالت أفكار:

ـ كل خير يا دكتور .

فشكرها مبتسما . إنه ذكى وحساس ولذلك قلت له :

ـ إنى أسعد بحديثك وهو يهمنى جداً ، وهم متفقون معى !

فقال ببساطة صادقة :

ـ المهم أن تنعم بمزايا حياتك المتاحة .

ـ لدى الكثير كما تعلم ولكن يحز فى نفسى الشعور بالسجن وانصراف الزملاء عن زيارتى .

فقال وفيق بحدة :

ـ إنهم أوغاد .

فقلت بعجلة :

ـ كلا يا بنى ، إنهم رجال أعمال .

ثم مخاطبا جلال :

ـ أنت نفسك لو كنت صاحب عيادة لما وسعك أن تزورنى مرتين متتاليتين .

فقال جلال :

ـ يسرنى أن تعالج أمورك بروح واقعية !

ـ كل شىء طيب لولا إحساسى الأليم بفقد الحرية .

خيل إلى أنه هم بالكلام ثم عدل عنه ، فقلت له :

ـ لا تكبت الكلام فقد دعوتك لتتحدث ولأسمع .

فتساءل وهو ينظر نحو أسرتى :

ـ ونكدر صفو أعزة ؟!

فقالت أفكار :

ـ تكلم يا دكتور ، نريد أن نسمع مثله وأكثر .

فابتسم وقال :

ـ الأمر لله يا عبد الحميد، ماذا قلت عن الحرية؟

ـ تكلمت عن إحساسى الأليم بفقدها .

ـ لكنك لم تفقد حريتك بسبب المرض!

ـ . . . ؟

فقال بهدوء :

ـ لكى تفقد شيئًا يجب أن تملكه أولا وأنت لم تملك حريتك قط!

فضحكت قائلا :

ـ حذار من المبالغة فإنك لا تعرف ما يعنيه أن يكون الإنسان مليونيرا .

ـ حقا؟!

ـ كان بوسعى أن أفعل ما أشاء، أن أتغدى فى روما وأتعشى فى باريس إذا أردت .

ـ أين الإرادة الحرة فى ذلك؟ . . وراء كل فعل منها نزوة متحكمة!

تخيلت فتور أفكار وحماس نبيلة السطحى واستفزاز وفيق، فلم أنظر ناحيتهم . قلت أستدرجه :

ـ بهذا المنطق نهدم فكرة الحرية من جذورها .

فقال بثقة :

ـ الحرية وهم يتراءى لخيال الإنسان العادى، وهو إنسان ميكانيكى فى أغلب الأحوال .

ـ قد يصدق كلامك على غمار الناس ولكن يوجد أناس يمثلون القوة الفعالة المؤثرة فى المجتمع .

فابتسم قائلا :

ـ اسمح لى أن أذكرك بالأشياء التى تقيد حرية الإنسان،

لا لأنها مجهولة لمثلك ولكن لأننا نتناساها عادة فى زحمة الحياة والغرور.

تنحنح ثم واصل:

- إنها تبدأ عملها فى بطن الأم، بلا استئذان أو مشاورة، فتقرر لنا طولا ولونا وملامح، وأجهزة تنفس وهضم وأعصاب ذوات خواص محددة، وغرائز، وبعض الأمراض أحيانا، يتم ذلك كله قبل أن نرى نور الدنيا.

تذكرت تلك الحقائق وكأنها اكتشاف جديد. أما وفيق فقال باستهانة:

- نحن نسلم بذلك ولكن لا أهمية له!

فقال جلال:

- عندما يخرج الوليد إلى الدنيا تتسلمه أسرته، ثم تتكاتف على صبه فى قالب جاهز من القيم والأذواق والتقاليد والعقائد وهو يتشكل بلا قدرة على الإدراك أو النقد أو الاختيار، أنت نفسك يا وفيق بك هل كان لك رأى فى الصورة التى صورت بها؟

فتساءل بعناد:

- أى خطإ فى ذلك؟

وقلت أنا:

- الوليد يتحول بذلك من حيوان إلى كائن حضارى!

- نحن نناقش فكرة الحرية، تذكروا ذلك من فضلكم.

- تفضل..

- ثم تتلقاه المدرسة لتحكم حوله قالبا جديداً يهبه فى النهاية عملا ورؤية للدنيا والأشياء، وينضم إلى المدرسة فى عملها المجتمع كله

ممثلا فى أحزابه وجمعياته ونماذجه البارزة، الجميع طامعون فى حريته ولو فعلوا ذلك باسم الحرية نفسها.

فقال وفيق بإصرار:

ـ ولكن سرعان ما يجيء حين فيعرف الشاب الاختيار والرفض بل والتمرد والثورة.

ـ لست أنكر ذلك، ولكنى أقصر حديثى الآن على القوى المتربصة بحريتنا.. ثم يجيء دور قوى جديدة خارج المجتمع، منها البيئة، وأثرها معروف فى النشاط والكسل، فى القوة والضعف، فى الإيجابية والسلبية.

وتريث لحظات وهو يبتسم ثم استطرد:

ـ هناك الأرض نفسها، الكرة الأرضية، فهى بجاذبيتها وحركتها تحدد له وزنا وأسلوبا فى الحركة وحدودا لا يمكن تجاوزها، هناك أيضًا الشمس وأشعتها وانفجاراتها الموسمية، بل هناك النظام الشمسى كله فيما نعرف من آثاره وما نجهل، ولك أن توسع تصورك حتى يشمل الكون كله ما ظهر منه وما غاب، الكون كله يؤثر فى حريتنا ويكون لذلك نتائجه فى سلوكنا وتصوراتنا. أما الإنسان الغافل فقد يعتقد أنه حر حرية مطلقة، أو أنه لا يؤثر فيه إلا عقدة أوديب، أو عوامل اقتصادية. ثم تجيء بعد ذلك قوى غريبة خارجة عن التصنيف المنطقى، تبدو عارضة لا معقولة، نسميها مصادفات أو ما شئت من أسماء، ولكنها مع ذلك قد تقلب الحساب رأسا على عقب فى لحظة خاطفة، وهى لا حصر لها، مقابلة غير متوقعة، ضياع رسالة فى البريد، حادث قطار أو سيارة، وسقوط جسم فجأة إلخ إلخ، فهل تستطيع أن تتجاهل القوى المؤثرة فى حرية الإنسان وبالتالى فى مصيره؟!

صمتنا صمتا ثقيلا. ثم ندت عن نبيلة ضحكة رقيقة. ضحك وفيق أيضًا ضحكة باردة. تجلى حياء ناعس فى وجه أفكار. قلت باهتمام حقيقى:

ـ إذن فأنت ترى يا دكتور أن الإنسان حجر أو حيوان على أحسن الفروض؟

فبادرنى جادا:

ـ أبدا، إنى أبعد ما يكون عن ذلك.

ـ ولكن منطقك يسوقنا إلى ذلك؟

ـ إنى أحصى القوى المؤثرة لكى نعد لها ما يتطلبه الدفاع من صبر ومثابرة وعلم.

ـ كأن الحضارة أنشأها الكون لا الإنسان.

ـ بل أنشأها الإنسان بفضل ظمئه الخالد للحرية، كما قلت. إنه لم يتحرك بإغراء اللقمة ولكن ليتحرر من الجوع، الحضارة معركة مستمرة بين الحرية والقوى المؤثرة، الآلة تحرير من عبودية السخرة، الدواء تحرير من المرض، العلم تحرير من الجهل، الطيارة تحرير من الجاذبية، السرعة تحرير من الزمن. كذلك المذاهب، فالدين تحرير للروح، الإقطاع كان تحريرا من الفوضى، الليبرالية كانت تحريرا من الإقطاع، الاشتراكية تحرير من الليبرالية، معركة مستمرة بلا نهاية.

وتفكر قليلا ونحن نتابعه بعواطفنا المتناقضة ثم قال:

ـ المأساة، ولعلها ليست بمأساة، أنه ما من جديد يجد إلا ويجىء معه بقدر من الحرية وقدر من الاستعباد الجديد؛ فالآلة تحرر اليد وقد تأسر الروح، السلع الجديدة تشبع وتمتع وقد تحجب عن الإنسان مصيره، الإقطاع حرر من قطاع الطرق وفرض الرق، الليبرالية

حررت المواطن من الحكم المطلق وجاءت بالاستغلال الاقتصادى، الاشتراكية حررت الإنسان من الاستغلال وسيطرت عليه بالبيروقراطية أو الدكتاتورية. ولذلك فلا نهاية للمعركة ولا للابتكارات ولا للمذاهب حتى يظفر الإنسان بحريته الكاملة ويصبح قولا وفعلا سيد مصيره. لذلك علينا دائمًا وأبدا أن نكون مع كل جديد بقدر ما يعد من حرية وأن نكون على استعداد للتخلى عنه كلما جد جديد أفضل أو رجحت كفته السالبة.

ونقل ضوء عينيه بين وجوهنا ثم ابتسم بارتياح ومضى يتساءل:

- ولكن ما دور الفرد - كفرد - فى هذه المعركة لكى يحرر إرادته ويحسن الاختيار؟

وبعد لحظات من الصمت أجاب:

- عليه أن يقتنع بأن «الذاتية» هى سبيل العبودية، وأن الموضوعية هى سبيل الحرية. الاختيار الحر يقوم على الموضوعية، وإلا أذعنا إلى غريزة ونحن نتوهم أننا نمارس عاطفة، أو سايرنا عاطفة ونحن نعتقد أننا نلبى العقل. ولكى يحدث الانسجام والتوازن بين الغرائز والعواطف والعقل فلابد من تربية الإرادة تربية تبلغ بها ذروة القوة، وبكل إنسان سليم من الصبر ما يستطيع به أن يربى إرادته ويتغلب على ضعفها وتراخيها، فى الإنسان قوة كامنة تضارع قوة الذرة.

وأغمض عينيه قليلا ثم فتحهما قائلا:

- أتذكر النظرة الذاتية للكون التى جعلتنا نتصور أننا مركزه؟ أتذكر النظرة الذاتية للمجتمع التى تغريك بالدفاع عن طبقتك وأنت تتخيل أنك تدافع عن الإنسانية؟ أتذكر النظرة الذاتية إلى المرأة التى تدفعك إلى الإيمان بسيادة الرجل وأنت تعتقد أنك تبشر بطبيعة

الأشياء؟ . . اتجه نحو الموضوعية متحرراً من أى عبودية، عند ذاك تمارس الاختيار الحر، وتمضى فى سبيل السيادة الحقيقية، وتقترب خطوة خطوة من طريق الأشواق الأبدية المضنون به على غير الأحرار.

٩

قالت أفكار وهى تتثاءب:

ـ أكون مجنونة لو حضرت مجلسه بعد الليلة.

وقالت نبيلة:

ـ إنه مثير ولكنه سينقلب مضجرا.

وقال لى وفيق:

ـ إنه مجنون فيما أرى، ما رأيك بصراحة؟

فقلت متظاهراً بالمرح:

ـ لم يعد لى من تسلية سواه.

فقال بحنق:

ـ لقد أجنه الفشل، كان الله فى عونك.

أثارنى حديثه لدرجة لم أقدرها. لم تكن لتحدث فى ظروف أخرى. عدت أسمع صوت الزمن. فيما مضى كنت شريكه فى الاطلاع والفكر. اليوم أصبحت مجرد مستمع ذاهل. ماذا أكون وماذا تكون أسرتى؟ أحرار أم عبيد؟ بدا السؤال مضحكا. السوق، المكتب، النقود، الثرثرة، التحف، القمار. هل أمضى من المرض إلى احتقار

الذات والأهل؟ ترى هل يمكن تربيــة الإرادة؟ هل يمكن تربيــة الإرادة بالإرادة؟ التغيير أهم من القراءة والرؤية والسماع. إنى أسمع وأرى وأقرأ ولكن ما جدوى ذلك؟ هل يجاوز التسلية العابرة وقتل الوقت؟

وامتعضت امتعاضًا شديدًا. عز عليّ قلقى واضطرابى. بوسعى أن أنسى ما سمعت، أن أقطع الصلة الجديدة، أن أهزأ منه. ولكن وراء السطح المحتدم قبعت لهفة تتشوق إلى عودته. لقد جلا الصدأ عن نفسى وبعث الشخص القديم.

ـ ألا يعد صوته إغاثة للمريض من وحدته؟

١٠

انفعلت انفعالاً سعيدًا متجددًا بزيارات جلال أبو السعود الدورية. وسعدت بصفة خاصة لانفرادى به بعد أن أضربت الأسرة عن شهود مجالسنا. وعاصرنا الخريف بجوه المنعش، وشمائله العذبة، وألوانه البيضاء، ونفثاته الموحية، فهو ربيع وطننا بلا شريك. ولدى أول زيارة انفرادية قلت له دون حذر من رقباء:

ـ والله زمان!

فألقى نظرة على الحجرة الخالية وتمتم ضاحكًا:

ـ هرب المستمعون!

ـ هذا أفضل.

فقال بأسى:

ـ يندر أن يطيب حديثى لأحد ولكنى لا أكف عن الكلام.

ذلك ما أعده من حسن حظى. إنه يتحدث عن تجربة شخصية

حميمة، عن معركة يخوضها بكل قوته، وبتصميم رائع على تحدى اليأس.

وذات مرة قلت له:

- أتذكر الحكمة التى قرأناها معا فى ماضينا: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»؟

فحنى رأسه الأصلع بالإيجاب فقلت:

- أحاديثك المثيرة أعادتها إلى وعيى.

فقال باهتمام:

- أعتقد أننا فهمناها على غير حقيقتها.

- لكنها واضحة تماما.

- لا أوافقك، يجب أن تكون دعوة للموت فى هذه الحياة التى نحياها..!

فقلت ضاحكا:

- فال الله ولا فالك.

فقال جادا:

- لن يعزينا انتباه ما بعد الموت عن الغفلة الطويلة فى حياتنا.

ففكرت فى قوله تمشيا مع رغبتى فى المشاركة ونبذ دور المستمع السلبى، أما هو فمضى يقول:

- علينا أن نموت فى هذه الحياة.

- لا أتصورك قاتلا أبدا..

- فى عنق كل منا جريمة قتل عليه أن يرتكبها.

فقلت لأقنعه بأننى بت أفهمه:

- تعنى أن يقتل نفسه!

ـ إذا وفق إلى قتل نفسه المستعبدة تحرر ووهب الانتباه!

* * *

وفى زيارة أخرى بادرنى بسؤال عجيب :

ـ أتذكر نفسك التى آختنى فى عهدنا القديم؟

فقلت من فورى :

ـ طبعا .

ـ أشك فى ذلك ، كان شخصا آخر تماما ، فى خلاياه وشكله ووزنه وفكره ورؤيته .

ـ إنى أتذكره على أى حال كلما أردت ذلك .

ـ أشك فى أنك تتذكره تماما ، ولقد تتابع عليك مئات الأشخاص المختلفين لا يكاد يجمعهم إلا اسم «عبد الحميد حسنى» .

فقلت وأنا لا أدرى مقصده :

ـ هذا طبيعى جدّا .

ـ الطبيعى أن يكون الإنسان «أنا» واحدًا .

ـ وهو كذلك بمعنى من المعانى .

فابتسم لحيرتى ثم قال :

ـ انتبهت ذات يوم ـ وكنت فى أول الطريق ـ إلى تعدد شخصياتى ، فسجلت بعضها فى مذكرة اليوميات .

قاطعته متسائلاً :

ـ لك يوميات؟

ـ نعم هذا ضرورى جدا لمن يروم النجاح ، المهم ، إليك ما سجلته على قدر ما أذكره ، وهو يوم واحد :

١ ـ فى الصباح الباكر ، نزاع حاد مع زوجتى بسبب المصروف ، اتهام

منى لها بالإسراف واتهام منها لى بالجهل. رميتها بالتمرد فرمتنى بالرجعية، الحالة النفسية انفعال غضب. . ذاتية. . كذب. . ميل إلى الاستبداد. . خوف من المستقبل بلا أساس. . إرادة مشلولة. . عقل أسير. . عاطفة عمياء. . عاطفة فى قبضة غريزة.

٢ـ قبيل الغداء بمستشفى ميت غمر، حديث مع زميلة طبيبة مولدة شكت إلى زوجها وعقده، ظهر فى «أنا» جديد، حديث منى عن الرجل والمرأة فى ضوء حقوق الإنسان، شعارات عصرية مبهرة، الحال النفسية هادئ مرتب الأفكار. . كذاب لإرضاء الزميلة. . خائف من تهمة التخلف. . خيالات جنسية عارية.

٣ـ العصر، فى حجرة الأطباء، بروز «أنا وطنى» مائة فى المائة، حملة على الاعتداء الثلاثى، تأييد للثورة فى محنتها، دفاع عن حكمها الدكتاتورى، تبرير الدفاع بأن لقمة العيش أهم من الحرية لدى تسعين فى المائة من الشعب، الحال النفسية خوف من الغارات الجوية، كذب فيما يتعلق بالحرية، العقل مكبوت، الإرادة مفقودة، تمزق بين حب الوطن ورفض أسلوب الحكم.

٤ـ المساء فى النادى مع زميل منحدر من أسرة إقطاعية، تبلور «أنا» رابع، تصريح منى بأن الغزو وإن يكن شرا فى ذاته فلن يخلو من خير إذا حررنا من عصابة الضباط، موافقة على رأى الزميل بأن الحكم البريطانى كان أفضل من حكم الثورة، الحال النفسية كذب ونفاق وخوف وتمزق وحزن عميق.

وهكذا يا عزيزى، كل أنا شخص جديد فى عواطفه وأقواله وأفكاره ورؤيته للحقيقة، فالإنسان مفقود الوحدة، فريسة للكذب والخوف، لذلك يعيش إنسانًا بلا إنسانية.

فقلت منفعلا غاية الانفعال:

ـ على هذا الأساس فإن الفرد فى الواقع شعب كامل!

ـ نطقت بالصواب . . ولكن لابد من التسجيل لتتجسد الحقائق، لا تعتمد على التذكر فهو وهم كالحرية المزعومة وكالصديق المزعوم، وعندما تتجسد الحقائق يعبئ الإنسان إرادته لتغيير ذاته، ولخلق الانسجام والتوافق بين الغريزة والعاطفة والعقل، ليؤدى كل وظيفته الطبيعية بلا كبت ولا طغيان على الآخرين.

فسألت باهتمام شديد:

ـ هل تكفى الإرادة لإحداث هذه المعجزة؟

فقال بهدوء:

ـ ثمة شرط أساسى، أن يحدد الإنسان لنفسه غاية عليا!

ـ لا يخلو إنسان من غاية.

ـ وهم جديد يا عزيزى عبد الحميد، الغالبية العظمى من البشر لا تعرف لها غاية عليا، أجل لكل أنا غاية قريبة، وهى غايات متضاربة تخضع لميكانيكية الحياة اليومية، ولا بأس بها ولا ضرر منها إذا هيمنت عليها غاية عليا، ولا وحدة للإنسان إلا بهذه الغاية المنشودة!

فسألته بشغف:

ـ وما هذه الغاية يا ترى؟

ـ عليك أن تجيب عن السؤال بنفسك، لقد اجتهدت من جانبى واخترت الحرية كما قلت لك.

فكرت فلم أقتنع وقلت:

ـ الإنسان يتميز بالعقل فيجب أن تكون الحقيقة هى غايته العليا.

فقال باسما:

ـ لا اختلاف بيننا فى الواقع، ألم أقل إن الحرية والحقيقة الموضوعية شيء واحد؟ ألم أقل إن الذاتية هى العقبة الكئود فى سبيل الحرية؟ فالعقل الحر وحده هو القادر على معرفة الحقائق.

فقلت وكأنما أخاطب نفسى هذه المرة:

ـ يلزمنى اطلاع كثير وتفكير أكثر.

ـ الأهم أن تبدأ فوراً بتربية الإرادة، فلا اطلاع ولا تفكير بلا إرادة، إن ضعيف الإرادة يطلع ويفكر أيضًا ولكنه يتشتت فى أحلام اليقظة، انتهز فرصة السجن فهى نادرة خاصة لرجل مثلك، والطريق ليس باليسير، هو قضاء كامل على حياة زائفة ممتدة طولا وعرضا وعمقا، هو اختيار كلمة أو سلوك أو اختيار على ضوء غاية عليا محددة، وستواجه به أهوالا لا تخطر بالبال، وتطالب بتضحيات لا حصر لها ولا حد، بدءاً من تعاملك مع أسرتك وزملائك وانتهاء إلى مواقفك من النظم والدولة والطبيعة وما وراء الطبيعة.

وشملنا صمت غير قصير، ثم ابتسمت فى حيرتى وسألته:

ـ هل وصلت؟

فأجاب بنبرة محايدة:

ـ كلا، ولكنى أحرز نجاحا يوما بعد يوم.

ثم متسائلا فى أسى:

ـ وما قيمة وصول فرد واحد أو عدة أفراد بين آلاف الملايين من البشر؟

ـ دعنا من الخيال.

ـ ولكن لا قيمة لخلاص تحظى به قلة.

فقلت له على سبيل التعزية:

ـ قد يحدث التطور المعجزة.

فقال بازدراء:

ـ التطور الحقيقى لا يجىء إلا من الداخل.

فقلت ضاحكا:

ـ ستمحى المجموعة الشمسية قبل أن يحقق آلاف الملايين التطور الذى تحلم به.

فقال محتجا:

ـ لم يوجد شىء عبثا.

فسألته استجابة لخاطرة طارئة:

ـ هل تفكر فى نشر يومياتك؟

فحنى رأسه موافقًا فسألته:

ـ متى؟

ـ لم أحدد الوقت بعد، سأنشرها عندما يسعنى أن أحدد الوقت بحرية.

ـ ماذا تعنى؟

فقال باسمًا:

ـ عليك أن تفهم ما أعنى بنفسك، ولا أهمية لذلك.

فلم أشأ مضايقته. وخطر لى خاطر فقلت:

ـ يذكرنى طريقك بالتصوف؟

فقال بسرعة:

ـ كلا، التصوف أرستقراطى وطريقى شعبى. التصوف مقاماته التوبة والفقر والتقوى والتواكل إلخ، أما طريقى فمقاماته فى الحرية والثقافة والعلم والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والحزبية

والعقيدة. التصوف يجعل من الشيطان العدو الحقيقى للإنسان أما الطريق فعدوه يشمل الفقر والجهل والمرض والاستغلال والطغيان والكذب والخوف.

فضحكت وقلت:

ـ لعلك تعدنى ضمن الأعداء؟

فضحك مثلى ولاذ بالصمت.

١١

أول عهدى بالمرض نشدت التوافق مع الواقع، وقهر الضجر بالرؤية والسمع والقراءة، أى بالتسلية والمتعة والفكر. أجل فكرت كثيراً ولكنه كان تفكيراً يستهدف جلاء الحقائق وتذكر الوقائع ولا غاية وراء ذلك. وباقتحام جلال أبو السعود لحياتى انبثق منها تفاعل كيمياوى ولع بالتغيير وحلم به قبل كل شىء. لم آخذه مأخذ الجد من بادئ الأمر فلم أخش عواقبه، وتصورت أننى سأتخلى عنه عند لوح الخطر. ولكن فكرة التغيير مضت تلاعبنى لعب القط بالفأر بهرتنى مثل نجمة الصباح. وعقدت مقارنات خيالية بين أسرتى وبين حلم جلال فشعرت بما يشبه الغثيان. إنهم ثمرة حياتى وتربيتى لُعنت الشجرة والثمرة. وسألت نفسى فى قلق محموم:

ـ أأنا جاد حقا؟!

أولئك المولعون بالتحف والثرثرة والمال ولع الأطفال بالحلوى كيف أحادثهم عن غاية عليا؟!

وهتفت بضيق شديد:

ـ أيتها الحياة المحيرة، لا أدرى أينا ضحية لصاحبه.

وكلما ألح على الأرق تساءلت:

ـ أأنا جاد حقا؟!

* * *

وفى زيارة لجلال أقدمت على خطوة جديدة ومهمة، بعد تردد معذب طويل كنا نطرق باب الشتاء، وقد أمطرت السماء مطرة خفيفة واحدة قلت لجلال:

ـ فليسامحك الله على ما فعلت بى.

فضحك قائلا:

ـ لا تخجل تواضعى.

فرمقته بتحد وقلت:

ـ أريد أن أطلع على يومياتك.

فرفع منكبيه استهانة وقال:

ـ أكثرها لا يختلف عن يومياتك التى لم تدون، الأفضل أن تسجل ذكرياتك!

ـ ألم تقل إن التذكر وهم؟

ـ ولكن الوهم ينقشع بتربية الإرادة.

ـ ولم تضن بها؟

ـ لدى أسباب، وقد أطلعك عليها فى ظروف أخرى.

لم ألح عليه أكثر. وركزت على النية التى أنتويها. قلت:

ـ يخيل إلى أننى راغب فى دخول تجربتك!

فثقبنى بنظرة جامعة بين الحذر واللهفة ثم تمتم:

ـ حقا؟

فقلت مبادراً :

ـ أنا لا أكذب أبدًا .

وسرعان ما تذكرت حديثه عن الكذب والخوف فقهقهت على رغمى وقلت كالمعتذر :

ـ فى الأقل فيما يتعلق بهذه الرغبة !

لم تغض نظرة الحذر من عينيه فتساءلت :

ـ لم تشك فى؟

فقال بهدوء :

ـ هذه الرغبة تسبق عادة برغبة أخرى .

ـ ما هى؟

ـ أن تعترف بخبايا حياتك التى تؤرقك .

فهتفت من فورى :

ـ هذا ما يلح على ، هذا ما صارعته حتى صرعنى .

فقال بارتياح :

ـ انتظرت طويلا أن أسمع منك ذلك حتى كدت أيأس منك ، أشهر مرت وأنا أنتظر !

ـ لم أتصور أن يكون للاعتراف كل هذه الأهمية .

ـ بل إنه يقطع بأنك دخلت التجربة وأنت لا تدرى وأن إرادتك بدأت تعمل .

فشملنى سرور صبيانى ، أما هو فواصل :

ـ كنا شابين مجتهدين فقيرين ، هدفهما عمل يوفر الرزق . وثقافة تثرى الحياة ، ماذا حدث بعد ذلك؟

قلت بلا تردد :

ـ توظفت، تزوجت، أنجبت، واصلت حياتى الثقافية، حققت الحلم كما ترى.

لم يعلق بكلمة، فقلت:

ـ ثم قدمت استقالتى من الوظيفة.

لزم صمته دون دهشة أو تساؤل فأدركت أنه يأبى مساعدتى ليتوكد من صدق رغبتى. قلت:

ـ الحقيقة أننى اضطررت إلى الاستقالة.

لم يتأثر حياد وجهه فقلت:

ـ كنت مراجعا بحسابات الأشغال، وكان مقاولا ممن يتعاملون مع الوزارة، ندت عنه كلمة فوجدتنى أمام إغراء لم يعرض لى من قبل، اقتلعنى من مستقر حياتى، اكتشفت أننى أنطوى على رغبات أخرى غير الثقافة والسعادة البريئة، ثمة حياة أفضل، ترددت طويلاً ثم مددت يدى، وكان لى منطقى أيضًا المستمد من مناخ فاسد، وتوهمت أننى أطبقه بحرية كاملة.

حولت عينى إلى الأمام وقلت:

ـ الانحدار لا يعرف التوقف، فاحت الرائحة، لا أطيل عليك، اضطرونى إلى تقديم استقالتى على سبيل العطف.

عطفت إليه عينى فكأنما لا يسمع ما يقال. قلت:

ـ وجدتنى مهدداً بالجوع فكدت أجن لولا أن ألحقنى المقاول بمكتبه.

هل أكتفى بهذا القدر؟ ماذا يغنى عن التراجع؟ وساد الصمت حتى قال بلا اكتراث:

ـ عرفت قبلك مشقة الصدق.

كأنما يقرأ أفكارى. وقلت مستهترا:

ـ اعترضتنى أزمة لعينة! . . (ثم بعد صمت) . . عشق المقاول راقصة أجنبية، لم يكن من الميسور فى ذلك الوقت أن تمد إقامتها فى مصر ما لم تتزوج من مصرى . . (ثم بعد صمت) . . قبلت أن أتزوج منها سرّاً نظير هبة مالية محترمة .

شعرت بإعياء فطال صمتى حتى تساءل :

ـ بتلك الهبة فتحت مكتب الاستيراد؟

فقلت بنبرة مرهقة :

ـ بدأت بالتهريب نظراً لتشدد القوانين فى تلك الأيام، ثم فتحت المكتب بعد ذلك، ثم انفجر النجاح بعد الانفتاح حتى بلغت ثروتى السائلة خمسة ملايين من الجنيهات .

شملنا صمت ثقيل فوجدت تعزية فى صفحة وجهه الذى لم يخرج عن حياده التام . وقال بهدوء :

ـ أشياء تحدث، كثيراً ما تحدث، أما الاعتراف بها فلا يحدث أبداً .

فتمتمت :

ـ إنها نسافة مثل الديناميت .

ـ الديناميت لا يهم من يرغب فى دخول التجربة، وسوف تجد فى يومياتى خطايا كثيرة .

ـ هل تأذن الآن فى إطلاعى عليها؟

ـ لا علاقة بين هذا وذاك، ستجدها بين يديك فى الوقت المناسب لا قبل ذلك .

فشبكت يدى فى بعضهما وقلت :

ـ أخاف على أسرتى من قرارات قد أتخذها يوما فيرونها جنونية .

فقال باسمًا :

ـ عندما تصبح قادراً على اتخاذها فلن تزعجك المخاوف .

ـ يجب أن أصمد حتى النهاية .

ـ فى الإنسان قوى لا حدود لها، ثق بذلك .

فقلت متأسفًا :

ـ مرضى يشككنى أحيانا فى قيمة رغبتى ، أريد أن أختبر نفسى وأنا صحيح معافى .

ـ تفكير تستحق من أجله الثقة ، ولكن المرض وحده لم يكن ليغيرك .

فداخلنى ارتياح وسألته :

ـ أمن الصواب أن أسألك الإرشاد عند الضرورة؟!

ـ كان لى مرشد أيضًا ، المعاونة مهمة وضرورية .

فازددت ارتياحا ثم خطر لى خاطر فسألته :

ـ هل نجحت مع أسرتك؟

ـ لدرجة كبيرة، لا تنس أن النساء تستغرقهن الغايات اليومية ولكنهن فى النهاية يشاركن الرجال فى أعماقهن الإنسانية .

ـ أظن أنه يجب أن أربى نفسى أولا قبل أن أكر عليهم؟

فهز رأسه نفيا وقال :

ـ من الضرورى أن تسبقهم بالرغبة والخطوات الأولى ، ثم عليك أن تشركهم فى التجربة ، فالمقاومة الأولى مهمة جدًا بوصفها مقويا لا غنى لك عنه ، ثم يجىء التعاون المثمر ، تذكر دائمًا أن عملنا تعاونى وليس فرديا .

فتمتمت فى حيرة :

ـ إنهم فى واد بعيد . . بعيد . .

ـ انتشلهم من الفراغ وادفعهم إلى العمل ، هذه هى الخطوة الأولى .

فتساءلت فى دهشة :

ـ أنسيت ما قلت مرارًا عن التحرر من العمل؟

فقال بوضوح :

ـ نحن في مرحلة العمل ، ولن نتحرر من العمل إلا بالعمل ، والفراغ المنشود هو الفراغ المثمر الحافل بالعمل الإنسانى ، وقد أقنعت زوجتى ـ وهى تماثل زوجتك فى تعليمها ـ بالعمل عضوا فى جمعية رعاية الأيتام ، ابنتى الكبرى ست ومربية وهو عمل ، أما الأخريان فستكونان طبيبتين .

ـ المشكلة العسيرة هى وفيق فهو يعتقد أن عمله غاية الغايات .

فقال بأسى :

ـ إذا رأينا العمل نشاطا منتجا لخدمة الفرد والجماعة فوفيق عاطل بلا عمل ، الأدهى من ذلك أنه يقوم بنشاط مخرب ، وهو أشبه بتجار الحبوب المخدرة القاتلة !

بذلك كشف عن رأيه فى عملى أنا أيضًا فليس وفيق إلا امتدادًا لى .

أخذت لحد الفزع ولكنى قلت :

ـ أمره هين على رغم ذلك .

ـ كيف؟

ـ إنى صاحب المال ، وأستطيع إرغامه على التحول إلى النشاط الإنتاجى !

فهتف :

ـ احذف «الإرغام» من قاموسك ، لا تتبع طريق الحكام الذين يمهدون للديمقراطية بمناهج دكتاتورية ، أو يحققون العدل بالظلم ، إنه طريق سهل لأنه يقوم على القوة لا التربية .

وصمتنا ولكننا واصلنا تبادل الأفكار بالنظرات حتى اقتحمنى خاطر كما يقتحم القذى فقلت :

ـ سوف ألقى من المجتمع حرجا أشد!

فوافقنى بهزة خفيفة من رأسه فقلت :

ـ طالما عددت من العمد المرضى عنها .

فقال بوضوح :

ـ لن يتيسر لك السير إلا بقهر الكذب والخوف .

١٢

مضى الشتاء وأنا أحاول لأول مرة الكتابة ، كتابة المذكرات لم أكن أتذكر إلا المعالم التى لا تنسى وهى قليلة ، ولكن التداعى استنقذ من العدم كهوفا مطمورة . وعن سياستى مع أسرتى فقد دأبت على عرض آراء صديقى وكأنما أقصد تسليتهم ليس إلا . وأجاريهم فى اتهامه بالخبل ولكنى أقول أحيانا :

ـ حقًّا إنه مخبول ولكن خبله لا خطر منه ، ثم إنه لا يخلو من حكمة ، أليس من المهم أن يقوى الإنسان إرادته ليحظى بحريته الحقيقية؟ وأليس العمل المنتج خيراً من النشاط الانتهازى؟!

وأثنى جلال على منهجى ، ووصفه بأنه منهج «تسللى» ذو أثر فعال مع التكرار والصبر ، والإصرار حيال ضجر الآخرين .

وقلت له يومًا بشأن مذكراتى :

ـ لم أستطع حتى الآن تسجيل واقعة زواجى من الراقصة الأجنبية!

فقال بامتعاض :

ـ يسوءنى أن أسمع ذلك ، إن كذبة واحدة تقوض البنيان من أساسه .

ـ لا يعلم به إلا ثلاثة، المرأة وقد طلقت من زمن وغادرت البلاد، أما أنا والمقاول فلنا مصلحة واحدة فى إخفائها، وهى كفيلة إذا عرفت بالقضاء على فى الأسرة والمجتمع.

ـ التسجيل مهم لتربيتك أنت أما النشر فلا أهمية عاجلة له.

ـ قد تطلع عليه الأسرة بعد وفاتى؟

ـ إذا نجحت فى تغيير الأسرة قرأتها بعين جديدة لا خوف عليك منها.

بدأت ـ على رغم اهمامى الظاهر ـ كمن يمارس تسلية ممتازة فى سجنه ولكنها مضت تنشب فىّ أناملها الناعمة بلا توقف.

١٣

فى ليلة من ليالى الشتاء الملتحمة بالربيع استمعت إلى ألحان شرقية قديمة بعمق وتركيز اكتسبتهما أخيراً ثم أطفأت النور مستقبلا نوما مريحا. كانت أفكار ونبيلة ووفيق فى الخارج كالعادة وسرعان ما استغرقت فى النوم. ولكننى انتبهت من نومى مكللا بشعور بأننى لم أنم إلا قليلاً وأن الصباح ما زال بعيداً. طالعتنى ظلمة مكثفة بالستائر المسدلة فأغمضت عينى غير أننى سرعان ما فتحتهما استجابة لصوت غريب يشبه الحفيف. تخايل لعينى شبح إلى يمين الباب فتساءلت:

ـ أفكار؟

لكنه لم يرد ولم يتحرك. عجبت لرؤيته رغم الظلمة الكثيفة، حملقت فيه متلقيا دفقة من القلق والخوف. مددت يدى نحو ظهر الفراش حتى عثرت على زر الجرس ثم ضغطت عليه طويلاً وقد ضاعف

عجزى من خوفى. سيسمع الخدم، وعسى أن يكون وفيق قد رجع. ولما طال الانتظار تسللت يدى الأخرى نحو زر الأباجورة وضغطت مجازفا بالمواجهة ولكن المصباح لم يضئ. هل احتاط الشبح وقطع التيار الكهربائى؟ أخرجنى الخوف من صمتى فتساءلت:

ـ من أنت؟

ثم مستمرا بصمته.

ـ ماذا تريد؟.. ليس فى الحجرة نقود!

وإذا بشبح ثان يتراءى لى إلى يمينه أطول منه بقبضة يد. اندفعت صارخا مناديا وفيق ولكن صوتى لم يخرج. لعله الخوف أو الشلل. وسيطر اليأس. وإذا بثالث يقف إلى يمين الثانى على مبعدة مترين من مقدم السرير، وإذا برابع يتجلى رغم الظلمة وهو أضخم الأربعة وأطولهم. امتلأت بوحدتى وعجزى ويأسى المطلق. تساءلت باستسلام:

ـ ماذا تريدون؟

فجاءنى صوت خيل إلى أننى لا أسمعه لأول مرة يقول:

ـ من حفر حفرة لأخيه..

فقلت بحرارة:

ـ أى حفرة؟.. إنى طريح الفراش منذ حوالى عام.

فقال الصوت بغضب:

ـ كففت عن الحركة لا التآمر!

ـ والله لا أدرى لقولك معنى..

فقال بحدة:

ـ لا تدع البراءة وأنت عريق فى الإجرام.

ووثبوا وثبة واحدة. اثنان إلى يمينى ويسارى، والآخران فوق الفراش. أيقنت بالهلاك فتوترت أعصابى لأقصى حد. قبض الأولان على ذراعى فاندفعت أقاومهما بعنف لأخلص ذراعى، متوقعا فى الوقت نفسه هجمة من الأمام. ووقع الهجوم فاستمددت من اليأس قوة. خلصت ذراعى ورحت أضرب كيفما اتفق فى جميع الجهات وأتلقى من اللكمات ما لا يعد. ازددت عنفا، ثم بلغت الرغبة فى الحياة ذروتها فطرحت عن صدرى الرجلين وتبادلت مع الآخرين ضربا لا يعرف الهوادة. وسقط رجلا الفراش على الأرض ولكن كيف سقطا؟

تبين لى أننى دفعتهما بقدمى!

ذهلت من الفرح رغم كربتى واجتاحنى الشعور بالشفاء من العجز.

ازددت قوة وثقة حتى استطعت الوثوب إلى الأرض. وقفت أقاتل بقدرة كالإلهام بعد حدوث المعجزة، ووضح أنهم أضعف مما تصورت وأنهم عزل من السلاح. تقهقروا نحو الباب وأنا أتعقبهم باللكمات الصادقات حتى بلغنا الصالة الخارجية. ودوت صرخاتى الغاضبة وهم يولون الفرار.

١٤

شع الضوء فبهر عينى.

وقفت مذهولا بين أفراد الأسرة والخدم. هتفت نبيلة:

ـ شفيت يا بابا.

وتمتم وفيق:

ـ كابوس!.. ولكن شكرا له!

وقالت أفكار :

ـ علينا باستدعاء الطبيب فى الحال .

رجعت إلى الفراش ماشيا فى حذر، وشملتنى مع الذهول فرحة طاغية، وجعلت أقول :

ـ لا أصدق ولا أتصور . .

وقهقهت أفكار متسائلة :

ـ ماذا رأيت فى نومك؟!

١٥

جمعنا لأول مرة بهو الاستقبال . قلت :

ـ أكد لى الدكتور صبرى حسونة أنه كان يتوقع لى الشفاء .

فقال جلال أبو السعود :

ـ أنا لا أصدقه تمامًا .

ثم حدثته بالتفصيل عن الحلم فأوله بأنه ترجمة حرفية لآلام الشفاء .

ـ تأويل معقول فيما أرى .

فقلت بإصرار :

ـ أعتقد أن الحلم هو كل شىء .

فتفكر قليلاً ثم قال :

ـ بين الحقيقة والخرافة خيط رفيع فاحذر أن تقصفه .

فتساءلت :

ـ ألا تؤمن؟ . . .

فقاطعنى :

ـ أود أن تركز على إرادتك الحرة .

فقلت له بإصرار :

ـ الأمر يتعلق بآمال الإنسان فى الحياة وما وراء الحياة .

فقال بهدوء :

ـ طريقنا منهج ينتفع به المنتمى واللامنتمى على السواء .

ـ طالما قنع إيمانى بالقشور وأريد أن أعيد النظر فى موقفى .

فقال باسمًا :

ـ وهى وحدة حتمية إلى إعادة النظر بعد تنقيته من العبودية والذاتية .

فقلت برجاء :

ـ أرجو ألا تضجر منى .

ـ سأنتفع بك بقدر ما تنتفع بى .

وخطر لى خاطر فقهقهت قائلاً :

ـ أسرتى سعيدة بشفائى ولكنها لا تدرى شيئًا عما ينتظرها من متاعب .

فضحك قائلاً :

ـ العبرة بالخواتيم !

وكنت فريسة للقلق مما بدا أثره فى حركات يدى ونبرات صوتى . ولحظت أنه يرنو إلى يدى بعمق فقلت كالمعتذر :

ـ إنه ما يسبق الميلاد .

قرار فى ضوء البرق

مصرع عصمت البطراوى أشد الجرائم إثارة فى زمن مضى. بادرت إلى فيلته بعمارة النيل فى صحبة كبار رجال الأمن، استجابة لبلاغ ورد لنا من ابنه الشاب الجامعى أمين البطراوى. وجدنا السياسى العجوز منطرحا فوق مقعد كبير بحجرة الاستقبال والدم ما زال ينزف من رأسه وقد تحول إلى جثة هامدة.

هكذا انتهى الجبار الذى أدمن الكاريكاتور المصرى تقديم شخصه - إبان عهده - فى صورة سفاح ذى صلعة على هيئة بحيرة من الدم. لم يكن ثمة أثر لمقاومة، ولم يسمع الخدم حركة ولا صوتا، فقد قتل غدرا وهو سابح فى هدوء الشيخوخة، وهذه أداة القتل ملقاة على حجره ملوثة بدمه، تمثال برنزى لرياضى إغريقى، وبالتدقيق فى التنقيب عثرت على زرار فوق السجاة وراء المقعد مباشرة. زرار لبنى ذى مركز ضارب للسواد. ولما كانت زراير بدلة الفقيد كاملة العدد فقد احتفظت بالزرار بعناية.

يبدو أن الجريمة ارتكبت فى الساعة الحادية عشرة أو بعدها بقليل، وبالفيلا وقتذاك الطاهى والسفرجى ومدبرة البيت، إذ إن الرجل أرمل منذ سنوات. وقد تلفنوا بالخبر إلى أمين فى النادى الذى أبلغنا من فوره. وكان من عادة الرجل أن يغادر مسكنه فى التاسعة صباحا فيمضى ماشيا إلى كازينو الشاطئ حيث يلبث ساعة ثم يرجع ماشيا أيضا. وهو

يدخل المسكن بمفتاح خاص فلا يشعر به أحد غالبا، وهو ما حدث صباح اليوم. غير أنه قابل المدبرة فى حجرة الجلوس وقال لها: «يبدو أن أمين ذهب إلى النادى»؟

فأجابت بالإيجاب فأمرها بإعداد فنجانين من القهوة وذهب. استنتجت المدبرة أنه رجع بصحبة ضيف، ودهشت لذلك، إذ إنه لم يحدث من قبل، وهو يمضى أمسياته فى النادى مع القلة الباقية من أصدقائه القدامى المعروفين. وجميعهم قد جاوزوا السبعين أو شارفوا الثمانين. ولما ذهب السفرجى بالقهوة إلى حجرة الاستقبال رأى سيده قتيلا فصرخ معلنا الجريمة لأول مرة.

إذن قد ارتكبت الجريمة بسرعة نادرة وجرأة متهورة ثم تسلل القاتل خارجا. وبالبحث أيضا تبين أنه لم يسرق شيئا، لا من الرجل ولا من المسكن. وقال لى رئيسى همسا:

ـ القاتل من معارف الفقيد.

فوافقت من فورى فقال:

ـ طريقة القتل تقتضى قوة فلنستبعد الأصدقاء القدامى فضلا عن سخف التصور لأكثر من سبب.

فوافقت من فورى أيضا..

فاتجه نحو أمين البطراوى وسأله:

ـ من فى تصورك يمكن أن يصطحب المرحوم إلى هنا؟

ـ لا أحد فيما أعتقد.

ـ ألا يزور البيت أحد من خارجه؟

ـ أصدقاؤه القدامى فى ظروف نادرة مثل المرض أو الولائم. عدا ذلك فهم يتلاقون فى النادى مساء كل يوم تقريبا..

ـ وغير أولئك، أليس لك أنت أصدقاء أيضا؟

ـ بلى، لى صديقان حميمان وزميلان فى كلية الحقوق لكنهما لا يدخلان البيت إلا بصحبتى، وفضلا عن ذلك فنحن نتلاقى عادة فى النادى . .

تكلم بلهجة رافضة كل الرفض للشك فيهما، فسألته :

ـ هل يعرفهما المرحوم؟

ـ قدمتهما له بطبيعة الحال ورآهما أكثر من مرة معى هنا .

ـ هلا حدثتنى عن ميولهما السياسية؟

ـ جلال حمزة وطنى لا لون حزبيا له ولكنه رافض . .

ـ رافض؟!

ـ أعنى ينتقد كل شىء!

ـ الآخر؟

ـ على فؤاد . .

وتردد قليلا، ثم قال :

ـ ديموقراطى . .

ـ البلد كله ديمقراطى . .

لكنه لم يزد على ذلك شيئا فحدجنى الرئيس بنظرة خاصة فحواها الاهتمام بهذا الجانب . وعندما خلوت إليه، عقب التحقيق مع الخدم الذى لم يسفر عن شىء، قلت :

ـ السياسى المعتزل لا يقتل بسبب السياسة . .

فقال بغموض :

ـ احذر القواعد، والآن حدثنى عن برنامج تحرياتك .

فأجبت من فورى :

ـ ثمة أماكن مهمة مثل كازينو الشاطئ، النادى، بواب العمارة، حتى الأصدقاء القدامى لا أحذفهم من برنامجى . .

٢

أما البواب فلم يشهد عودة عصمت البطراوى وبالتالى فإنه لم ير من كان بصحبته . وذهبت إلى كازينو الشاطئ حوالى الثانية بعد الظهر ومعى صورتان لجلال حمزة وعلى فؤاد حصلت عليهما من أمين البطراوى مع عنوانى مسكنيهما . فى الكازينو ساءلت المدير والجرسون بشير وماسح الأحذية . كان الخبر قد طار إلى الكازينو ولاحظت أن بشير كان أشد الجميع تأثرا به، ثم علمت منه أن الفقيد هو الذى ألحقه بالعمل . ووافتنى معلومات لا بأس بها . فعلى فؤاد وجلال حمزة معروفان لدى بشير وحسونة .

ـ على فؤاد من زبائن الكازينو، يمر بنا كل صباح تقريبا فى هذا الوقت من العطلة . .

وقال بشير :

ـ وأحيانا كان يتبادل التحية مع عصمت البطراوى، وفى هذا الصباح بالذات تصادف قيامهما فى وقت واحد فغادرا الكازينو متصاحبين . .

تحركت غريزة المطاردة وطالبته بإعادة الشهادة غير أن حسونة قال :

ـ كنت فى ذلك الوقت راجعا من مشوار فرأيت الأستاذ على فؤاد وهو يودع المرحوم ويمضى إلى كشك السجائر .

ـ لعله لحق به بعد ذلك؟

ـ لم أر شيئا فقد دخلت من فورى الكازينو . .

ولكن شهادة بياع السجائر كانت قاطعة فقد شهد بأن على فؤاد سار فى اتجاه مضاد لطريق البطراوى المتجه نحو الجسر ، وفضلا عن ذلك فقد قال عن عصمت البطراوى :

ـ وقد لمحته من موقفى وهو يلتقى عن بعد بشخص ما سار بصحبته . .

وعرضت عليه صورة جلال حمزة ولكنه قال :

ـ لم أتبينه ولم أعن بالنظر إليه . .

أما عن جلال حمزة فهو لا يغشى الكازينو إلا فى النادر . ولكنه جاء الكازينو منذ قليل . .

كان مضطربا ، وهو الذى أبلغنا بخبر الجريمة ، وسألنا إن كان الفقيد قد صحب أحدا معه ، فأفضينا إليه بما قلناه الآن . .

وساءلت نفسى أكان جلال يحقق إسهاما منه فى الكشف عن قاتل والد صديقه؟ أم كان وراء ذلك باعث آخر؟

وانتقلت إلى النادى ، وبسؤال أصدقاء أمين البطراوى من الأعضاء عرفت كيف تلقى الشاب الخبر . ومتى جاء على فؤاد للقاء أمين فى الساعة الثانية عشرة فعرف بالخبر ، وكيف جاء جلال حمزة فى منتصف الواحدة تقريبا فدهمه الخبر . وسألت :

ـ هل من عادتهما المجىء إلى النادى فى موعد محدد؟

فكان الجواب ألا ميعاد محددا لهما فى ذلك وأنهما قد يتخلفان بعض الأيام . وبرجوعى إلى مكتبى تلقيت من مساعدى تحرياته عن الميول السياسية للشابين ولكنى لم أقتنع بالباعث السياسى أصلا كما قلت لرئيسى .

٣

كان على فؤاد يقيم فى شقة متوسطة بالجيزة مع أسرته. وقد فتشنا الشقة ولم نعثر على شىء ذى بال. حتى الكتب لا مغزى لها فقد كان طالبا بكلية الحقوق وكان طبيعيا أن تحوى مكتبته كتب الاقتصاد على اختلاف مذاهبها. عن علاقته بأمين سألته، وعن معرفته بأبيه. عن عقيدته السياسية فلم ينكرها وقال باسما:

ـ إنها معروفة كالاسم والسن!

ـ شوهدت وأنت تغادر الكازينو بصحبة الفقيد هذا الصباح؟

ـ هذا حق.. ولكنى ودعته على بعد خطوات من الباب..

ـ أين ذهبت بعد ذلك؟

ـ إلى كشك السجائر. ثم قابلت صديقا ثم ذهبت إلى النادى..

ـ قيل إن البطراوى قابل شخصا آخر فى طريقه، هل اتفق لك أن رأيته؟

ـ كلا. سرت فى الطريق المضاد..

ـ قيل إنك أحد اثنين يزوران مسكن الفقيد فى أى وقت؟

ـ غير صحيح. ولكنى أزور المسكن بصحبة صديقى أمين.

ـ أكنت تحب عصمت البطراوى؟

ـ لم أكرهه على أى حال.

ـ أليس المتوقع أن تكرهه بسبب ميولك السياسية؟!

ـ لم يعد الرجل إلا ذكرى فضلا عن أننى كنت أنظر إليه بعين مودة لعلاقتى الوثيقة بأمين . .

ـ متى قابلت صديقك جلال حمزة هذا الصباح؟

ـ لحق بى فى النادى فى الواحدة أو قبل ذلك . .

كان واضحا هادئا ولم أجد ما يحملنى على الشك فيه .

٤

وكان جلال حمزة يقيم فى شقة صغيرة بعابدين وحده . إذ إن أهله مقيمون فى بنى سويف . وعندما علم بأمر التفتيش استاء وتساءل محتجا :

ـ لماذا؟

من أول نظرة أدركت أنه مهزوز الشخصية ولكنى توفرت بكل همة على التفتيش . وبوجه خاص الملابس . وفى الحمام رأيت بدلة بيضاء منقوعة فى طشت غسيل . وبفحص الزارير وجدت زرارا ناقصا . وبمضاهاته بالزرار الذى عثرت عليه فى حجرة استقبال البطراوى وجدته مطابقا . اقتحمنى شعور بالفوز .

ـ متى نقعت هذه البدلة؟

ـ أمس . .

ترى هل خامره شك؟!

ـ تنقص زرارا .

ـ ربما .

ـ مثل هذا الزرار؟

وأريته بالزرار. قطب فى عصبية وقال:

ـ توجد آلاف منها فى السوق، وهى نفس زراير بدلتى الأخرى..

ـ هذا حق، وقد وجدت هذا الزرار وراء مقعد عصمت البطراوى..

فتساءل بحدة:

ـ هل تتهمنى؟

ـ معاذ الله، متى بدأت صداقتك مع ابن القتيل؟

ـ منذ عشرة أعوام.

ـ عرفت القتيل؟

ـ قدمنى إليه.

ـ ولكنك كنت تعرفه من قبل؟

ـ ماذا تعنى؟

ـ كل الناس كانت تعرفه.

ـ طبعا.

لعلك كنت من المعجبين به؟

ـ كــلا.

ـ صديقك يعرف ذلك؟

ـ نعــم.

ـ إذن كنت من أعدائه؟

ـ أجل!

ـ قلت عنه مرة إنه المدرسة التى تخرج فيها كل من استبد بهذا الشعب أو نكل به..

ـ من قال ذلك؟

ـ لنا تحرياتنا.

ـ على أى حال فهذا رأيى حقا.

وتساءلت مصطنعا الثقة فى نبرتى:

ـ هل رأيت الرجل صباح اليوم؟

تردد لحظات ثم قال:

ـ نعم، على مبعدة غير قصيرة من كازينو الشاطئ.. صافحته، سايرته أمتارا ثم استأذنت منصرفا إلى طريقى..

ـ رآك أناس من رجال الكازينو؟

ـ ربما..

وقلت مغامرا:

ـ ورآك بواب العمارة..

فقال بحدة:

ـ غير ممكن، لقد تركته قبل ذلك بمسافة طويلة..

تمنيت أن يسهو فيقع فيقول مثلا: إن البواب لم يكن موجودا ولكنه فيما بدا لى حاذق أو صادق. والحق، وعلى رغم كل شىء ـ قوى الشك فيه عندى. سألته:

ـ مضت ساعتان أو أكثر بين مقابلتك الرجل. وذهابك إلى النادى، كيف أمضيتهما؟

ـ عادة أتسكع، وأحب مشاهدة صيد السمك..

ـ فى ذلك الوقت قتل البطراوى..

فقال بحنق:

ـ ليرحمه الله .

ـ كيف فسرت الجريمة لدى علمك بها؟

ـ لم أجد سببا واحدا يبررها . .

ـ ألم يخطر ببالك أن يكون وراءها سرقة؟

قطب قليلا ثم قال :

ـ السرقة لا تحدث عادة فى النهار . .

ـ القتل نفسه حدث . .

فلم يحر جوابا ، فقلت :

ـ إذن اتجه تفكيرك نحو السياسة؟ !

ـ لم أقل ذلك ، ولا هو بمعقول . .

ـ لماذا؟

ـ لا يفكر أحد فى اغتيال سياسى معتزل . .

ـ حتى لدى من عاش دهرا وهو يحلم بقتله؟

ـ من هذا؟

ـ كثيرون جدا تمنوا ذلك .

فصمت وقد بدا عليه إنهاك فقلت :

ـ أستأذنك الآن فى استعارة البدلة المنقوعة بعض الوقت . .

فحدجنى بذهول ثم تمالك نفسه فقال منفعلا :

ـ خذنى إذا شئت داخلها !

٥

وبينا كنت أحاور شكوكى فى جلال حمزة دهمنى خبر من شأنه أنه يقلب الموقف رأسا على عقب. عرفنا أنه اكتشفت وصية للمرحوم، يوصى فيها بثلث ثروته للجرسون بشير. ومن فورى أبلغت رئيسى. ومن عجب أنه لم يسر. قال بفتور:

ـ جرسون؟!.. أله نشاط سياسى؟!

من تغير نبرات الصوت أدركت أن «شيئا ما» يدبر وراء الكواليس، ولكنى قلت:

ـ إنى ماض للتحقيق.

فقال بامتعاض:

ـ أخشى أن نخوض علاقات شخصية وأخلاقية..

إنى لم أفهم لغة رئيسى. لقد أدركت أن ثمة رغبة لاستغلال الجريمة استغلالا سياسيا، لأسباب سياسية لا تخفى. تجاهلت ذلك. وسرعان ما استدعيت بشيرا واستجوبته بكل دقة. علما بأن وجوده فى الكازينو ساعة ارتكاب الجريمة أمر مؤكد. ومنه علمت أن أمه هى التى استشفعت بعصمت البطراوى ليلحقه بعمله فى الكازينو، عمل ممتاز ووفير الربح. وزرت الأم فى حجرتها الوحيدة بعزبة العجوزة. عجوز جاوزت الستين ولكن وجهها يشى بأصل جميل.

ونجحت فى استدراجها للاعتراف بحقيقة مذهلة، وهى أن بشير ابن غير شرعى للبطراوى، وأن الفقيد علم بالحقيقة فى حينها. ولم نعثر

على شبهة أو قرينة تدين الأم أو ابنها. ولما عرضت نتيجة التحقيق على رئيسى تهلل وجهه، وسرعان ما أمرنى بالانصراف.

تخيلت ما يدور فى الحجرة المغلقة من اتصالات تليفونية وتدبيرات جهنمية. وتسلمت الموضوع إدارة أخرى. وإذا ببيان يعلن فى الصحف مصورا مقتل البطراوى كجريمة سياسية متهما جماعة متطرفة، وذلك من خلال حملة إعلامية موجهة بضراوة نحو تلك الجماعة، وسبق ذلك حادث غريب وهو القبض على علي فؤاد ضمن عشرات من الأفراد الأبرياء. تابعت ذلك كله بكآبة شديدة وفى تأزم عنيف رغم بعدى عنه كلية، وقلت لرئيسى:

ـ ما زال اتهام جلال حمزة هو الراجح عندى..

فصاح بى وبغضب متسائلا:

ـ أبينك وبينه ثأر قديم؟

فقلت بوضوح:

ـ إنه مجنون أو نصف مجنون، إنى أعرف هذا النوع جيدا.

فصاح بى:

ـ لم يعد الموضوع من اختصاصك.

٦

قررت أن أرجع البدلة إلى جلال حمزة بنفسى. الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. نمى إلى علمى ما يلقاه المقبوض عليهم من ألوان التنكيل والتعذيب حتى حدث ما يعد كارثة. كارثة بكل معنى الكلمة. طويت

نفسى على آلامها وذهبت إلى مسكن جلال حمزة . . استقبلنى بوجه أنهكه الإرهاق فبدا مثل شبح . تظاهرت أمامه بالمرح وقلت :

ـ دعنى أرد إليك بدلتك مصحوبة بالاعتذار !

وترامقنا فى جو مشحون بالتوتر . ثم تساءلت :

ـ ألا تدرى أننى شككت فيك من أول نظرة؟

فتساءل ببلاهة :

ـ أول نظرة؟

ـ كما يوجد حب من أول نظرة يوجد شك من أول نظرة .

فقال بسخرية :

ـ إنك رجل ملهم!

ـ وها هى ذى الحوادث تؤكد خطأ ظنى . .

فصمت ، فقلت :

ـ حسبنا أن المجرم الحقيقى قد اعترف ، طبعا علمت بذلك؟

ـ مثل جميع قراء الصحف .

ـ إنه صديقك .

ـ شخص لا يمكن أن يقتل .

ـ القتل أبسط مما تتصور .

فتردد قليلا ثم تساءل :

ـ ثمة إشاعة متطايرة تقول إنه وبعض زملائه قد قتلوا وهم يحاولون الهرب . .

كنت قد عرفت ذلك ، ولكنى قلت :

ـ لا أستبعد أن تقع حوادث من هذا النوع .

وساد الصمت وعدنا للترامق فى توتر حتى قلت بهدوء وبدافع من مجازفة لا تقاوم:

- أصارحك بأننى ما زلت أومن بأنك القاتل . .

تضاعف توتره وثار غضبه، فقلت متماديا فى الانتقام منه ومن نفسى ومن الدولة:

- أتخيل ما حصل على الوجه الآتى: قابلت عصمت البطراوى بعد أن تركه الشهيد على فؤاد، تصافحتما، سايرته منجذيا إلى قطعة من التاريخ المثير، لعلك صحبته إلى البيت بزعم إدراك أمين قبل ذهابه إلى النادى. دخلتما الشقة دون أن ينتبه لكما أحد، مضى الرجل ليسأل عن ابنه ثم رجع، قتلته ثم تسللت خارجا، رجعت إلى مسكنك، خلعت ملابسك، نقعت البدلة من الفطنة، ثم ذهبت إلى النادى لتتشمم الأخبار، ثم إلى الكازينو لترى إن كان أحد رآك فى صحبة الرجل، ما رأيك؟

صاح جلال بسخرية وهو ينتفض على رغم ذلك:

- برافو!

- تتظاهر بغير ما فى باطنك، إنك ضعيف هزيل، وها أنت ذا تشهد مصرع عشرات الأبرياء بسببك، إلى متى تحتمل ذلك؟

فصاح بسخرية:

- افترضنى بلا ضمير مثل حكومتك العريقة . .

فرمقته بازدراء وقلت:

- إنك مطمئن الآن فى حماية الحكومة، تعلم أنها لا تستطيع أن تتهمك وإلا اعترفت بقتل العشرات بلا جريرة.

- فكرة جميلة، مجرم يجد حمايته فى ظل حكومة أوغل منه فى الإجرام.

وبغتة تلاشت سخريته وكأنما جفت حيويته وخمد. انتقلنا إلى جو مشحون بيأس الاعتراف.

سألته بهدوء:

ـ أليس تصورى صحيحا؟

فصمت صمت الموافقة والتسليم، إنه يلتمس قطرة من العزاء. سألته:

ـ أكنت تضمر الرغبة فى قتله؟

هز رأسه نفيا فسألته:

ـ متى انبثقت فى وعيك فكرة القتل؟

لم يتكلم ولكنه ضرب يده بالأخرى ضربة سريعة واحدة فترجمتها متسائلا:

ـ فجأة!

تكلم بصوت ضعيف:

ـ وأنا أنصرف من الحجرة.. قمت وليس فى ذهنى إلا الذهاب، مضيت من وراء مقعده، تركز بصرى فى صلعته، انتفض جسمى، بغتة اجتاحتنى فكرة القتل..

عدنا للترامق. مرق فجأة من حال الاستسلام. برقت عيناه بجنون، صاح:

ـ أتحداك أن تعلن اعترافى!.. ما أنت إلا وغد مثلهم!

غضبت بدورى. كورت قبضتى فى وجهه مقاوما رغبة مرعبة فى تحطيمه، صمتُّ.

ـ جبان كذاب.. تعال إلى مكتبى واعترف رسميا ولترين ما أفعل..

اندفع يضحك بجنون حتى تصورت أنه فقد ذاته فغادرت مسكنه مشتت الخاطر ممزق القلب .

٧

بلغ بى التهور فى التفكير حد مناقشة فكرة قتل جلال حمزة متحديا العواقب كافة . ولكنى سرعان ما اقتنعت بسخف الفكرة فالمهم حقا هو كشف النقاب عن جريمة الحكومة . ولم يطل بى التفكير إذ اقتحم جلال حمزة حجرتى ذات صباح مجللا بالانهيار الكامل . أدركت فى الحال أنه ـ حتى على رغم جنونه إن صح أنه مجنون ـ يشاركنى فى امتلاك ضمير معذب . وسرعان ما أملى على اعترافه ثم وقع عليه بإمضائه . ألقيت القبض عليه ورحت أفكر فى الأمر . إنى أعرف تماما خطورة ما أنا مقدم عليه . إنه لا يهدد مستقبلى فقط ولكنه يهدد حياتى أيضا .

وإذا بقوة عنيفة تتفشى فى وعيى خليقة بأن أتحدى بها الجبال . من خلال لحظة مقدسة رحبت بالاستشهاد وغرست بذرته فى نفسى لينمو شجرة خضراء وهلاكا أصفر . إنها لحظة لا تنسى تحتوى الإرادة مثل إلهام خالد . وفى الحال قصدت رئيسى وقدمت له الاعتراف . مضى يقرأ بهدوء أول الأمر . ثم أخذ وجهه يصفر وشفتاه تتشنجان . ثقبنى بنظرة مقت ثم هتف :

ـ إنه مجنون بلا أدنى شك !

فقلت بهدوء :

ـ فلتر النيابة فيه رأيها ! ٠

فصـــرخ :

ـ إنك مجنون مثله!

ثم بنبرة وعيد:

ـ إذا تسرب النبأ فستكون أنت المسئول عن ذلك!

وأمرنى بالانصراف بعد أن أعطانى مفتاحا للخروج من الأزمة. وفى الحال اتصلت بصحفى أعرفه من صحفيي المعارضة، وذهبت إلى بيتى مرتاح البال لأول مرة منذ مصرع عصمت البطراوى.

* * *

لم يكن مفر، عقب انفجار الخبر فى الرأى العام، من التحقيق مع جلال حمزة، وقد حول إلى الطبيب الشرعى الذى قرر جنونه فأودع فى مصحة الأمراض العقلية. وشككت صحف المعارضة فى القرار الطبى، وحملت على الحكومة حملة صادقة. ونمى إلىّ أن أمرا يدبر لى فى الخفاء فلم أجد بدا من الأخذ بنصيحة الأصدقاء، فقدمت استقالتى، وسافرت للعمل فى خارج القطر..

أسرة أناخ عليها الدهر

وجدتنى فى فناء ترب مكتظ بالآدميين والضوضاء. مربع الأضلاع مسقوف بسماء متلبدة بالسحب الداكنة. تتلاصق على أضلاعه الحجرات وتفوح فى جوه البارد روائح البصل والثوم والفول النابت والطعمية. أمام كل حجرة تقرفصت امرأة أمام كانون أو وابور غاز وانتشر فوق أديمه المليء بالحفر والنفايات أطفال يلعبون. اتجهت الأعين نحوى وكأنما تتساءل عما جاء بهذا الأفندى إلى ربعهم العتيق. ملت نحو أقرب امرأة وقلت:

ـ صباح الخير أين أجد ست وجدية جلال؟

فأشارت بيدها المغطاة بقفاز من الخضرة نحو امرأة فى الركن الأيسر من الضلع المتوسط وهى تسأل بتطفل:

ـ من حضرتك؟ . . وماذا تريد منها؟

فشكرتها متجاهلا تطفلها وشققت طريقى متجنبا الحفر حتى وقفت أمام المرأة متسائلا:

ـ ست وجدية جلال؟

فرفعت إلى وجها بارز العظام مدبوغا بالتعاسة والكبر محدقة فىَّ بعينين كليلتين وهى تهمس:

ـ أنا وجدية.

فقلت برقة :

ـ مندوب وزارة الأوقاف .

نهضت بنشاط طارئ لا يناسب هزالها ، ثم دخلت الحجرة وهى تقول بصوت بالغ المودة :

ـ تفضل .

أول ما طالعنى وجه شاب مفرط البدانة ، واضح العته ، يرسل نظرات بلهاء ويبتسم للاشىء . تربع فوق كنبة قديمة لا أثاث فى الحجرة سواها باستثناء سحارة سوداء وحصيرة متهرئة . قالت :

ـ لا مؤاخذة ، لا يوجد كرسى ، تفضل بالجلوس على الكنبة . .

قال الشاب بعجلة :

ـ لا . ارجع إلى أمك خديجة العرة !

نهرته الست وقالت لى آسفة :

ـ أنت سيد من يفهم ويعذر .

فقلت بهدوء :

ـ لقد تلقت الوزارة طلبك فأرسلتنى للتحرى كالمتبع .

فتساءلت بلهفة :

ـ متى تقررون لى إعانة؟

ـ كل شىء بمشيئة الله ، أتعيشان وحدكما؟

ـ معنا الله ، وهذا الابن الذى بقى لى كما ترى . .

ـ أله عمل؟

قال الشاب :

ـ يا مغفل ، ألم تعرف أن أولاد الملوك لا يعملون؟!

فصاحت به المرأة:

ـ لا تفضحنا (ثم ملتفتة إلىّ).. أكرر العذر وربنا يكرمك، لا عمل له، يمضى على باب الله فيطعمه المحسنون، وأنا لا مورد لى إلا الملاليم التى تجيئنى من بيع النابت..

ـ فى الطلب أنكم أسرة كريمة أناخ عليها الدهر؟

ـ كنا كذلك، وضاع كل شىء..

ونشجت باكية فقال الشاب الأبله:

ـ تريد أن تعتدى على أمى يا حمار؟!

لم ألتفت إليه، ولم أتأثر بالدموع من طول ما خالطت الأسر التى أناخ عليها الدهر، قلت:

ـ أعطنى فكرة عن حياتك السابقة.

قالت وهى تجفف دموعها بطرف شالها الرث:

ـ كان أبى بياع حلاوة طحينية وكان زوجى موظفا.

ـ اسمه ووظيفته؟

ترددت ترددا لم يغب عنى بحكم خبرتى ثم قالت:

ـ مضى زمن طويل.

ـ لا بأس أخبرينى..

ـ كان موظفا بدار الكتب..

ـ اسمه من فضلك؟

ترددت مرة أخرى ثم قالت:

ـ غريب عدنان.

ـ أين كان مسكنك؟

ـ فى باب الخلق، لا أذكر رقمه ولكن كانت بأسفله صيدلية.

ثم بصوت مليء بالأسى:

ـ صحتى تسوء يوما بعد يوم، ارحمونى يرحمكم الله.

فصاح ابنها وهو يشير نحوى:

ـ هذا الرجل لص، رأيت بدلته على رجل ديوث.

غادرت المكان مسرعا فبلغت شارع السد بباب الشعرية ونظرات النساء ما زالت راسية فى أعماقى. دلتنى الزيارة على مراجعى. هناك شيخ حارة السد، دار الكتب، وبيت باب الخلق. وملت إلى دكان شيخ الحارة فوجدته لحسن الحظ جالسا إلى مكتبه القديم تحت صورة الملك. سلمت عليه ثم قدمت إليه بطاقة العمل فرحب بى فقلت:

ـ تفضل علىَّ بما تعلم عن ست وجدية جلال المقيمة بالربع ٢١ بحارة السد.

فقال بعدم اكتراث:

ـ علمى عنها قليل، لكنها على حياء بخلاف بقية السكان..

ـ أهى أصلا من سكان الربع؟

ـ لا.. أقامت فيه منذ سنوات، وهى لولا ابنها المعتوه...

فقاطعته باسما:

ـ عرفته، من أين له هذا القدر المخيف من الدهن؟

ـ يأكل فى كل مكان، ولكن فيه شيء لله!

ـ تؤمن بذلك؟

ـ وأسمع. منذ شهر رأيته يبول فى وسط الطريق فزجرته فدعا علىّ، أتعرف ماذا أصابنى؟

ـ خير إن شاء الله؟

ـ أبدا، أصبت فى نفس الأسبوع بفتق . . ، ولكن هل تنوى الوزارة مدها بإعانة؟

ـ ربمـا .

ـ جميع جاراتها على مثل حالها من الفقر .

ـ للأسف الوزارة تقصر المعونة على الأسر التى أناخ عليها الدهر ، أما الفقراء فهيهات أن يشبعهم إلا وزارة أوقاف أمريكا . .

* * *

قصدت دار الكتب لأسأل عن غريب عدنان فى إدارة المستخدمين فأحالنى المدير على أقدم موظف فى الدار بأرشيف الكتب يدعى الشيخ فرغل بهنس . قدمت نفسى وشرحت له مهمتى ثم قلت :

ـ قيل لى إنك خير من يحدثنى عن المرحوم غريب عدنان .

رفع الرجل حاجبيه وقال :

ـ يالله . . سبحان من يبعث الماضى بعد موت . . كان ـ غفر الله له ـ مأساة وعبرة . .

وطلب القهوة لى ثم واصل حديثه :

ـ كان مترجما بالدار ، شهادته الأصلية البكالوريا ولكنه سافر إلى فرنسا على حساب أبيه فرجع بشهادة ما أو بلا شهادة ولكن شهد له بإتقان العربية والفرنسية . .

وصمت لحظات ليجمع أشتات ذكريات ، ثم قال :

ـ كان أيضا ميسور الحال ، ذا مرتب حسن وبيت مكون من عدة أدوار ، وعرف بسعة اطلاعه ، وكان بوسعه أن يفيد من علمه ترجمة أو تعريبا ولكن الشيطان دفع به إلى أحضان موضة انتشرت فى تلك الأيام ، أتعرف ماذا كانت تلك الموضة؟

فهززت رأسى نفيا فقال:

ـ موضة الإلحاد والعياذ بالله، قرر أن يكون حر التفكير مثل فلان وعلان ممن أحدثوا بإلحادهم ضجة ونالوا عنها شهرة فكانت الكارثة..

ـ كيف؟

ـ نشر كتابا عن الدين المقارن ردد فيه عن الإسلام ما يتقوله المستشرقون المتعصبون!

ـ أعطنى مثالا.

ـ لم أقرأه، ولا أتذكره، ولكنى أعرف تماما أن كتابه لم يحدث ضجة ولا أنشأ شهرة، ولكن أدخله السجن وأفقده الوظيفة..

ـ لم لم ينج كما نجا آخرون؟

ـ كان وراء الآخرين أحزابهم ولم يكن وراءه إلا الشيطان.

ـ ومات فى السجن؟

ـ أبدا خرج بعد انقضاء المدة، عاش على ريع بيته عيشة ليست يسيرة، ثم مات بالكبد، وقيل إن الخمر كانت وراء وفاته..

ـ وماذا تعرف عن أسرته؟

ـ لا شيء يذكر سوى أنه كان صاحب زوجة وأولاد. لم تتجدد علاقتى به بعد الإفراج عنه. لقد قاطعته بلا أسف منذ لحقت به لعنة الكفر..

أدركت لم ترددت ست وجدية قبل اضطرارها إلى ذكر اسمه. على أى حال لقد ورثت أسرته البيت فكيف تدهور بها الحال إلى الربع ٢١؟ وأين بقية الأولاد؟

* * *

ها هو ذا البيت وها هى ذى الصيدلية، بيت مكون من أربعة أدوار كل دور شقة واحدة. بيت متوسط الدرجة ولكنه محترم فضلا عن أنه يعد قصرا بالقياس إلى ربع السد. جلت جولة استكشافية بالكواء والبدال والفران والصيدلى فاهتديت إلى بغيتى فى ساكن الدور الثانى، أما الباقون فسكان جدد. كان موظفا على المعاش يدعى محمد الصياد. استضافنى بحذر، ولما علم بمهمتى أدلى إلى بما عنده من ذكريات. قال:

ـ غفر الله لغريب عدنان ولكن ما ذنب زوجته وأولاده؟

ثم أجاب عن تساؤله:

ـ هى حكمة ربنا على أى حال.

سألته باهتمام:

ـ ماذا حصل للأسرة بعد وفاته؟

ـ الأم كانت ست عاقلة ومدبرة، وجدت نفسها مسئولة عن تربية أربعة ذكور وأنثى، فقررت أن تبيع بيتا ورثوه لتنفقه على تعليمهم، وهى صفقة رابحة على أى حال، وحال يقف أحدهم على قدميه تزول المتاعب..

ـ تفكير سليم ولكن أين ذهب الأولاد؟

ـ صبرك، الابن الأكبر وهو فى نهاية مرحلته العليا قتل فى مظاهرة على عهد إسماعيل صدقى.

انتظرت وأنا أفكر فى صحيفة التحريات التى ستعرض على لجنة الخيرات المنتمية فى النهاية إلى حكم راهن يستند إلى انقلاب ملكى! قال الرجل:

ـ الابن الثانى قامر بمصروفات المدرسة فخسرها ثم انتحر!

هزت رأسى فى أسى:

ـ ثم وجدت البنت عريسا لقطة، غاية فى نضج العمر والمال فلم يكلف الأم شيئا يذكر ولكنها بعد أعوام من الزواج هربت مع خمار يونانى ويقال إنه هربها معه إلى بلاد اليونان، أرأيت؟

وبعد صمت قال:

ـ لم يحتمل الابن الثالث الصدمة فاختفى ولم يعثر له على أثر.

ـ هكذا لم يبق لها إلا المعتوه.

ـ ثم تدهور بها الحال إلى الحضيض!

* * *

اجتمعت لجنة الخيرات برئاسة مديرها وعضوية نخبة من كبار الموظفين على حين توليت أنا سكرتيرتها. عرضت ما لدى من تحريات وتقررت ـ كالعادة ـ إعانات ما بين الجنيه والثلاثة جنيهات. ولما جاء دور طلب ست وجدية رحت أقرأ التحريات فى صمت ثقيل حتى فرغت. وضح لى الأثر العميق الذى تركه التقرير. كان مفتى الوزارة أول المتكلمين، تمتم:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال مدير الإدارة العامة:

ـ أى أسرة هذه الأسرة؟!

فقال مدير الإدارة القانونية:

ـ أسرة جمعت ما بين الإلحاد والانحراف والتمرد والفسق والانحلال.

فقال المفتى:

ـ أسرة لم يبرأ من العيب فيها إلا معتوه.

فقال مدير الإدارة القانونية:

ـ والعته عيب أيضا غير أنه لا مسئولية عليه .

ونظرت إلى رئيس اللجنة متسائلا :

ـ هل أوقع بالرفض؟

فقال الرئيس يخاطب الأعضاء :

ـ دعونا من الأسرة وانظروا فى مقدمة الطلب فهى سيدة تعيسة الحظ قد أناخ عليها الدهر .

فتساءل المفتى بغضب :

ـ كيف نبرئها وهى البؤرة التى ترعرعت فيها الموبقات كافة؟

فقال الرئيس برقة :

ـ ألا تعتبر أيضا ضحية؟

فهتف المفتى :

ـ لا . . لا . . لا . . أبعدوا عنا هذا الطلب ، عشرات الأسر أحق منها بالإعانة . .

وساد صمت اعتبر موافقة فمضيت أوقع بالرفض . عند ذاك دق جرس التليفون فتناول الرئيس السماعة :

ـ أهلا سعادة الوكيل .

ـ . . . . . .

ـ حقا؟ . . الطلب خال من أى توصية .

ـ . . . . . .

ـ تسمح لى سعادتك بمقابلة دقيقة واحدة؟ . .

ـ . . . . . .

ـ شكرا يا فندم .

قام الرئيس وهو يقول لنا :

ـ الجلسة لم تفض، عن إذنكم . .

* * *

غاب دقائق معدودة ثم رجع إلى مكانه وهو يقول :

ـ علينا أن نعيد النظر فى طلب ست وجدية جلال .

فقال المفتى بحدة :

ـ لقد انتهينا منه يا سعادة الرئيس .

وتساءل مدير الإدارة القانونية :

ـ أهى رغبة سعادة الباشا الوكيل؟

فأجاب الرئيس بوضوح :

ـ أجـــل .

وكان للمفتى مكانة فى الحزب الحاكـم لا تقل عن مكانة الوكيل إن لـم تزد فقال بصوت جهير :

ـ لن أتراجع عن الرفض !

فقال رئيس اللجنة :

ـ ثمة توصية من شيخ مشايخ الطرق الصوفية !

فصاح المفتى :

ـ ولـــو !

فقال الرئيس متسائلا :

ـ أتدرى من تكون وجدية جلال يا فضيلة المفتى؟

فتساءل المفتى ساخرا :

ـ شجرة الدر؟ ! أم كليوباطرة؟ !

فقال الرئيس :

ـ إنها حفيدة إسماعيل الماوردى ، العارف بالله ، شملنا الله ببركاته !

وهتف مدير الإدارة القانونية :

ـ سبحانك ربى ، لك فى كل شىء حكمة وعبرة !

لم ينبس المفتى بكلمـة وسـاد صـمت الاسـتسـلام والرضـا . أجل والرضا . .

الظـلام القـديم

ليلة لا تنسى.

تأخر بهم الوقت فى صحراء العباسية فى ليلة من ليالى الخريف. لعبوا الكرة، ربحوا جولة وخسروا الأخرى. تشاجروا، انصرف الفريقان إلا ثلاثة، على وممتاز وإسماعيل. لبثوا حتى يصفى الحساب ويتم الصلح وتصفو النفوس. من شدة التأثر أغمى على إسماعيل، ارتبكا لذلك غاية الارتباك، قاما له بتنفس صناعى، وعندما عاد إلى وعيه كان الليل قد هبط بجلاله ولامبالاته فأحدق بهم الظلام.

كانت ليلة من ليالى الخريف، استقرت فى سقفها السحب، فلا نجم واحداً فى السماء، ولا شعاع يتسرب إلى المكان. ساحة مترامية ولكنها محاطة بمرتفعات شتى على رأسها المقطم بشموخه، تتعاون جميعا على حجب أضواء المدينة. غرقوا فى ظلمة عميقة وشاملة لم يجربوها من قبل، ظلمة أصيلة نقية مسيطرة طمست على الحواس ونفذت إلى أعماق الوعى. اختفى الوجود. تلاشت أشباحهم، استوى أن تحملق الأعين أو تغمض، استولى العدم على الكون.

قال ممتاز:

ـ سرقنا الوقت.

فقال إسماعيل:

ـ أنا المسئول.

فقال على :

ـ إنى أرى الظلام لأول مرة .

ـ فلنمض نحو المدينة قبل أن يدركنا الهوس .

ولكن أين طريق المدينة؟ شعروا باختناق . . على رغم جريان الهواء ورطوبته شعروا باختناق ، وشعور آخر طوقهم هو أنهم مكبلون فى زنزانة .

ـ أين طريق المدينة؟

ـ لقد فقدنا الإحساس بالاتجاه .

ـ اختفى المكان .

قال ممتاز ساخرا :

ـ نسينا أن نحضر معنا بوصلة .

ـ ومعها عود ثقاب .

ـ ولا صوت لإنسان!

صمتوا فى حيرة ولكن الصوت كان أنسهم الوحيد وآخر ما بقى لديهم من علاقات الحياة ، فعاد إسماعيل يقول :

ـ المدينة على مسيرة نصف ساعة .

ـ أجل ولكن أين اتجاه المدينة؟

ـ قد نوغل صوب الجبل الأحمر فتنقطع منا الأنفاس بلا جدوى .

ـ نسير مقدار نصف ساعة بلا زيادة .

ـ لكننا فقدنا الزمان كما فقدنا المكان!

ـ والسير نحو هضبة وابور المياه شديد الخطورة لوعورة الأرض وانتشار مساقط القمامة .

ونفخ إسماعيل . وضيعهم الصمت مرة أخرى . وسرعان ما قال ممتاز :

ـ على رغم القلق والقرف فإنى أشعر بالجوع .

فقال إسماعيل :

ـ وأنا عطشان ، لم تبق معنا برتقالة واحدة .

ـ ما زلنا نرتدى ملابس اللعب والجو رطيب ، هل نتجمد هكذا إلى الأبد؟!

ـ عسى أن تنجلى السماء عن فرجة يطل منها نجم .

ـ أو يمر إنسان معه بطارية .

ـ فلنتماسك بالأيدى خشية أن يضل أحدنا .

وتماسكوا بالأيدى وهم يضحكون بفتور ، وهتف إسماعيل :

ـ هذه هى نتيجة الشجار!

ـ الشجار كان نتيجة اللعب الردىء .

ـ أنت مغرور!

ـ يا للحماقة! هل نرجع مرة أخرى؟!

وضحكوا . عاد الصمت المخيف . قال على :

ـ فلنفكر . لم يبق معنا إلا التفكير .

ـ عظيم ، فلنفكر .

ـ السؤال الأساسى هو كيف نهتدى إلى طريقنا فى مثل هذا الظلام؟

ولما لم يجدوا جوابا جاهزا هربوا من التفكير ، فقال إسماعيل :

ـ ما تصورت أبدا أن الظلام له هذه القوة .

ـ كيف عاش أجدادنا الأولون قبل اكتشاف النار؟!

ـ كانت لهم غرائز خاصة بهم .

ـ نحن عميان بلا عصا ولا مرشد!

ـ ألم نتفق على أن نفكر خيراً من هذا الهذيان؟

رجعوا مكرهين إلى الصمت حتى هتف إسماعيل:

ـ نصرخ بأعلى أصواتنا لعل أحدا من أهل النجدة يسمعنا.

ـ وإذا سمعنا أحد من قطاع الطرق؟!

ـ أو ذئب؟

ـ أو أيقظ صراخنا حية رقطاء؟

فقال إسماعيل بنفاد صبر:

ـ سحبت الاقتراح.

وعادوا إلى الصمت والتفكير فغرقوا فى العدم مليا حتى قال ممتاز:

ـ أرى أن الصراخ ضرورة لتحقيق هدف آخر.

ـ ما الهدف الآخر؟

ـ نرسل صيحة ثم نرصد الصوت فنحدد موقع الجبل، بذلك تتضح الجهات الأربع!

ـ فكرة غير مجدية، فليس الجبل وحده هو ما يرجع الصدى، هناك الهضبة، وسور الغابة، وجدار مقابر الشهداء.

ـ اللعنة..

ورجع ممتاز يقول بإصرار:

ـ ليذهب كل منا فى ناحية ومن يظفر بالمدينة فعليه أن يرسل بعثة للإنقاذ.

ـ ثمة احتمال أن نسير جميعًا فى النواحى الخاطئة.

ـ وهب أن أحدنا وصل ألا يلزمه بعد ذلك تجميع نفر من الأصدقاء والحصول على بطاريات؟

ـ أننتظر حتى مطلع الفجر؟

ـ أو أن تنحسر السحب عن بزوغ النجوم أو القمر؟!

ـ أى يوم هذا من أيام الشهر العربى؟

ـ أعتقد أننا فى الربع الأول منه .

ـ أضغاث أحلام ، علينا أن نفعل شيئًا .

ومضى الضيق يضيق أكثر وأكثر ، والاختناق يطبق عليهم بقبضة حديدية ، حتى هتف ممتاز :

ـ ما ألعن الصمت !

ـ نحن نفكر .

ـ لم لا نعتبرها تجربة مسلية؟

ـ والإرهاق والجوع والعطش؟!

ـ انتظروا الفرج . إنه يجىء بغتة .

ـ بل ليس لنا إلا الاعتماد على أنفسنا .

ونفخ ممتاز بغضب وقال :

ـ فليسر كل منا فى اتجاه وليكن ما يكون .

ـ أليس الأفضل أن نبقى معا؟

وقال إسماعيل :

ـ أنا لا أطيق الظلام وحدى .

فقال ممتاز بإصرار :

ـ ابقيا إذا شئتما أما أنا فإنى ماض .

ـ أى ناحية؟

فضحك على رغمه وقال :

ـ إنه السير ، أما الناحية فقد ابتلعها الظلام .

ـ جهد ضائع .

ـ هو خير من الانتظار .

وسحب يديه من أيديهما وهو يقول :

ـ أستودعكما الله . .

مضى بلا صوت ، لم يدريا فى أى ناحية ذهب ، شدت يد إسماعيل على صاحبه ، وتمتم :

ـ إنه عنيد . .

ـ ولكن الانتظار غير محتمل .

ـ عليه اللعنة ، هو المسئول الأول ، وها هو ذا يتركنا مثل شيطان .

ـ لنسأل الله أن يسدد خطاه إلى الطريق الصحيح .

ـ وما أهمية ذلك؟ . . سنبقى هنا حتى مطلع الصبح .

ـ أليس من الأوفق أن نفعل مثله؟

فصاح بعصبية :

ـ كلا . .

ـ تمالك أعصابك .

ـ فلتذهب أعصابى إلى الجحيم .

واسترسل فى هياج فصاح :

ـ ما أنتم إلا لعنة من اللعنات ، هذه هى الحقيقة .

ـ لا تثرنى أكثر من ذلك .

ـ ألا تريد أن تعترف؟ . . من المسئول عن الهزيمة؟

ـ أنرجع إلى ذلك؟! . . أليس حسبنا ما نحن فيه؟

ـ ذلك ما أدى بنا إلى هذا الموقف .

ـ اسمع ، فلنسر أو فلنصمت .

ـ لا هذا ولا ذاك .

ـ بل هذا أو ذاك!

ـ تريد أن تستغل ضعفى فتفرض على إرادتك؟

ـ بت أحسد الذى ذهب .

ـ ماذا تعنى؟

ـ لن نجنى من الانتظار إلا الشجار .

فشد على يده كالمستغيث فقال على :

ـ تعال معى ، فرصة النجاة ستهبط درجة ولكنها لن تنعدم .

وتأبط ذراعه ، وحمله على المشى معه وهو يقول :

ـ أى شىء خير من الانتظار .

وتحديا الظلام القديم الذى فقد سلطانه منذ اكتشاف النار .

الرسالة

فى البدء كان الخوف.

حلق الشارب واللحية. استبدل بالجلباب والجبة بدلة. سمى شخصه الجديد «سالم عبد التواب» بدلا من عليش الباجورى الذى عرف به دهرا. ابتاع أرضا وبنى بيتا فأقام فى شقة وأجر تسعا. تجنب الاختلاط بالناس ما وسعه التجنب. عاوده الخوف من الزوايا والأركان، من الظلمة والضوء، من الهواء المشحون بأنفاس الخلق. يحذر نفسه من القضاء والمصادفة وسوء الحظ، فعند ذاك يستقر سهم الموت فى قلبه، وتتلاشى الحياة فى غيبوبة المجهول. قوة القانون الصلدة قضت عليه بالإعدام، وكلفت الجلادين بالتنفيذ، فلم تبق إلا الضربة القاضية. فى سبيل النجاة اقتلع شخصه من جذوره، من الماء والحيوان والشجر. وتعز عليه الطمأنينة إلا فى غيبة الأحلام والكوابيس. هكذا تتواصل المطاردة جيلا بعد جيل، تدفعها قوة عمياء مقدسة.

* * *

ـ اذهب والله معك.

ـ والغربة فى بلاد الغربة؟!

فى كل مكان ثمة حياة تتدفق، وهى مقدسة مثل الموت!

* * *

فى البدء كان الخوف.

ولكن لا دوام لحال. الشروق والغروب، تلاحم المعاملات وتبادل التحيات، والتنفس والخفقان، أحلام اليقظة وأحلام المنام، كل أولئك من شأنه أن يلطف التوتر، ويستأنس الشوارد، ويحل عادة فى محل عادة، يوهم بأن الأمور ستمضى غدًا كما مضت أمس. ثم أليس لكل أجل كتاب؟ وأن تستسلم للمقادر أخف من أن تشقى دوما بعذاب الخوف، وأن تعيش يومك خير من أن تعانى هولا لم يجئ بعد؟ لذلك مضى يختلف إلى المقهى ويجالس الجيران ويلاطف السكان. من يخطر له أن ينعطف إلى هذه الحارة المنزوية؟ من ينقب فى صحراء عن حبة رمل مضرجة بالدماء؟ ويفكر جادا فى المشاركة فى المقهى، أن يحظى بنعمة الحب والزواج والإنجاب. أن يمارس الحياة بما يليق بالحياة، وأن يطالبها بما هو حق للإنسان.

وتتم المشاركة. وتقوى أسس المعيشة، ثم يتقدم إلى الشيخ الحلبى طالبا يد كريمته.

- من هو سالم عبد التواب؟.. من هو عبد التواب!!

- لا غبار عليه كرجل عرفناه أعواما.

- إنه مقطوع من شجرة!

- أى مخلوق يتسلسل فى النهاية إلى آدم وحواء.

- ألا تخشى أن يظهر لأحفادك ذات يوم أعمام من الليمان؟

- فى كل سلالة مجرمون وما يهمنى إلا الرجل نفسه!

* * *

اقترن سالم عبد التواب من عظيمة كريمة الشيخ الحلبى، وراح ينجب البنين والبنات. استقر قلبه فى أمان شامل أو شبه أمان، فهو يمارس الحياة، والأعمار بيد الله وحده.

أجل تناوشه أحيانا أفكار معتمة، يخاف ما تفرضه حياته الزوجية من اتساع، سيُلزم مرات بمغادرة الحارة، سيمضى إلى السوق أو المدرسة، ولكن ألا يجىء الموت مع السلامة كما يجىء مع الخطر؟!

* * *

وتلقى ذات يوم رسالة.

«جاء الأجل!».

غفل عن الإمضاء وليس بها إلا هذه الجملة. واردة من حى السيدة كما يقر بذلك خاتم البريد. اقشعر بدنه برعدة خوف شاملة. وتفجر الرعب من مكامنه. جاء الأجل، هل عرف فى النهاية مخبأه بين البيت والمقهى والأولاد؟ ولكن مهلا، لم أراد المجهول أن ينذره؟ لم لَم ينقض عليه وهو غافل فى نعمة العسل؟ لماذا يعرض انتقامه للَفشل؟ لماذا يعرض نفسه وهدفه إلى يقظة قاتلة؟ لماذا يهبه فرصة للنجاة؟ أم يريد وقد تمكن منه أن يعذبه؟

جاء الأجل.

ما العمل؟. ما الطريق؟ هل يفشى السر القديم إلى أهله فينفخ فيهم حياة جديدة مليئة بالفوضى والشغب؟ هل يلجأ إلى الشرطة وإن جره ذلك إلى الاعتراف بجريمة أكبر؟ أم يكتفى بالحذر وبالمسدس الذى لا يفارقه؟ وأيا ما كان الأمر فقد تعكر صفو الحياة، واربد ماء البحيرة الرائق بقنبلة أعماق متفجرة.

رجع الخوف كما كان فى البدء. إنه لا يغادر البيت إلا لضرورة ملحة. يتفحص الوجوه بريبة دائمًا، يراقب الرائح والغادى، يتحسس بكوعه مسدسه، يختلس نظرات الحنان والأسى من زوجته وأبنائه.

* * *

مرة قال له شريكه فى المقهى وهو يشير بذقنه إلى رجل جالس غير بعيد.

ـ كلفنى أن أسألك إن كان عندك شقة خالية.

رأى رجلا بدينا غليظ الأشداق ذا جبهة متحدية يستقر فى عباءة فضفاضة، فقال بقلق:

ـ ليس من حارتنا!

ـ بياع فراريج ومستعد لدفع الخلو.

ـ واضح أن البيت مسكون.

ـ ترامى إليه أن شقة ستخلو قريبا.

ـ كيف عرف ذلك؟

ـ من أدرانى أنا؟!

ـ لقد اتفقت مع ساكن جديد، أتعرف الرجل؟

ـ عرفته فى سهرة عند السمرائى ثم جر الكلام بعضه بعضا.

وذهب الشريك يخبر الرجل بنتيجة مسعاه ـ ومضى هو يقيسه طولاً وعرضًا. توقع أن يصرف النظر عن موضوعه ولكنه قام بخفة لا تناسب بدانته وقدم نحوه فجلس وهو يقول:

ـ الطيبون للطيبات.

فجعل ينظر إليه ببلاهة فقال الرجل:

ـ محسوبك كريم البرجوانى، تحت الأمر فاطلب ما تشاء.

فقال بحسم:

ـ العفو، سبق منى وعد شرف.

ـ جميل أن يحافظ الإنسان على عهده.

تجنب سالم تشجيعه ولو بابتسامة ولكن الرجل قال:

ـ ما قيمة النقود؟ . . ما هى إلا عصافير .

ونهض الرجل وهو يقول :

ـ لكننا على أى حال أصبحنا صديقين .

وأتبعه عينيه وهو يمضى عن الحارة، وراح يتساءل ترى هل يعرف الكتابة؟

أهو كاتب الجملة أم أنه وحش مجهول رابض وراءه!!

ودعى يوما إلى شهود ذكر ببيت جار . فراعه أن يرى كريم البرجوانى جالسًا بين المدعوين . ماذا أقحمه على الحارة بهذه القوة؟! ورآه وهو ينضم إلى حلقة الذكر فيغوص فى موجاتها المتلاطمة الراقصة ويسبح حتى بح صوته، ثم تهاوى فى الختام فوق الحصيرة فاقد الوعى مثل ثور ذبيح . قال لنفسه إن خوفه من هذا الرجل غباء مطلق، فما هو من قريته، ولا هو من الصعاليك الذين يؤجرون للقتل . ولكن الرسالة نذير جاد وخطير، ليست دعابة مازح!

* * *

وعندما كان مدعوا للعشاء على مائدة حميه قال له الشيخ :

ـ رجل يريد الشقة التى ستخلو أول الشهر .

ـ من يا مولاى؟

ـ يدعى كريم البرجوانى .

فارتعد سالم وسأل حماه :

ـ تعرفه؟

ـ كلا . . استشفع بى دون معرفة سابقة .

ـ سبق أن رفضت طلبه .

ـ لم؟

ـ منظره لا يوحى بالثقة!

ـ أنت وشأنك ولكنى وجدته شهما وطيبا!

الرجل يتعقبه. إنه يريده هو لا الشقة، ولكن لم حذره بالرسالة؟ أيوجد وراءه مطارده القديم؟! كلا. ما الأمر إلا دعابة. له منافسون وكارهون فالحياة لا تخلو من ذلك أبدًا. أحدهم يبغى إزعاجه أو السخرية من أحمق. أراد أن يلقى نظرة جديدة على الرسالة ولكنه لم يجدها فى جيبه الداخلى. فتش عنها فى مظانها جميعًا ولكنه لم يعثر لها على أثر. ذهب إلى الكواء وفتش جيوب البدلة يظن أنه نسيها فيها ولكنه لم يعثر لها على أثر. أين اختفت؟ هل امتدت لها يد خفية؟ وتحرى الأمر مع عظيمة زوجته ولكنها قالت:

ـ لم يطرق ساعى البريد بابنا قط.

ولكنه تسلم الرسالة منه فى الخارج. ولا بأس من أن يتوكد منه بنفسه. ولكن الرجل لا يتذكر شيئا على الإطلاق. إنه يقرأ أو يوزع ولا يتذكر. هل كان حلما مما يرى النائم؟ أم هل جاء دور عقله ليشك فيه؟! مرة وحيدة توهم أنه ابتاع صفيحة سمن، ثم سرعان ما كشف توهمه! وأرجعه إلى حلم رآه ونسيه فى جملة مشاغله. ذاك وهم سرعان ما كشفه. أما الرسالة فكأنما يشعر بمسها ويقرأ حروفها، كانت حقيقة لا شك فيها. وما اختفاؤها الغريب إلا نذير جديد.

* * *

وكان يغادر بيته ليؤدى صلاة العيد، فتح الباب فرأى شبحا. عرف وجه كريم البرجوانى على الضوء الخافت المتسرب من ألق النجوم فى ظلمة الفجر. تراجع خطوة. أخرج مسدسه. شعر بألم حاد. أطلق الرصاص وهو يغوص فى الغيبوبة.

ما عرف ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ إنما جاء على لسان كريم البرجوانى فى التحقيق، قال ذهبت لأداء صلاة العيد فى الزاوية، ولما مررت ببيت المرحوم سالم عبد التواب فتح الباب وظهر الرجل، أردت أن أحييه فإذا به يصوب نحوى مسدسه، خفت على حياتى، وبدفعة غير إرادية ركلته بسرعة فأصبت منه مقتلا على حين انطلقت رصاصة قتلت صبى الفران.

الشـــــــفـق

كانت تعترينى فى صباى فترات كآبة ثقيلة. أعزف عن الأهل، أعتزل فى حجرة، أكره الطعام، وأحيانا أبكى، بلا سبب واضح على الإطلاق. عرضت على أكثر من طبيب، جربت عقاقير كثيرة، بلا نتيجة. وقال أحد الأصدقاء لوالدى:

- اعرضه على خالد جلال الطبيب النفسى.

وكنا نسمع عن الطب النفسى لأول مرة، فأعلن أبى عن ريبته، فقال الصديق:

- إنه طب معترف به فى جميع أنحاء العالم، ولكن مدة العلاج طويلة، ربما امتدت إلى عام أو أكثر، كما أن تكاليفه بالتالى باهظة!

وتفكر أبى طويلا ولكنه بإزاء مرض غامض عنيد قرر استشارة خالد جلال. ولما كان عمله كتاجر أصواف فى أسيوط يمنعه من إقامة طويلة بالقاهرة.. فقد قال لى:

- ستقيم عند عمتك ليسهل عليك التردد على الطبيب، وعلى أى حال كان فى نيتى أن أرسلك إليها لتواصل تعليمك.

وزرنا الطبيب. كان فى ذلك الوقت شابا بهى الطلعة، دمث الأخلاق، جلى الاعتداد بنفسه وعلمه. وقد أصغى باهتمام بحضور أبى، ثم حدد لى يومين فى الأسبوع لزيارته، وقال:

ـ المهم المثابرة والصبر، لست طفلا، والسعادة قيمة لا يجوز الاستهانة بها.

انضممت إلى أسرة عمتى عضوا جديدًا بها. عضوًا لاقى ترحيبا حارًا لثراء أبى وكرمه. ومضيت أتردد على الطبيب، وأحضر جلساته العجيبة. بدا لى العلاج فى أول الأمر فضولا لا جدية فيه، ثم أخذت أضيق به وأتذمر فى مرارة متواصلة، حتى قلت يوما لعمتى:

ـ لا أريد أن أذهب.

فقالت عمتى بقلق:

ـ والدك؟!

فقال زوج عمتى وكان موظفا بشركة الكهرباء:

ـ لا ذنب للعلاج ولكن حياتك مملة، لماذا لا تشارك فى «الشعلة» نادى حينا الرياضى؟

واشتركت فى النادى، ورحت أتدرب على الكرة والسباحة، ولم أنقطع عن العلاج.

وبرعت فى الكرة كما برعت فى السباحة. تحسنت صحتى البدنية، واشتدت عضلاتى، وارتفعت روحى المعنوية فى المباريات المحلية، وثمل رأسى بالهتاف والإعجاب. وانقطعت عن زيارة خالد جلال، وزايلتنى نوبات الكآبة، وصرت ولدا سعيدا بكل معنى الكلمة. واستقبلت المرحلة الجديدة من التعليم بفؤاد جديد. ولما كنت قد أدمنت الثناء من خلال تفوقى الرياضى فقد أصررت على التفوق فى الدراسة لأنعم بالإعجاب على المدى. وانتقلت من نصر إلى نصر، ومن بهجة إلى بهجة، وتناسيت مرضى، فلم يخطر لى ببال إلا فى لحظات نادرة من لحظات الوحدة والفراغ، عند ذاك كان يخيل إلىّ أنه رابض فى مكان ما، وأنه يتحين فرصة للانقضاض، ولكنها كانت لحظات نادرة جدًا

ومتباعدة جداً، وسحابة أو سحابتان لا يمكن أن تعكر صفو سماء صافية.

وفى أثناء دراستى بمدرسة التجارة اكتشفت زهيدة ابنة عمتى. أجل كنا نعيش فى مسكن واحد ولكننى نظرت إليها ذات يوم ونحن منفردان فخيل إلىّ أننى أكتشفها من جديد. لم أر من قبل ذلك تلك النظرة الساجية العذبة، ولا ذلك الجسد الناضج المتناسق. وتبادلنا نظرات جديدة تماما فتورد وجهها وارتبكت، وانبعث من أعماقى شعور متوثب حار وبهيج وطموح إلى غير حد. ولد الحب فى تلك اللحظة فى مهده الذهبى فباركه الحياء والمكر الحسن والحلم المبدع، وسرعان ما أعلنت خطبتنا.

تخرجت فى مدرسة التجارة، اشتغلت مساعدا لأبى فى أسيوط، ثم حللت محله عقب وفاته فى نهاية العام، ثم خضت تجربتى مع السوق والزواج فى عام واحد. والحق لقد أحببت العمل كما أحببت الزواج، وأصررت كعادتى على النجاح، وحذرت نفسى دائمًا من الفراغ ومن تذكر الماضى، وأنجبت ذرية كثيرة، فكنت كل عام أستقبل وليدا جديدا، وزخرت حياتى بالتجارة والحب والأبوة.

واندلعت نيران الحرب العظمى فانفتحت أمامى أبواب جديدة للأرباح الأسطورية. انهمكت فى عملى لدرجة فاقت كل تقدير. وما لبثت أن أنشأت متجراً ضخمًا للصوف فى القاهرة، وانتقلت أنا وأسرتى إلى العاصمة، ثم شيدت قصراً. ورسخت قدماى فى دنيا الثراء والجاه، حتى انتخبت رئيسا للغرفة التجارية.

وجاءنى ذات يوم خالد جلال للشراء. صار كهلا وقورا وما زال محافظا على بهاء طلعته. عرفته ولكنه لم يعرفنى. صافحته وأنا أقول:

ـ سعادتك لا تذكرنى!

وحكيت له تجربتى معه وهو يتابعنى مبتسما، ثم سألنى:

- وكيف حال الصحة؟

فقلت له بثقة:

- عال والحمد لله..

فقال لى بهدوء:

- الشفاء بيد المريض فى أغلب الأحوال.

وجعلت نفسى فى خدمته حتى غادر المحل راضيًا شاكرًا. وعلى الرغم منى تسللت إلىّ ذكريات قديمة استقبلتها بنفور، حتى خيل إلىّ لحظة عابرة أن عدوى القديم رابض غير بعيد. لم تكن إلا لحظة عابرة بالغة السخف، أما ما كان يضايقنى كثيراً فحملة كاريكاتور الصحافة على أغنياء الحرب وتصويرهم لهم فى صورة قطاع الطرق، يا لهم من أوغاد حسودين، وهل ينجح الإنسان إلا بالجهد والعرق؟!

وكان كلما أتم ابن من أبنائى تعليمه أشركته فى العمل، ولكنى استأثرت بعقد الصفقات الكبيرة، والقيام بالرحلات التجارية المهمة، وكان أبنائى مثلا طيبة للبر والحذق، وقدوة تجارية فى المثابرة وتقديس العمل والمال.

وبتقدم الأيام والعمر أرخيت قبضتى رويداً عن بعض التبعات، وحملتها الأبناء المجدين. لماذا فعلت ذلك على رغم هيامى بالعمل والنشاط؟ ربما لأنى أردت ألا يفاجأ الأبناء يوما بمسئوليات لم يتدربوا على ممارستها، وربما لأننى طرقت أبواب الشيخوخة ولم تعد الطاقة تسعف كما أسعفت فى الماضى، وربما لتسرب قطرات من الضجر إلى زوايا نفسى.

وظفرت بشىء من الفراغ سمح لى بالانطلاق بالسيارة ساعتين كل يوم فى الخلوات أو الطريق الصحراوى منفردا بنفسى أو بصحبة

زوجتى. وفى تلك الأوقات المريحة عاودنى شعورى القديم بالعدو الرابض فطاردنى التوجس من جديد.

وذهبت إلى خالد جلال. بات شيخا مجلل الشعر بالشيب يوارى عينيه وراء نظارة طبية كحلية اللون. وذكرته بنفسى للمرة الثانية فى حياتى فرفع حاجبيه وهو يبتسم، فبادرته دفعا لأى شماتة:

ـ المسألة من قبيل الاحتياط.

فقال بهدوء:

ـ الوقاية خير من العلاج.

ـ لعله توجد الآن عقاقير للوقاية بدلا من الجلسات الطويلة.

ـ لابد من الجلسات، لابد من الصبر.

فقلت ضاحكًا:

ـ لم يعد فى العمر بقية كافية!

ـ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا.

ـ ولكن عملى لا يسمح لى بأن أهرش ظهرى!

ـ آسف، إنى على استعداد لأعطيك ما عندى.

فشكرته وقلت وأنا أقوم للانصراف:

ـ سأفكر فى الأمر.

رجعت وأنا أفكر، لا صبر لى على الجلسات ولا وقت. وقد يسىء ترددى على عيادته إلى سمعتى وأنا رجل سمعته فى السوق تساوى مليونا من الجنيهات. وسرعان ما قررت حذف الموضوع من رأسى. ولما اشتد بى الضجر خطرت لى فكرة غاية فى الإبداع. قلت لزوجتى:

ـ لقد انقضى العمر بين ثلاثة أماكن محددة تفوح منها رائحة الصوف، وقد أتممت رسالتى، وأكرمنى الله بأبناء هم زينة السوق، فما رأيك فى أن تتأبطى ذراعى ونمضى لرحلة طويلة حول العالم؟

أخذت زوجتى التى أمضت عمرها بين السراى وبيوت الجيران، القانعة السعيدة بكل ما حولها، وقالت بخوف:

ـ حول العالم؟!

فقلت بحماس:

ـ أجل، أوروبا.. أمريكا.. الجبال.. البحيرات.. الناس.

فقالت بفتور:

ـ أريد أن أحقق حلمى الصيف القادم بالحج إلى بيت الله.

ـ ليكن ذلك فى العام المقبل!

كلا. إنها لا تريد ولا تحب. ولا داعى لإزعاجها. ولأقم بالرحلة منفردا. وقمت بالرحلة فى أبهة لا تتاح إلا لأصحاب الملايين. وفى مدينة نابلى شعرت بعدوى القديم يتحرك. تمطى حتى صار شبحا ثم تجسد وحشا. ترى هل أعتزل فى حجرة وأنشج فى البكاء؟! وفى شدة اليأس تعلقت بفتاة صغيرة فى السابعة عشرة، وكانت شهرتى كمليونير تنتشر من حولى. فتصيدنى أبوها البستانى وأسرته فوقعت كذبابة فى خيط العنكبوت. وتزوجت منها، وواصلت الرحلة، ونجوت من المخاوف. غمرتها بالهدايا، أغدقت على أسرتها.

سبقتنى أنباء مغامرتى إلى مصر، وانقلبت بين يوم وليلة حديث الناس والصحافة عريس فى الخامسة والستين عروس فى السادسة عشرة. ملكة جمال.. مصاصة دماء.. ثروة مهددة بالفناء. انكسر قلب زوجتى، وتجمع أبنائى فى اتحاد مضاد، للدفاع عنى فى الظاهر، ودفاعا عن الثروة المهددة فى الواقع. وجن جنونى فقررت أن أعصف بهم. وإذا بهم يقيمون دعوى بطلب الحجر على!

وفى المحكمة شُرِّحْت تشريحا بلا رحمة، فارق السن، الأموال التى نثرتها يمينا وشمالا، ثم فضحوا مرضى القديم باعتباره نوعًا من المرض

النفسى والجنون أهمل حتى استفحل. بت ويا للأسف مسألة عامة تناقش، المجالس والمقاهى والغرز والصحافة، تجلى الحقد المكبوت من قديم على نجاحى. اتهمت بالسفه. تدهور الشيخوخة، الجنون. اتهمنى المتدينون بأننى ألقى جزاء استغلالى للعباد فى أيام الحرب، وقال الشيوعيون إننى رجل طبيعى جداً ولكننى رأسمالى بلا زيادة ولا نقصان. ودعى خالد للإدلاء بشهادته فكانت شهادته حاسمة فى إدانتى. اعترف بأننى مصاب بمرض نفسى منذ صباى، وأن حياتى لم تكن إلا سلسلة من المحاولات اليائسة للهروب من المرض ومن العلاج.
وقد سألته المحكمة:

- وهل يتيسر نجاحه التجارى لمريض نفسى؟

فأجاب خالد جلال:

- يتيسر له النجاح فى التجارة، بل فى العلم، بل فى الحكم، إنما العبرة بالنتائج!

وبلغت المأساة ذروتها فصدر حكم بالحجر على. هكذا انتهت حياة النضال والكفاح والمجد. وسرعان ما ساءت العلاقات بينى وبين زوجتى الصغيرة حتى اضطررت إلى تطليقها، واعتزلت فى حجرتى، مقطع الأواصر بأسرتى، أمضغ الكآبة وأبكى كالأطفال. وعلى رغم موجدتى على خالد جلال لم أجد بداً من اللجوء إليه. وقد بادرنى:

- معذرة، ما كان يمكن أن أشهد بغير ما شهدت به.

فتجاهلت ملاحظته وقلت:

- الحال سيئة جداً..

- أعلم ذلك ولكن الشفاء مأمول.

فغمغمت:

- الأمر لله.

فابتسم مشجعًا وقال :

ـ لو أذعنت من الأول ما صادفك شىء سيئ، ولعلك لا تتصور أننى كنت سأنصحك بفعل ما فعلت، أنصحك بالرياضة والعمل والزواج .

فقلت بفتور :

ـ ولكنى فعلت ذلك كله .

ـ هذا حق، ولكنك تفعله بروح أخرى . هذا هو كل شىء .

اللقـــــاء

تجلت القاهرة لعينيه آية فى الأضواء والبهجة والصخب. إنه يفد إليها لأول مرة وعما قليل - بعد أربعة أيام على وجه التحديد - يلحق به أبوه، ليقوما بأهم زيارة فى حياته، زيارة السيد عبد الرحمن فاضل لطلب يد كريمته. أبوه يراه كفئا للبنت الجميلة، فهو زراعى ومرب للعجول، وذو مال، وفضلا عن ذلك فأبوه مزارع أصيل، وصديق للسيد عبد الرحمن فاضل وجار قديم له فى القرية قبل أن يهجرها الرجل إلى المدينة، وقد أعجبته البنت ليلة لمحها فى الاحتفال بالمولد النبوى بالقرية، وبارك أبوه إعجابه وتمنى له الخير فى رحاب آل فاضل. بادر بالانتقال إلى الهرم، دار حول فيلا آل فاضل، تملى طرازها العربى العريق، تملاها بإعجاب ووجد، وتلقى دفقة من أحلام الورد.. سار فى المدينة ساعات مستكشفا ثم آوى إلى مقهى الأمراء أسفل الفندق، إنه فتى يحسن تربية العجول، ويحب الغناء، ويستحق أحيانًا الملامة. جلس فى المقهى تائها فى أحلام متشابكة حتى انتبه إلى جذبة نظرة مجهولة تناجيه بلطفها الخفى.

التفت فرأى رجلا يتطلع نحوه باهتمام، فى الأربعين لعله، ربعة واضح القسمات، يتميز بسيما السجود فى جبينه وشامة فى ثغرة ذقنه. ولما تلاقت عيناهما دنا بكرسيه من مجلسه وقال:

- لا مؤاخذة، كلانا وحيد، تلعب عشرة؟

كان قد ضاق بوحدته فابتسم مرحبا، صفق الرجل طالبا النرد وهو يقول:

ـ محسوبك جبريل الصغير من رجال الأعمال.

ـ تشرفنا، فؤاد صاوى مزارع.

لعبا بمهارة وسماحة. فى أثناء ذلك عرف الرجل على وجه التقريب أسباب وفود الفتى إلى القاهرة. ولما أزف موعد الغداء دعاه الفتى مجاملة ولكن الرجل قبل الدعوة، ثم دعا الفتى إلى العشاء فلم يجد بدّا من القبول. ذهب به الرجل إلى تافرنا. هكذا انزلق إلى صداقة جديدة بلا أسف. اعترف بأن ثمة تجاذبا قويا يدنيه من الرجل ويدنى الرجل منه، هذه الأمور تحدث، لم لا؟ تناولا شاورمة وسلطة خضراء ونبيذا أحمر. بعث النبيذ الدفء والإلهام، فى جو بارد ورذاذ متقطع تعلن عنه حباته اللؤلؤية المنسابة فوق زجاج النافذة.. وثرثرا طويلا فيما يشبه الطرب. ثم زقزقت عصافير النشوة فى القلب فانسابت الأهواء من طرف اللسان كسلسبيل السماء. قال جبريل:

ـ إنى رجل غنى والحمد لله وكثير الذرية.

ـ حالى رضا، أسوأ ما فيها أنى أعشق العجل وأنا أربيه فيبقى منه فى القلب أسى بعد بيعه.

فقال جبريل ضاحكًا:

ـ إنك من أهل الخطوة خطوة، أما البهجة الحقيقية ففى المغامرة والطفرة!

ـ ما عملك على وجه التحديد؟

ـ المغامرة.

ـ زدنى إيضاحا.

ـ صبراً، حتى متى تبقى فى القاهرة؟

ـ لمدة ثلاثة أيام أخر .

ـ ألم تسمع عن يوم بألف سنة؟

وتكلم عن رحلة تستغرق يومين يجنى من ورائها ثروة صغيرة ، فسأله فؤاد :

ـ ألا يعرضنى ذلك لقبضة القانون؟

ـ لا خوف على صاحب السمعة الطيبة والصحيفة البيضاء من السوابق!

وحدثه عن سيدنا موسى وهجرته الأولى من مصر ثم قال :

ـ لولا ذلك ما صار نبيا!

فضحك فؤاد وقال بتوتر وشى باهتمامه وقال :

ـ ولكنى سأصير مهربا!

ـ لا تنخدع بالأسماء .

شجعه بمثال سيدنا يونس وجوف الحوت فقال فؤاد بلسان متعثر من الشراب :

ـ إنه السجن وليس الحوت!

فعاد يذكره بسيدنا يوسف وكيف أفضى به السجن إلى الوزارة ، ثم قال مداعبًا :

ـ الدولة تستورد فتسمى ذلك تجارة خارجية ، فإذا حاكاها فرد سمت ذلك تهريبا .

ومضى به إلى ملهى لوك الليلى . . شربا مزيداً من الخمر . شاهد رقصة شرقية من أفراح .

أعجب الفتى بالراقصة ، طالبه جبريل بتأجيل ذلك إلى ما بعد الرحلة .

قام فؤاد بالرحلة. رجع عند ظهر اليوم التالى. ربح من ورائها ما يربحه عادة فى عام من بيع العجول. احتفلا بالنجاح فى لوك. قال فؤاد:

- بوسعى الآن أن أبتاع شبكة فاخرة ونادرة.

فقال جبريل ملاطفًا:

- والبقية تأتى..

فتمتم فؤاد بحرارة:

- أفراح..

- عظيم، أهى من طراز عروسك؟

- كلا.

- هذا أفضل فعليك أن تشبع من أشياء كثيرة قبل أن تهب حياتك للعروس.

وبنفوذه جاءه جبريل بالراقصة ثم غادرهما إلى مكتب مدير الملهى. استحضر فؤاد لهما الشراب وهام فى السمر. وهيأ له السكر أن أفراح بحيرة زمردية فى مركزها نافورة تنفث السعادة. ولكن اقتحم المجلس ظل ثقيل. رجل متهور سكران يزعم أنه صاحب حق أقدم. سرعان ما تطايرت الكئوس فوق المنضدة محطمة.. وتأرجحت الشموع المتلألئة فى الأركان بفعل اللكمات المتبادلة. انسحبت أفراح وجلة مثل حية عقب معركة خاسرة، وجاء جبريل مهرولا وهو يصيح:

- ولا حركة ولا كلمة!

ثبت أنه مسموع الكلمة. تأبط ذراعه ومضى به وهو يجفف له دما يسيل من ثنيتيه.. أسعفه فى صيدلية.

اقترح عليه أن يوصله إلى الفندق ولكن فؤاد قال:

- ما زلت مصممًا.

ـ هه؟

ـ أفراح.

ـ ليكن ذلك فى ليلة أخرى.

ـ ليلتى هذه فرصتى الأخيرة.

مضى جبريل الصغير نحو تليفون الصيدلية وهو يتمتم:

ـ لك ما تشاء؟

* * *

استقبل والده فى محطة مصر. استقلا «تاكسى» مضى بهما إلى الفندق، لحظ الرجل ابنه ثم تساءل:

ـ شفتك متورمة؟

فأجاب وهو مستعد لذلك:

ـ وقف التاكسى فجأة أول يوم لى هنا فارتطمت بحافة المقعد الأمامى!

ـ أظنها بسيطة؟

ـ وممكن نؤجل اللقاء.

ـ كلا، وقت عبد الرحمن فاضل مشغول دائمًا.. زرت مصلحة المساحة كما كلفتك؟

أجاب بحرج:

ـ شغلنى الحادث، كان وجهى كله متورمًا.

فصمت الرجل فى ضيق.

جلس بجانب أبيه فى حجرة الاستقبال بفيلا الهرم. بدا متوتر الأعصاب فهمس له أبوه:

ـ تكلم بطلاقة لتحوز الثقة.

وأزيحت الستار. برز من ورائها الرجل فى عباءة بنية. برأس كبير مغطى بطاقية من الصوف الأبيض. نهضا لاستقباله وسرعان ما أصيب فؤاد بدهشة غير متوقعة. دهشة بلغت حد الذهول وجاوزته. خيل إليه أنه يرى جبريل الصغير نفسه. . حتى صوته تردد وهو يقول:

ـ أهلا . . أهلا، كيف حالك يا شيخ صاوى!

ـ بخير ما دمت بخير يا بيه، هذا ابنى فؤاد.

وتمت المصافحة دون أن تبدر من عبد الرحمن فاضل بادرة واحدة تنم عن رؤيته للشاب قبل ذلك. حدق فيه بذهول. ساوره الشك. لعلها صورة أخرى! . . لعله مجرد شبه وليس تماثلا. ولكنه هو هو. كلا طبعًا. إنه توهم وأثر من الليلة الماضية. من يقطع فى ذلك برأى قاطع؟!

ونظر السيد إلى فؤاد وقال ببساطة:

ـ أذكر طفولته.

فقال الشاب بحنان:

ـ تلك الأيام الطيبة لا تنسى!

هو جبريل الصغير، كلا، هذا رجل آخر جاد ووقور ولا أثر للافتعال فى حركاته. ما أحوجه إلى صفاء الذهن. ما زالت بقية من الخمر فى معدته لم تهضم بعد. وقال الأب مخاطبا السيد:

ـ لعلك بخير وعافية.

ـ الأمور تسير بعون الله، ولكن يندر أن نعثر على مخلوق جدير بالثقة.

ـ هذه هى المشكلة!

ـ وكما عرفتنى فأنا لا أقرر البطش إلا عند الضرورة القصوى!

ـ نبل عرف عنك منذ القدم!

ـ والوسطاء ألعن، ولكن هل يسعنى أن أقوم بكل شىء بنفسى؟
ـ غير معقول ولو كان ممكنا!
ـ حتى خطر لى مرة أن أصفى عملى وأرجع إلى القرية.
ـ يسعدنا رجوعك ولكن بلا قهر!
فقال متأسفا:
ـ الأولاد متعلقون بالمدينة.
وفجأة التفت نحو فؤاد متسائلاً:
ـ مالك يا بنى؟
فتراجع فؤاد إلى أعماقه وقال:
ـ لا شىء يا سيدى.
ـ ولكنك تنظر إلىّ نظرات غريبة!
فتشجع فؤاد لعله ينجو من عذاب حيرته.
ـ الحق.. الحق.. ألك توءم يا سعادة البيه؟
ضحك الرجل وهتف الشيخ صاوى:
ـ يا لجهلك يا فؤاد.. الدنيا كلها تعلم أن البيه وحيد أبويه.
وسأله عبد الرحمن فاضل:
ـ أعرفت شخصاً يماثلنى لهذه الدرجة؟
ـ أجل.. ولكن لعلى واهم.
وقال الأب مجاملاً:
ـ عبد الرحمن بك لا مثيل له!
ولكن السيد سأل فؤاد:
ـ من هو ذلك الشخص؟
ـ يدعى جبريل الصغير وهو من رجال الأعمال.

فهتف عبد الرحمن فاضل :

ـ عليه اللعنة ! . . لم يقل أحد قبلك إن بيننا أى شبه .

فتساءل الأب بقلق :

ـ ما لعينيك يا فؤاد؟ !

وتمتم فؤاد حائرًا :

ـ أعترف بأنى مخطئ!

فالتفت عبد الرحمن فاضل نحو الشيخ صاوى وقال :

ـ كيف نسيته تمامًا يا شيخ صاوى؟ . . (ثم ضاحكا) كانت لك به علاقة لا تذكر بخير أنسيت؟ الرجل الذى كان يعمل عندى ثم طردته بعد ضبطه متلبسا باختلاس؟

تورد وجه الشيخ صاوى وقال :

ـ اللعنة . . الآن أتذكره . .

فرجع عبد الرحمن فاضل إلى فؤاد متسائلا :

ـ أيدعى أنه صاحب أعمال؟ . . فماذا أكون أنا؟ ما هو إلا نصاب . مهرب . قواد ، كيف عرفته يا بنى؟ !

تلاشى فؤاد فى حمأة الهجوم ، اضطرب لدرجة أن اختفى التماثل بين الرجلين . وبادر الشيخ صاوى يقول مدافعًا عن ابنه :

ـ لم يعش فى القاهرة أكثر من أربعة أيام .

لبث عبد الرحمن ينظر إلى فؤاد منتظرًا الجواب عن سؤاله ، فقال فؤاد :

ـ عرفته معرفة سطحية فى مقهى الأمراء . تبادلنا حديثا عابرا ثم افترقنا .

تنهد الشيخ صاوى فى ارتياح . فكر فؤاد بأن أباه مذنب مثله وإلا فما

معنى علاقته القديمة بجبريل الصغير؟ أما السيد عبد الرحمن فاضل فقال للشاب بهدوء مريب:

- الصدق أولى بالشرفاء!

- أقسم..

ولكنه قاطعه:

- ولا تقسم بالله باطلاً!

اصفر وجه فؤاد. لاح شبح الفشل لعينى الشيخ صاوى. استمسك الشيخ بآخر خيط للأمل وقال:

- اللعنة على جبريل وسيرته. ما من أجل ذلك جئنا، ألم يحدثك الشيخ مندور عن دوافع زيارتنا يا عبد الرحمن بيه؟.. فؤاد ولد طيب!

فقال عبد الرحمن فاضل بالهدوء نفسه:

- كلا..

تلاقت عينا فؤاد بعينى السيد فومضت الحقيقة حتى أعمته. وقال السيد ببرود:

- ليس بالولد الطيب ولكنه مهرب، فاسق، معربد.

هتف الشيخ صاوى:

- يا ألطاف الله!

خيم صمت معذب. تجسدت الإهانة كما تجسد اليأس من الخطوبة.. كيف يتكلم الرجل بهذه الثقة؟!

من وحى استنتاج أم من وحى الوقائع؟ أله عين دائمة ترصد حركات جبريل فرصدته هو ضمنا؟!

وهل هو تماثل أو تشابه، أم.. لا هذا ولا ذاك؟!

وتساءل الأب فى أسى :

ـ أليس لديك ما تدافع به عن نفسك؟

فتمرد فؤاد على وضعه وقال لأبيه :

ـ أُهنت يا أبى بما فيه الكفاية ويستحسن الآن أن نذهب .

فقال عبد الرحمن فاضل بصلابة :

ـ أنت المهان وأنت المهين!

ثم التفت إلى الأب قائلاً بنبرة لينة :

ـ آسف يا شيخ صاوى .

غادرا الفيلا صامتين يتجنبان الكلام ، يتجنب أحدهما الآخر ، يغوصان فى حيرة بلا قرار ويشعر كلاهما بالذنب .


الجبل

كهف فوق سطح المقطم. إلى اليسار ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليسرى ويمتد فوق السطح إلى الخارج. إلى اليمين ممر يبدأ من نقطة عند حافة الكهف اليمنى وينحدر نحو الخارج موحيا بالامتداد حتى سفح الجبل.

الكهف مظلم. ثمة أشباح. يد شبح تشعل المصباح المدلى من سقف الكهف. يتضح المنظر. يوجد رجل بالملابس البلدية مقيد اليدين والقدمين جالسًا على الجهة اليسرى من الأرض وأمامه من الناحية المواجهة خمسة من الشبان جالسين على الأرض أيضًا يرتدون القمصان والبنطلونات.

يتوسطهم عساف بمركز الرياسة. إلى يمينه إسماعيل وحلمى. إلى يساره رمزى وحسنى.

الرجل المقيد: (فى حال فزع) انقضضتم علىّ فى الظلام وأنا راجع فتوهمتكم لصوصا، وها أنا ذا أرى أنكم أبناء من حارتى، أنت عساف، أنت إسماعيل، أنت حلمى، أنت رمزى، وأنت حسنى، جيران وأبناء جيران، ما معنى ذلك؟ لماذا فعلتم بى ما فعلتم؟!

عساف: جئنا بك لنحاكمك.

الرجل: (وقد امتزج الفزع بالدهشة) قلت تحاكموننى؟

عساف : نعم.
الرجل : ما أنا بالمجرم.
عساف : إنك مجرم.
الرجل : وما أنتم بالقضاة.
عساف : نحن قضاة كما ترى.
الرجل : إن كنتم تريدون نقودًا...
عساف : (مقاطعا) لسنا لصوصا.
الرجل : ولست مجرما.
عساف : إنك مجرم وتعلم أنك مجرم.
الرجل : حذار يا أبنائى من الخطإ، القانون لا يغفل، ولا يفلت أحد من العقاب.
عساف : نشكر لك نصيحتك التى لا حاجة بنا لها.
الرجل : إنكم شبان، الحياة أمامكم طويلة وعريضة، ولستم قضاة.
عساف : نحن قضاة ما دام العدل لا يجد من يقيمه.
الرجل : إن كنتم قضاة فأين الدفاع؟
عساف : ما جدوى الدفاع وجريمتك جارية على كل لسان؟!
الرجل : إننى أقرأ الحكم فى أعينكم متجسدا.
عساف : وسبق أن حكم عليك كل متعامل معك.
الرجل : أمثالى يملئون الأسواق.
عساف : سيجيئون تباعًا..
الرجل : ليس ذنبى ولكنه الزمن.
عساف : بل هو الجشع.
الرجل : وما عقوبتى فى تقديركم؟

عساف : القتل!

الرجل : (صارخًا) القتل؟!

عساف : رجوعك يعنى هلاكنا.

الرجل : (متوسلا) أقسم لكم . . .

عساف : (مقاطعا) طالما حلفت كذبا بالطلاق!

الرجل : الرحمة!

عساف : قتلك رحمة بالعباد.

(يقفون وهو يرتعد. يحمله أربعة. الخامس يحمل خمس عصى غليظة ويتبعهم نحو اليسار. الرجل طيلة الوقت يستغيث)

(إظلام)

٢

(إضاءة)

(يرجعون متجهمى الوجوه. تمر فترة صمت في وجوم ثم يبدأ حسنى بالكلام وهو أسوؤهم حالا):

حسنى : أن تقتل إنسانا عمل فظيع حقا، لن أنسى نظرة عينيه ولا جمود الموت الناطق بالفناء، لا تعرف الحياة على حقيقتها إلا لحظة الموت، الحق لقد مت معه.

(صمت. حسنى يجفف عرقه) معذرة فإنها المرة الأولى.

رمزى : نحن مثلك . .

عـــســـــاف : (متغلبا على وجومه) هل انهرتم وانتهيتم؟

رمزى وإسماعيل وحلمي: كلا . . كلا . . كلا . .

عـــســـــاف : (مخاطبـا حسنى) إنى مثلك تماما يا حسنى ولكن علينا أن نحترف ضبط النفس .

حـــســـنـى : تلزمنا أعصاب من فولاذ وقلوب لا تخفق!

عـــســـــاف : علينا أن نتذكر دائمًا الظلم وأن نثق تمامًا بقوة العادة ، وقد تناقشنا طويلا ، واقتنعنا بكل قلوبنا ، وتعاهدنا على عمل لا رجوع فيه ، إنها رسالة ، والرسالة وقودها العذاب .

حـــلـــمـــى : هذا ما ارتضيناه بوعى كامل .

عـــســـــاف : واعتياد الظلم أفظع من اعتياد القتل .

حـــســـنـى : الظلم والقتل ، كلاهما فظيع .

إســمــاعـيـل : لتغفر لنا نوايانا الطيبة .

عـــســـــاف : تذكروا أننا شرفاء ورحماء .

حـــســـنـى : ولكننا لن نعرف الابتسام .

عـــســـــاف : لنكن شهداء .

رمـــــــزى : لنكن شهداء .

عـــســـــاف : (بنبـرة جـديـدة) علينا أن ننسى الجبل إذا رجـعنا إلى الحارة .

حـــلـــمـــى : نمارس حياتنا مثل بقية الناس .

إســمــاعـيـل : ونتساءل عن سر اختفاء عم فرجل مع الآخرين .

عـــســـــاف : ونلعن اللصوص ونعطف على أولاده .

حـــســـنـى : أولاده؟! إنهم مظلومون مثلنا .

عـــســـــاف : (بخشونة) نحن قضاة لا محامون ، والتاريخ نهر طويل يتدفق بالدم المسفوك تسعة أعشاره من دماء الأبرياء .

عساف : (يتحرك نحو اليمين وهو يقول) : لا تنسوا أن دماءنا ستلتحم بدمائه البريئة ذات يوم .

(يذهبون واحدا فى إثر واحد).

(إظلام)

٣

(الكهف. عساف، إسماعيل، رمزى، حسنى)

عساف : لندع لحلمى أن يوفق فى مهمته .

إسماعيل : فكرة طيبة ، المجرم زير نساء ، سرعان ما يقتنع بأنه قادم على سهرة طيبة .

رمزى : ستهتز الحارة هذه المرة حتى الأعماق .

عساف : سيؤمنون بأنه سفاح خطير .

رمزى : لن يعطفوا على جلاديهم .

إسماعيل : من أسف أن الخوف سيجتاح الجميع .

حسنى : وربما فطنوا عاجلا إلى نوعية المختفين .

عساف : لعله أنفع لرسالتنا .

حسنى : فى تلك الحال يخشى على الأبرياء من سوء الظن .

عساف : الأبرياء لا خوف عليهم .

حسنى : قد يتعرضون للأذى .

عساف : أشعر بأنك لم تبرأ بعد من ضعفك .

حسنى : ألا ترى أنى أعمل مثلكم؟

عساف: أعنى القلب، فقد يستقل عن اليد واللسان!

رمزى: اطمئن إليه كما تطمئن إلى نفسك.

(تترامى نحنحة آتية من الخارج. يدخل حلمى يتبعه رجل فى ملابس بلدية فاخرة. الرجل يدهش لرؤيته الآخرين ويتوقف عن التقدم)

الرجل: **(مخاطبا حلمى)** ما معنى هذا؟!

(ينقضون عليه بسرعة وإحكام. يطرحونه أرضا. يقيدون قدميه وذراعيه وهو يقاوم عبثا. يجلسونه مكان الضحية السابقة وهو ينظر إليهم فى فزع).

الرجل: ما معنى هذا يا أبنائى؟.. محال أن تكونوا لصوصا.

حلمى: صدقت، ستعرف كل شىء.

عساف: لسنا لصوصا كما قلت، نحن قضاة نحاكم مجرمى حارتنا.

الرجل: (برعب) قضاة.. محاكمة.. مجرمون..!

عساف: كما ترى.. وقد سبقك إلى هنا عم فرجل.

الرجل: ماذا فعلتم به؟

عساف: (مشيرا إلى اليسار) إنه مدفون فى الجبل.

الرجل: ألا تخافون القانون؟!

عساف: نحن رجال القانون الأسمى، دافع عن نفسك.

الرجل: (بفزع) أنا فى عرضكم.. خذوا ما تشاءون.

عساف: دافع عن نفسك.

الرجل: (بضراعة) صبركم، فكروا قليلا، فيم أختلف عن أى مالك فى مصر؟ ماذا يجديكم قتلى؟

عساف: ينقص الظالمين واحدا.

الـــرجـــل : الأمر أكبر من ذلك ، فكروا قليلا ، لنتفاهـم ، تجعلون من أنفسكم قتلة بلا ثمرة حقيقية .

عـــســـاف : لديك أقوال أخرى؟

الـــرجـــل: ماذا أقول؟ ماذا يمكن أن يقال؟ ستبقى المشكلة ، إنها أكبر منى ومنكم ، قد يوجد حل ولكنه ليس فى القتل .

(يقـفون. أربعـة يحملونه إلى سطح الجبل، يتبـعهم الخـامس بالعصى).

(إظـــلام)

٤

(إضـــاءة)

(يرجعون بوجوه متجهمة. نلاحظ أيضًا أنهم أملك لأنفسهم من المرة الأولى. أمـا حـسنى فـقد انـتحى جـانبـا على حـال واضـحـة من السـوء. أربعـتـهم يلاحظونه بقلق، وبخـاصـة عساف).

(صمت)

عـــســـاف : لا يمكن أن تمضى الأمور على هذا النحو .

(صمت)

عـــســـاف : إنى أتساءل متى تبرأ من ضعفك!

حـــســـنى : يستحوذ علىّ إحساس غريب ، لعله المرض .

عـــســـاف : كلا ، إنه أدهى وأمر .

حســـــنى : (بنبرة اعترافية) أخى عساف، ينبغى أن أصارحك بأن دفاع الرجل أقنعنى!

(فترة صمت)

عـســـــاف : ما شاء الله، وإذن فالرجل هو المظلوم لا أهل حارتنا!

حســـــنى : لا أعنى ذلك، إنما أعنى أن قتله لن يحل المشكلة.

عـســـــاف : اتفق رأينا فيما سبق على نقيض ذلك!

حســـــنى : (منفعلا) سنمضى من جريمة إلى جريمة، سنحترف الإجرام ونحن لا ندرى، بت أشعر بالمرض.

عـســـــاف : إنك مريض حقا، مريض الإرادة والروح.

حســـــنى : (بعصبية) العكس هو الصحيح!

عـســـــاف : حقا؟! كلامك يعنى أنك سليم وأننا المرضى؟

(صمت)

حـلـــمـــى : (لحسنى) أهذا ما تعنيه؟

رمــــــزى : (لحسنى) ماذا تقترح؟

عـســـــاف : بكل بساطة إنه يمهد للانسحاب.

حســـــنى : كلا.. أقترح أن نعدل جميعا عن خطتنا.

عـســـــاف : عن احتراف الإجرام؟

(صمت)

عـســـــاف : لا فائدة ترجى من مواصلة المناقشة، امكث قليلا فى هواء الليل النقى، استرخ فى هدوء، ثم نستأنف الحوار.

حســـــنى : **(يتردد قليلا ثم يذهب ناحية اليمين ويخرج. يتبادلون النظرات).**

عـســـــاف : ما رأيكم؟

حـلـــمـــى : سوف يثوب إلى رشده.

إسماعيل : إنى لا أشك فى إخلاصه .

عساف : وإنى لا أشك فى إخلاصه ، ولكن الضعف غزاه ، ويجب أن نخشى عواقب ضعفه .

رمزى : لعله من الخير له ولنا أن ينسحب .

عساف : إنه حل قد يسفر عن عواقب وخيمة .

إسماعيل : لن يصلح رفيقا لنا .

عساف : أوافقك تماما ، ولكن ما الخطوة التالية؟

رمزى : نعفيه من العمل .

عساف : من يضمن لنا سكوته؟

إسماعيل : لا شك فى إخلاصه .

حلمى : وكشف الأمر يودى به كما يودى بنا .

عساف : الضعف قد يؤدى إلى التهور أكثر مما تؤدى إليه القوة!

(صمت)

إسماعيل : احتمال بعيد جدًا .

عساف : وهل نضع أرواحنا ورسالتنا تحت رحمة الظروف؟

رمزى : لدى اقتراح آخر ، أن يقتصر عمله على استدراج المجرمين .

عساف : لن يغير ذلك من واقع الأمر شيئًا .

إسماعيل : فلنجرب ، لست متشائمًا .

عساف : دعونى أختبره . .

(عساف يخرج ناحية حسنى. إسماعيل وحلمى ورمزى يتبادلون النظرات فى حيرة واضحة).

إسماعيل : الصبر ، سينتهى الصراع إلى خير .

رمزى : لعله .

حلمى : صدرى منقبض .

(يرجع عساف متثاقل الخطوات. يجلس القرفصاء دافنا وجهه بين ركبتيه. ينظرون نحوه بقلق واستطلاع).

إسماعيل : ماذا وراءك

(صمت)

رمزى : يبدو أنك لم تقنعه؟

(صمت)

حلمى : تكلم يا عساف، لا تسلط علينا الهواجس .

(يذهب إسماعيل إلى الخارج. تترامى منه آهة فزع. يرجع منفعلا نحو عساف).

إسماعيل : لقد خنقته!

(يضطرب رمزى وحلمى. يهرعان إلى الخارج. يرجعان أشد اضطرابا).

إسماعيل : من يصدق؟

رمزى : إنه قرار انفرادى ما كان ينبغى أن يتخذ دون الرجوع إلينا .

حلمى : نحن نتدهور وننتحر .

عساف : **(رافعا وجها متقلصا من الحزن)** الألم يمزقنى .

إسماعيل : **(بحدة)** هيهات أن يرده ذلك إلى الحياة .

عساف : لم يدع لى فرصة الاختيار .

إسماعيل : نحن نعمل كوحدة لا تتجزأ فلم انفردت بالقرار؟

عساف : لقد تحملت عنكم الألم وحدى .

إسماعيل : لقد قضيت علينا بألم لا يمحى .

عساف : أقدمت على الجريمة دفاعا عنكم وعنى وعن الرسالة، إنى سريع الحزن والألم .

إسماعيل: إنك قاس فوق ما تصورت.

عساف: الرحمة وحدها هى التى تحركنا.

إسماعيل: يا للعجب!.. كيف طاوعتك يداك؟!

(عساف يدفن وجهه بين يديه. صمت).

(إظلام)

٥

(إضاءة)

(عساف، إسماعيل، حلمى. وجوههم جادة ولكن يبدو أن ذكرى حسنى قد جرفتها الأحداث).

حلمى: لم يعد للحارة من حديث إلا حديث السفاح الخفى.

عساف: عظيم.

إسماعيل: أهلى يتساءلون أين أمضى بعض الليالى حتى الفجر!

عساف: إنه سؤال يتردد فى بيتى أيضًا ويثير متاعب.

إسماعيل: لذلك يتولانى شعور أحيانا بأننى مطارد.

حلمى: وقد يربط قوم بين غيابنا واختفاء الضحايا!

عساف: لقد اخترنا وسلمنا بالمصير المحتمل.

* * *

(يدخل رمزى متأبطا ذراع كهل. يدهش الرجل ويدهش كذلك عساف وإسماعيل وحلمى).

الكهل: أين نحن؟ **(رمزى يدفعه فيوقعه. يتعاونون على تكبيله على**

رغم مقاومته وصراخه. يتبادلون النظرات فى صمت).

خدعتنى يا رمزى، ماذا أرى، أنتم لصوص؟!

عساف: لنحمله إلى الخارج حتى نتشاور. (يمضون به إلى اليسار ثم يرجعون) (لرمزى) إنه ليس من كنا ننتظر ولا هو من المدانين.

رمزى: لكنه لا يختلف عنهم فى شىء.

عساف: ما جريمته؟

(صمت)

حلمى: المسألة بصراحة أنه نجح فى أن يكون خطيب البنت التى يحبها رمزى.

عساف: كيف تقحمنا فى شئونك الخاصة؟

رمزى: إنه كهل وهى فتاة فى السادسة عشرة، استغل فقرها، وفضلا عن ذلك فهو فاسق بدليل مجيئه معى جريا وراء سهرة محرمة.

عساف: مسألة شخصية.

رمزى: بل إنه استغلال دنىء للضعفاء.

عساف: قد تكون البنت آثرته باختيارها.

حلمى: لا نملك دليلا ضده، ثم إنها مسألة خاصة.

رمزى: لها صفة عامة فى رأيى.

عساف: لا يمكن أن نقتل لمثل هذه الأسباب.

حلمى: أتفق معك.

إسماعيل: وأنا كذلك..

رمزى: هل نطلق سراحه ليفشى سرنا؟

عساف: للأسف لا مفر من قتله ولكننا لن نقتله فلسنا مجرمين.

رمـــــــزى : إنك تلقى ألغازا؟

عـــســـــاف : إنى واضح تماما، عليك وحدك أن تقتله، وعليك وحدك أن تدفنه.

(رمزى ينظر نحو إسماعيل وحلمى ولكنهما يوافقان صامتين. أخيرا يتناول عصاه ويندفع نحو اليسار).

عـــســـــاف : سيصبح منذ الآن مجرما.

حــلـــمــى : أجل.

إسـمـاعـيل : الحق أننا شركاء له فى جريمته.

عـــســـــاف : ماذا؟

إسـمـاعـيل : ها هو ذا برىء يقتل بموافقتنا واقتراحنا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

عـــســـــاف : هل عندك حل أوفق؟

(إسماعيل يصمت).

عـــســـــاف : (لحلمى) هل عندك أنت؟

حــلـــمــى : كـــلا.

عـــســـــاف : هل من سبيل لإنقاذ شرفنا؟

إسـمـاعـيل : لن تنقذه قوة فى الأرض.

عـــســـــاف : بل توجد وسيلة لإنقاذه!

إسـمـاعـيل : حقـــا؟

عـــســـــاف : أن نعاقب المجرم بما يستحق.

إسـمـاعـيل : (فزعا) تقتله كما قتلت حسنى؟

عـــســـــاف : (ساخرا) إنما أشير إلى الطريق الصواب ولكما الاختيار.

إسـمـاعـيل : إنه فوق ما نستطيع.

عـــســـــاف : كونا مجرمين إذن.

حلمى : لننس الأمر كله .

عساف : هيهات .

حلمى : لا مفر من ذلك .

عساف : إنه الضعف يغزونا مرة أخرى .

إسماعيل : أصبحت الحياة كريهة .

حلمى : لننس الأمر ولنواصل السير ، أصبحت الحياة كريهة حقا .

عساف : لقد جردتنا هذه الجريمة من شرفنا .

(يرجع رمزى غاض البصر . يقف مستندا إلى الجدار . يسود صمت) .

(إظلام)

٦

(إضاءة)

(عساف، إسماعيل، حلمى، رمزى أمام ضحية جديدة مكبلة بالحبال. عند رأس الممر الأيمن خارج الكهف تقف فتاة متنصتة).

عساف : انتهى التحقيق فلنحمله .

(يحملونه ناحية اليمين مثل كل مرة سابقة).

(الفتاة تدخل الكهف بحذر، متوارية وراء الجدار تصرخ فزعة وتقع مغمى عليها).

(يرجع الشبان الأربعة فزعين وبأيديهم العصى. عساف يركع

إلى جانب الفتاة على حين يجرى الآخرون نحو المخرج الأيمن).

عساف : (بحنان) هبة . . حبيبتى . . ماذا جاء بك؟!

(يربت خدها. يرجع الشبان).

إسماعيل : لا يوجد أحد، كيف جاءت؟!

عساف : (للفتاة) هبة . . هبة . . أفيقى .

رمزى : ماذا جاء بها؟

(تأخذ الفتاة فى الإفاقة. تنقل عينيها بين الوجوه. تتذكر. تقف فزعة).

هبة : (لعساف) ابعد عنى، إنك قاتل، كلكم قتلة .

عساف : مهلا، لسنا قتلة، اهدئى حتى أطمئن عليك .

هبة : لا تمسنى . . ابعد . .

عساف : مهلا . . كيف جئت إلى هنا؟

هبة : إنه حظى، لأعرفك على حقيقتك، أنت قاتل؟!

عساف : سأشرح لك كل شىء .

هبة : لقد رأيت بعينى . . رأيت القتل والدم .

عساف : ماذا جاء بك يا هبة؟

هبة : كنت عمياء، لاحظت تغيبك ليلة بعد أخرى، ظننت . . المهم أننى تبعتك .

عساف : يا لسوء الحظ!

هبة : يا للقتل والدم والوحشية .

(تتحول لتذهب . يقف رمزى فى طريقها) .

هبة : دعنى أذهب .

(يتبادلون النظرات) .

حلمى : غير ممكن .

إسماعيل : هذا مفهوم تماما .

هبة : فيم تفكرون؟

رمزى : لا يمكن أن تذهبى ، هذه هى الحقيقة الأليمة .

هبة : ماذا تعنى؟

إسماعيل : حقيقة أليمة حقا .

حلمى : أى لعبة قذرة دامية!

رمزى : (لعساف) تكلم يا عساف .

(عساف يئن صامتا) .

رمزى : لا حيلة لنا .

هبة : ماذا تريد؟

رمزى : لن ترجعى أبدا .

هبة : **(وهى فى رعب متزايد)** ماذا تقصد؟

(تنظر نحو عساف فيزداد منها قربا) .

عساف : دعوا المسألة لى .

رمزى : أوضح!

عساف : يلزمنى وقت للتفكير .

رمزى : الأمر واضح جدا ولعلك لم تنس مصرع حسنى!

(عساف ينظر إلى رمزى بقهر) . تكلم يا عساف .

عساف : **(بانفعال)** لا .

رمزى : لا؟! ماذا تعنى؟!

عساف : قلت لا . .

رمزى : أتريد أن تضحى بنا من أجل حبيبتك؟ **(هبة تقترب أيضا من عساف)** إنها بريئة ، سيئة الحظ ، ولكن لا مفر من

قتلها . . (هبة تصرخ فزعة) عليك أن تقتلها وعليك أن تدفنها .

إسماعيل : يجب أن ينتهى هذا العذاب .

حلمى : لقد حلت بنا اللعنة . .

رمزى : إنها مهمتك يا عساف .

هبة : (لعساف) أنت تقتلنى؟

عساف : كلا . . لن يمسك سوء .

رمزى : هل تعنى ما تقول؟

عساف : (بتحد) كما تسمع وترى .

رمزى : ها أنت ذا تنكشف على حقيقتك .

عساف : لن يمسها سوء وأنا حى .

رمزى : (للآخرين) لنتخذ قرارا .

إسماعيل : صبرك .

رمزى : حتى متى؟

عساف : اعتمدوا على، إنها مشكلتى وسأجد لها الحل المناسب . .

رمزى : إنه قرار غير قابل للتأجيل .

عساف : نهرب معا، أنا وهى . .

رمزى : وتتخلى عن الرسالة وعنا؟

عساف : إنه الحل الوحيد .

رمزى : بل يوجد حل آخر، أن تقتلها وتدفنها بنفسك .

(ثم ينظر رمزى إلى إسماعيل وحلمى محتدا ويقول) تكلما . . ما معنى الخرس فى موقف البيان؟

حلمى : الحقيقة واضحة .

إسمــاعيل : هذا حق .

رمـــــزى : إنه قرار إجماعى . .

عـــساف : إنه المستحيل . .

رمـــــزى : نعفيك من التنفيذ ونقوم به نحن .

(هبة تصرخ متعلقة بعساف) .

عـــساف : لن يتم هذا وأنا حى . .

رمـــــزى : **(منقضا عليه بعصاه)** إذن يتم وأنت ميت .

(يتبادلان الضرب. يسقط رمزى) .

(هبة تندفـع نحو اليمين هاربة. حلـمى يتبعـها بعـصاه. يندفع عساف فى أثر حلمى فـيعترضه إسمـاعيل ولكنه يقتله وينطلق خارجا) .

(إظـــلام)

٧

(إضـــاءة)

(يرجع عساف حاملا هبـة بين يديه.يضعها على الأرض. ينظر إليها حزينا).

عـــساف: عندما يتجاوز الشعور بالألم حده يفقد الإحساس بذاته . لذلك فـإنى هادئ وسـعيد. لولا أن الـوقت غيـر مناسب لغنيت ورقـصت. الـوداع لكل شىء طيب أو قـبـيح . ولتسعفنى سعادتى على دفن الحبيبة والزملاء والأمل .

وأقول لأى هاتف بأننى لن أعترف ولن أنتحر. فى سطح الجبل الغائص فى الظلام متسع للتخبط الجنونى الثمل.
امض أيها الشبح متلقيا الخلاء بخلاء أشد، مستعذبا التحدى بلا عون ولا هدف، مستشرفا ضربات المجهول ومفاجآت الغيب، مستعذبا الألم والسخرية وذكريات الأحلام الجميلة..

الشيطان يَعظ

مسرحية فى فصل واحد

مستوحاة من «مدينة النحاس»

ألف ليلة وليلة

١

(حجرة ذات أسلوب مغربى يتصدرها ديوان يجلس عليه موسى بن نصير).

(يدخل حاجب، ينحنى تحية).

الحاجب : مولاى الأمير، قد وصل الأمير طالب بن سهل مندوب أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان . .

(موسى يقف ثم يتجه نحو الباب. يدخل الأمير طالب بن سهل على حين ينسحب الحاجب. يلتقيان بالأحضان وسط الحجرة).

موسى بن نصير : أهلا وسهلا ومرحبا برسول أمير المؤمنين .

طالب بن سهل : أهلا بكم أيها الأمير موسى بن نصير، وإليك أحمل سلام مولانا الخليفة .

(يجلسان على الديوان جنبا لجنب).

موسى بن نصير : أطال الله بقاء مولانا للإسلام والمسلمين .

طالب بن سهل : تبلغنا أنباء طيبة عن المغرب .

موسى بن نصير : إنه يقبس أنواره من المشرق بفضل الله العظيم وحكمة خليفتنا .

طالب بن سهل : إنك أمير حائز الرضا، فليتم الله نعمته عليك .

(طالب بن سهل يصمت قليلا ثم يواصل).

طالب بن سهل : معى إليك رغبة لأمير المؤمنين .

موسى بن نصير : إنى رهن إشارة مولانا الخليفة .

طالب بن سهل : إنه يريد قمقما من قماقم العفاريت!

(موسى بن نصير يؤخذ بما سمع فيتطلع إلى محدثه صامتا).

طالب بن سهل : فى مجلس سمر جرى الحديث إلى ذكر العفاريت العصاة حبيسى القماقم فتاقت نفس مولانا إلى امتلاك أحدها ليرى بعينه ويسمع بأذنه ويقتنع بعقله .

موسى بن نصير : رغبة مولانا واجبة علىّ، ولكن ماذا أملك لتحقيقها؟

طالب بن سهل : قيل من ضمن ما قيل إنه توجد قماقم من قديم الزمان فى صحرائكم .

موسى بن نصير : أشهد الله على أننى لا أعلم عنها إلا السماع والظن . ولكن ثمة رجلا طاعنا فى السن يعد أخبر الناس بصحرائنا ، حاضرها وماضيها ، فضلا عما حباه الله به من حكمة ، فلنرسل فى طلبه .

(موسى بن نصير يصفق يدا على يد، يدخل الحاجب. على حين يهبط الظلام).

٢

(إضاءة)

(موسى بن نصير وطالب بن سهل. يدخل الحاجب).

الحاجب : **الشيخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمُّودى. (ينسحب الحاجب. يدخل الشيخ. عجوز وقور. يرفع يديه تحية. يشير له ابن نصير بالجلوس فيجلس على وسادة بين أيديهما).**

موسى بن نصير : مرحبا بالشيخ المبارك .

عبد الصمد : (حانيا رأسه) عظم الله المرسل ورسوله .

موسى بن نصير : إنك يا شيخ عبد الصمد رجل الصحراء دون منازع .

عبد الصمد : هى حياتى ومماتى أيها الأمير .

موسى بن نصير : لك علم ولا شك بما يقال عن قماقم العفاريت بها؟

عبد الصمد : (باهتمام) هذا ما توكده لنا الكتب القديمة .

طالب بن سهل : فى أى موقع من مواقعها؟

عبد الصمد : يقال إنها مستقرة فى قعر بحيرة بمدينة النحاس .

طالب بن سهل : وما مدينة النحاس؟

عبد الصمد : مدينة قديمة، يقال إنها ازدهرت قبل التاريخ المعروف بعشرين ألف سنة، لا يعلم عنها أكثر من ذلك، لم يذهب إليها أحد ولم يجئ منها أحد، قد تكون حقيقة وقد تكون خرافة .

طالب بن سهل : ألم يسع ساع إلى اكتشافها؟

عبد الصمد : ذاك ما يفوق طاقات الفرد والجماعة .

موسى بن نصير : مولانا الخليفة يرغب فى الحصول على قمقم من قماقمها!

عبد الصمد : (يصمت متفكرا ثم يقول) رغبة مولانا على الرأس والعين، ولكن الله أمرنا بالشورى، ومن يمد سلطانه بقوة القرآن فليس به حاجة إلى قوة العفاريت!

طالب بن سهل : اقتضت حكمته أن يسخرها فى خدمة الإسلام والمسلمين.

عبد الصمد : إنها مهمة شاقة حقا أيها الأمير، فعلينا أولا أن نكتشف موقع فارس من نحاس إذا فركت يده أشارت إلى مكان المدينة.

موسى بن نصير : ستجد منى كل عون.

عبد الصمد : نحتاج إلى قافلة كاملة ومؤن، وقوة وسلاح، وحذر ودهاء، فلعل المدينة ما زالت على قيد الحياة، ولعلها تستطيع التصدى للغرباء، بل لعل حاكمها قد سخر عفريتا لخدمته.

(موسى بن نصير وطالب بن سهل يتبادلان النظر برهة).

طالب بن سهل : لو كان لديهم عفريت مسخر لتسلطوا به على العالم.

موسى بن نصير : سأشرع من فورى لإعداد الحملة وسأكون على رأسها.

طالب بن سهل : ولن أتخلف عنها.

عبد الصمد : فليسدد الله خطانا وليجنبنا الضلال.

(يهبط الظلام)

٣

(إضاءة)

(مدخل مدينة النحاس. موسى بنٍ نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودى).

(ينظرون إلى الداخل وقد لفه ظلام الفجر).

موسى بن نصير : يا لها من رحلة خيالية فى مشقتها، لقد أرهقت الجند والجمال.

طالب بن سهل : لم يصادفنا حولها حى.

موسى بن نصير : اصبر، سوف ينقشع الظلام وتشرق الشمس.

طالب بن سهل : أليس غريبا أنه لا يوجد حارس واحد فى مدخل المدينة؟

عبد الصمد : لعل عزلتها الكاملة أغنتها عن الحراس.

طالب بن سهل : لم أعرف صمتا كهذا الصمت.

عبد الصمد : أهو صمت النوم؟

طالب بن سهل : ألا ينبح فيها كلب أو يصيح ديك؟

موسى بن نصير : ترى أين موقع البحيرة؟

عبد الصمد : ناحية المشرق غير بعيد من المدخل.

(يأخذ الظلام فى الانقشاع ويتجلى رويدًا داخل المدينة).

(ميدان مكتظ بالناس، فى عمقه قصر، تقوم على دائرة محيطه الحوانيت وتتفرع عنه الطرقات. الرجال الثلاثة يتراجعون فى حذر).

موسى بن نصير : متى جاءوا؟ . . هل نستدعى الجنود؟

طالب بن سهل : انظر جيداً، إنهم لا يتحركون.

عبد الصمد : أجل.

طالب بن سهل : لا حركة، لا صوت، إنهم أصنام.

موسى بن نصير : هذه وجوه آدمية لا تماثيل.

طالب بن سهل : صدقت، هل يتحركون فجأة؟

موسى بن نصير : انظر إلى هيآتهم، كأنهم تجمدوا بغتة، توجد امرأة

على عرش، حولها حراس وحجاب، الجمهور منه من تجمد وهو يرقص أو وهو يهتف، هذه المرأة تجمدت وهى تزغرد، هذا الرجل تجمد وهو يصفق.

عبد الصمد : ليس فى وسع حى أن يتجمد بهذا الكمال، ألا تطرف له عين؟

موسى بن نصير : أترى أنه الموت؟

عبد الصمد : إنى أشم رائحته.

موسى بن نصير : وكيف لميت ألا يتهاوى ويتغير؟

طالب بن سهل : وأين بقية السكان؟ ألا يجىء شرطى أو عابر سبيل؟

عبد الصمد : سأقدم على مغامرة، بسم الله الرحمن الرحيم (ثم رافعا صوته).. يا هوه.. يا عباد الله.. (صمت).

موسى بن نصير : لا استجابة على الإطلاق.

طالب بن سهل : نحن حيال لغز.

عبد الصمد : لله ملك السموات والأرض.

طالب بن سهل : لابد من اكتشاف الحقيقة.. اتبعانى.

(يتقدم، يتقدمون فى حذر، يلمسون المتجمدين، يشقون طريقهم بينهم حتى عرش المرأة).

موسى بن نصير : هؤلاء بشر وليسوا بتماثيل.

عبد الصمد : أموات، ولكن أى موت؟

طالب بن سهل : **(مركزا بصره على المرأة)** يا لها من امرأة جميلة.

موسى بن نصير : قصر جميل وحوانيت ثرية، متى وكيف تخلت عنها الحياة؟

طالب بن سهل : كيف حافظت على أشكالها وتوازنها، ما أجمل هذه المرأة!

عبد الصمد : قد يطول بنا الموقف، وهيهات أن نجد لهذا اللغز حلا، وقد نعود فيما بعد إلى هنا، أما الآن فلا يجوز أن ننسى مهمتنا.

موسى بن نصير : (متحركا وراء عبد الصمد) صدقت.

(ثم ينظر خلفه إلى طالب بن سهل).

موسى بن نصير : هلم أيها الأمير، هلم إلى البحيرة، احذر أن تقع فى شراك وهم.

(يهبط الظلام)

٤

(إضاءة)

(موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يرمون بالشباك فى بحيرة ويسحبونها فى دأب وصبر. تخرج شبكة عبد الصمد وفيها قمقم).

موسى : الله أكبر.

طالب بن سهل : قادر على كل شىء.

عبد الصمد : يسبح له الإنس والجن وكل حى وجماد.

موسى : قمقم صغير لا يتصور الإنسان أنه يحبس فى بطنه هذه القوة اللانهائية.

عبد الصمد : انظر إلى هذا المفتاح الصغير الملصق بعنقه، إذا دعك خرج العفريت وأصبح طوع أمرنا.

موسى بن نصير : هل نقدم على التجربة؟

عبد الصمد : لا أنصح بذلك، ولكننا نحاول الاتصال به.

موسى بن نصير : على الأقل ليتوكد لنا وجوده.

عبد الصمد : (يقرب إلى فمه عنق القمقم) أيها السجين، تكلم بحق الله المتعال.

صوت الجن : أخيرا وبعد عشرين ألف سنة من عذاب السجن.

عبد الصمد : من قضى عليك به؟

(صمت)

صوت الجن : ارتكبت معصية رآها ماسة بشرفه.

طالب بن سهل : ستحمل إلى أحكم الناس طرا مولانا الخليفة.

صوت الجن : كفانى عذابا، أخرجنى من القمقم أحقق لك ما تشاء نظير وعد بإطلاق سراحى.

طالب بن سهل : سيقضى الخليفة فى أمرك بما هو قاض.

صوت الجن : أصغوا إلى، إذا أخرجتمونى وجدتم فى خدمتكم قوة لا يقف أمامها بشر، بوسعى أن أجعل الخليفة نفسه عبدا لكم، لا تضيعوا فرصة لا تعوض لإنسان مرتين.

موسى بن نصير : عليك اللعنة، ما زلت عاكفا على الشر.

صوت الجن : ألا تحبون أن تسودوا الدنيا ومن فيها؟

موسى بن نصير : ملكك اللعين أخرج أبانا من الجنة فهيهات أن تخرجنا من الدين.

عبد الصمد : ألك علم سابق بمدينة النحاس؟

صوت الجن : كيف لا وأنا الذى قضيت عليها بالموت المسحور!

موسى بن نصير : إذن هى مدينة ميتة؟

صوت الجن : تلقت ميتتها المسحورة منذ حوالى عشرين ألف سنة.

طالب بن سهل : عشرون ألف سنة؟! . . كأنما ماتت لساعتها، ولكن لم قضيت عليها بما قضيت؟

صوت الجن : وقع قمقمي بين يدى الملكة ضمن صيد لها أصابه صياد القصر، ولمست يدها مفتاح القمقم وهى تقلبه فخرجت لها، وسرعان ما أدركت مدى القوة التى أذعنت لها، ثم وعدتنى بإطلاق سراحى إذا حققت لها ما تشاء، وإذا بها تتمادى فى غيها حتى الكفر! ولما كنت عفريتا مؤمنا بالله على رغم معصيتى فقد غضبت وأنزلت بها الميتة المسحورة التى تبقيها على حالها لا تتغير عبرة للمعتبرين، نابذا وعدها لى بالتحرر، هكذا ماتت المدينة ورجعت على رغم إرادتى إلى البحيرة.

عبد الصمد : سوف نخبر مولانا الخليفة بتضحيتك فى سبيل الله، وستكون خير تمهيد للإفراج عنك.

صوت الجن : طال انتظارى للعفو والرحمة.

طالب بن سهل : لكن من يثبت لنا صدقك؟

صوت الجن : بوسعى أن أجعل المدينة شاهدا على صدقى.

طالب بن سهل : كيف؟

صوت الجن : بوسعى أن ألغى سحر الموت عنها نهارا فتشهد بعينك ساعاتها الأخيرة.

موسى بن نصير : ألا يصيبنا سوء إذا عثروا علينا؟

صوت الجن : كانت مدينة عظيمة تموج بألوان البشر من الوافدين.

موسى بن نصير : وكيف نفهم لغتها أو تفهم لغتنا؟

صوت الجن : هذا علىّ هين.

طالب بن سهل : (بحماس) لابد من خوض هذه التجربة المثيرة، افعل أيها العفريت.

صوت الجن : إليكم آخر نهار من حياة المدينة، من طلوع الشمس حتى مغيبها.

(يهبط الظلام)

٥

(إضاءة)

(موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يقفون ناحية من الميدان غير بعيد من مدخل المدينة. يتابعون ما يحدث هنا وهناك وقد يعلقون عليه. ومنظر النهار يبدأ والميدان خال إلا من شرطي يتقلد سيفه ويتفقد الحوانيت. يمر عابر ثم آخر. يقبل التجار فيفتحون حوانيتهم ثم يقبل الزبائن نساء ورجالا وشبانا وتدب الحياة وتتصاعد).

موسى بن نصير : (ذاهلا) أيها الأموات.

طالب بن سهل : (متأملا) كما كنتم وكما نحن تكونون.

عبد الصمد : أموات لا يخطر لهم الموت ببال.

(من حانوت قريب تترامى أصوات. فتاة تقلب بين يديها أقمشة، وشاب أيضا يفعل مثلها).

التاجر : (للفتاة) إنه فاخر ومناسب وسيكون عليك فتنة للناظرين.

الفتاة : سأشهد به حفل زفاف فى الشهر القادم، أرنى أجمل ما عندك.

التاجر : إليك هذا الثوب وهو بخمسمائة.

الفتاة : الأسعار ترتفع بجنون.

الشاب : لكى تغطى أرباح الجشعين من التجار والحاشية!

التاجر : (للشاب) من أجل طول ألسنتكم ضاقت عنكم السجون!

الشاب : لن يبقى خارج الأسوار إلا العبيد.

صوت الجن : **(للرجال الثلاثة)** لم يحظ بالسيادة فى المدينة سوى الملكة والحاشية ورجال الأمن والتجار، وقد استعبدوا الشعب واستغلوه، ولما سقط القمقم بين يدى الملكة قررت أن تستعبد جميع قبائل الأرض.

موسى بن نصير : الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام فأنقذ كرامة البشر.

* * *

(يقبل شاب فتعترض سبيله فتاة جميلة ثم تتبعه مغازلة إياه وهو يتمنَّع ويتدلل).

الفتاة : كيف تسير وحدك يا جميل؟

الشاب : هذا وقت عمل، أليس لديك ما يشغلك؟

الفتاة : ما يشغلنى شىء عنك، تعال إلى نزهة وكأس عند البحيرة.

الشاب : (مسرعا) إن لم تنصرفى ناديت الشرطة!

عبد الصمد : (للقمقم الذى أخفاه فى عباءته) ما معنى هذا؟

صوت الجن : كان للنساء المقام الأول فى المدينة وبخاصة فى عهد الملكة ترمزين، وكانت الفتاة هى التى تخطب

عريسها، وهى التى تغازل الفتى، وهى التى تتمتع بحريتها الجنسية بخلاف الشاب.

طالب بن سهل : (ضاحكا) إذن لم تخل المدينة من طرائف مفيدة!

موسى بن نصير : (باسما) انتظر خيراً أيها الأمير فأنت الذى تمثل الشباب بيننا!

* * *

(تقترب متسولة من الرجال الثلاثة فى جلبابها الرث).

المتسولة : (للرجال الثلاثة) أعطونى مما أعطاكم الإله، أريد مأوى ورجلا وعبدا ومورد رزق ثابت.

طالب بن سهل : فليرزقك الذى خلقك.

المتسولة : (غاضبة) عليكم اللعنة.

* * *

(يقبل رجل مريض يتوكأ على ذراع زوجته).

المريض : (للرجال الثلاثة) أين الطريق إلى المستشفى؟

موسى بن نصير : نحن غرباء لم نعرف مدينتكم بعد، شفاك الإله.

المريض : غرباء؟! إنكم أصل المصائب، تجيئون إلينا من أطراف الأرض حاملين أمراضكم معكم، فتسرقون نقودنا وتعطوننا أمراضكم.

(يبصق ثم يذهب).

* * *

(يقدم موكب رجل غنى. عبيد يحملون هودجه، وعبيد يتقدمون موكبه وهم يوسعون له طريقا بين الناس بالعنف).

شابة : (لزميل يتأبط ذراعها) هذا سلوكهم، ماذا يفعلون غدا وقد سخروا العفريت لخدمتهم؟

صـــوت الجن : (للرجال الثلاثة) أعترف لكم بأن هذا القول وأشباهه أثرت فى، إذ إننى كنت أنتمى إلى شعب العفاريت المضطهدين.

* * *

(رجل عجوز يقف ناحية من الميدان).

العجوز الضرير : من يسمع كلمة تنفعه؟ . . من يسمع كلمة تنفعه؟

(يقبل عليه نساء ورجال ذوو مظهر حسن وهم يتغامزون).

امـــرأة : (للعجوز) ماذا عندك مما ينفع الناس؟

العجوز الضرير : إنى أعمى . . .

امـــرأة : (مقاطعة) هذا واضح.

العجوز الضرير : ولكنى أرى خيرا منكم.

(ضحك).

العجوز الضرير : أرى أشياء جميلة غير الشراء والربح والفسق والسكر وامتلاك العبيد.

كـهل وجيـه : يا لك من أعمى.

العجوز الضرير : وأرى الموت أقرب إليكم من أجسادكم.

أصـــوات : عليك اللعنة.

(يقترب الشرطى فيضع يده على منكب الضرير).

العجوز الضرير : من أنت؟

الشـــرطى : شرطى، ماذا تقول؟

العجوز الضرير : (فى خوف) أقول لهم إن خدمة الملكة ترمزين أهم من الربح وامتلاك العبيد.

الشـــرطى : (بخشونة) اذهب لحال سبيلك، مولاتنا الملكة ليست فى حاجة إلى أحد.

* * *

(يخرج حاجب من باب مكتوب أعلاه «العدل أساس الملك»).

الحاجب : محكمة!

(يتوجه كثيرون نحو المحكمة ويقفون على مبعدة).

(يخرج شرطى سائقًا أمامه رجلا معصوب العينين يئن بصوت مسموع فيدفعه بعيداً عنه ثم يخاطب الجمهور).

الشرطى : ادعى هذا الرجل أنه توجد نجوم لا ترى بالعين فحكم عليه بفقوء عينيه.

(يدخل الشرطى ثم يجيء بشاب يسير مفرجا الجمهور).

هذا الشاب طالب بمساواة الرجال بالنساء فقضى عليه بالإخصاء.. (ضحك).

(يدخل الشرطى ثم يرجع بنعش محمول. ثم يخاطب الجمهور).

هذه جثة مجرم، احتج جهرا على تسخير جلالة الملكة للعفريت.

(ثم يرجع وهو يقول) وفى الغد البقية، فإلى الغد.

عبد الصمد : (للقمقم) أهلكت المدينة كلها؟

صوت الجن : نعم.

عبد الصمد : وما ذنب هذا الشعب التعيس؟

صوت الجن : قررت إهلاك الظالمين بظلمهم والآخرين بنفاقهم وجبنهم.

عبد الصمد : ألم توجد بينهم مقاومة؟

صوت الجن : بلى، منهم من قتل، ومنهم من هاجر فنجا.

* * *

(صوت طبل يجيء من ناحية القصر الملكى. الأنظار تتجه نحو القصر. يخرج الحاجب الأكبر محوطا بحرس ثم يمضى حتى يقف فى وسط الميدان. يلتف الجمهور حوله. حتى التجار يغادرون حوانيتهم. يقترب من الجمع موسى بن نصير وطالب بن سهل وعبد الصمد).

(صمت)

الحاجب الأكبر : إعلان مهم من حضرة صاحبة الجلالة الملكة ترمزين إلى شعبها الوفى الأمين.

(صمت)

بناء على ما تيسر لنا من قوة لا نهائية بفضل تسخيرنا لقوة الجن فى خدمة شعبنا وتحقيق السيادة له على الأرض.

وبناء على نيتنا الصادقة فى ممارسة هذه القوة بالحكمة والعدل ومراعاة سعادة شعبنا بصفة خاصة وشعوب الأرض بصفة عامة، فقد تفضل الإله المعبود فأضفى رضاه عنا، وأصدر قراره بالنزول لنا عن عرشه فوق الأرض.

وإطاعة لقراره المقدس يتعين علينا أن نصبح المعبود الأوحد فى الأرض، وحق على شعبنا أن يعبدنا وأن يقدم لنا القرابين فى الأعياد الدينية.

وبهذه المناسبة المقدسة فإنى أدعو شعبى لشهود حفل التتويج الإلهى فى هذا الميدان عند غروب الشمس.

(صمت)

الحاجب الأكبر : (يهتف) لتحيا الإلهة ترمزين.

أصوات الحراس وبعض المتجمهرين : لتحيا الإلهة ترمزين .

(الحاجب الأكبر والحراس يرجعون إلى القصر).

موسى بن نصير : أعوذ بالله الواحد الأحد .

عبد الصمد : قتل الإنسان ما أكفره .

طالب بن سهل : كيف اختبأ الفجر البشع وراء ذلك الوجه الجميل؟!

* * *

وجيه : (لزميل له) كان الإله يتخذ من الأصنام رموزًا له وها هو ذا أخيرًا يتخذ رمزًا حيا جميلا .

الزميل : فلتحل بنا البركات .

* * *

تاجر : (لزميل له) من يصدق أننى حلمت بهذه المعجزة ليلة أمس؟

الزميل : إنك رجل ذو قلب نقى .

* * *

(يتجمع نفر من الشباب نساء ورجالا على مبعدة يسيرة من الرجال الثلاثة).

شاب : متى وكيف قرر الإله ألا يعبد فى الأرض؟

شاب ثان : ماذا يحدث لنا بعد موت المعبودة الجديدة؟

شابة : فى الحق نحن مدعوون لعبادة العفريت المسخر .

موسى بن نصير : (غير متمالك نفسه من الدخول فى حوارهم) أيها الناس إنه كفر وإنه لا إله إلا الله .

الشاب الأول : (لموسى) ماذا قلت أيها الغريب؟

موسى بن نصير : (محتدا) قلت إنه كفر ولا يجوز أن يضلكم عن إيمانكم .

الشاب الثانى : (لموسى) صه . . لا يخلو المكان من آذان وعيون . .
هلم إلى الحقول لنستمع إليك فى أمان .
طالب بن سهل : (يمسك بذراع موسى بن نصير ويقول) إياك أن تذهب معهم أيها الأمير .
موسى بن نصير : السكوت على الكفر كفر .
طالب بن سهل : لقد مضى على الحوار عشرون ألف سنة .
موسى بن نصير : (يذهب قائلا) سأغير الماضى كما أغير المستقبل .
(يذهبون).
طالب بن سهل : لقد زج بنفسه فى متاعب ماض انقضى منذ عشرين ألف سنة .
عبد الصمد : نحن ملتحمون به الآن ولا ندرى كيف يتعامل معنا .
طالب بن سهل : كأننى فى حلم .
عبد الصمد : إنه حلم فى باطن حلم!

* * *

(صوت موسيقى من ناحية القصر).
(يخرج موسيقى ومنشد يتبعهما عبيد يحملون دنان الخمر).
(يملئون الكئوس.. يقدمونها للناس).
خادم : نخب المعبودة .
خادم ثان : اشرب واطرب وتمتع بحياتك .
خادم ثالث : الدنيا قبلة وكأس .
(أناس يقبلون على الشراب ويشيع الطرب).

* * *

(يذهب السقاة وهم يوزعون الخمر. تترامى أصوات موسيقى شعبية، يظهر فريق جديد من طريق جانبى يدل مظهره على

أنه يمثل «سيرك» ويعلن عنه. يتقدمه مناد يتبعه بلياتشو ورجال أقوياء مصارعون وحاملو أثقال).

المنادى : بشرى . . بشرى . . **(الناس يلتفتون نحو المنادى) .**

السيرك الكبير يشارك فى أفراح الشعب لمناسبة تتويج معبوده الجديد بعرض خاص هذه الليلة ، برنامج حافل لم يسبق له مثيل ، إليكم بعض النمر المختارة :

مصارعة حرة بين أسد جائع وبين رجل من أهل مدينتنا ثبتت خيانته فى مطالبته بتحرير العبيد . عرض نماذج من مجانين ممتازين نساء ورجالا سبق أن تولوا مناصب مهمة فى الدولة .

حرق رجل وهو حى لاعتراضه على عبادة الملكة ترمزين .

رجل وامرأة يعرضان قواهما الجنسية العجيبة .

ساحر السيرك يتنبأ لأى زبون عن مستقبله .

نشيد جديد عن الأبطال الذين بنوا مدينتنا سيدة الدنيا .

(الناس تتابع الإعلان، وعند نهاية كل مقطع يتصاعد الهتاف).

طالب بن سهل : (ساخرا) واأسفاه . . لن يسعدنا الحظ بمشاهدة هذا العرض الحافل .

عبد الصمد : (باسما) من يدرى؟ ، قد ينجح الأمير موسى فى تغيير الماضى !

* * *

(ضجة تجىء من طريق جانبى. تتقدم الجماعة المتمردة على رأسها موسى بن نصير وقد أحاط بهم جنود شاكو السلاح يسوقونهم نحو القصر).

طالب بن سهل : (بجزع) اكتشفت السلطة أمرهم، ما العمل؟ أخاف أن يصيب أميرنا سوء؟

عبد الصمد : (محاولا تهدئته) هل تستطيع يد هالكة منذ عشرين ألف سنة أن تؤذى إنسانا من زماننا؟ !

طالب بن سهل : محتمل أن يؤثر سحر قديم فى أحدنا، أليس كذلك؟

عبد الصمد : (للقمقم) أثمة خوف حقا على صاحبنا؟

صوت الجن : إنى لا أعلم الغيب.

عبد الصمد : لكنهم أموات يعيدون تمثيل أحداث وقعت وبلا زيادة.

صوت الجن : أضاف صاحبكم بتدخله حدثا جديداً.

طالب بن سهل : أرجعهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يمتد يد بسوء إلى الأمير.

صوت الجن : هذا ما أعجز عنه وهيهات أن يتكرر قرارى قبل اللحظة التى وقع فيها.

طالب بن سهل : يا للفظاعة، لن أتردد عن التدخل لدى أول فرصة.

صوت الجن : إنها حياتك فافعل ما تشاء.

طالب بن سهل : (لعبد الصمد) لعلك تعرف قراءة الطالع؟

(تسمع السؤال امرأة مارة فتقف ثم تقترب من عبد الصمد).

المرأة : أود أن تقرأ لى طالعى.

(سرعان ما يتجمهر أناس حوله مستطلعين).

عبد الصمد : لست عرافا.

المرأة : سمعتك تقرأ لصاحبك طالعه.

عبد الصمد : ما سمعت من ذلك شيئا.

رجـــــل : بل سمعتك . . لماذا تضن علينا بقدرتك؟

(المتجمعون يلحون فى غضب).

طالب بن سهل : اقبل، قل ما يحلو لك، وأنقذنا من غضبهم .

عبد الصمد : عظيم . . عم تسألون؟

المـــرأة : الذى فى بطنى أنثى أم ذكر؟

عبد الصمد : ذكر . . أبشرى . .

المـــرأة : (بفزع) أتسخر منى أيها الدجال؟!

عبد الصمد : (هامسا لطالب بن سهل) نسيت ورب الكعبة .

شـــاب : (لعبد الصمد) ألا سبيل إلى مقاومة العفريت؟

عبد الصمد : لا تنس أنه يعمل فى خدمة إنسان!

الشـــاب : (بحماس) بلى : سيظل الإنسان هو الأقوى .

كـــهـل : ما علاج الخوف من الموت؟

عبد الصمد : الموت نفسه .

(غضب من الكهل وضحك من الجمهور).

فـــتـــاة : متى يزول الظلم؟

عبد الصمد : بعد ساعات .

الفـــتـــاة : ماذا تعنى؟

عبد الصمد : ليس عندى زيادة .

رجـــل : قضيتى هل أكسبها؟

عبد الصمد : لن يكسبها خصمك!

الـــرجـــل : إنى أسأل عما يخصنى .

عبد الصمد : ليس عندى زيادة .

امـــرأة هزيلة : متى أشفى من مرضى؟

عبد الصمد : قبل حلول المساء .

المـــــــرأة : ما أحلى كلامك لو يتحقق.

(يمر الشرطى فيفترق الناس).

طالب بن سهل : كاد يغلبنى الضحك.

عبد الصمد : ما أعجب أن تحاور أمواتا!

طالب بن سهل : من موقعنا هذا ينكشف لنا الغيب طيلة هذه التجربة الفريدة.

عبد الصمد : حتى ذلك لا نستطيع أن نجزم به.

طالب بن سهل : نحن أحياء وهم أموات.

عبد الصمد : حسن أن تقول ذلك لنطمئن على أميرنا لكن لا تنس أنهم الآن أحياء وأننا لم نولد بعد.

طالب بن سهل : أود أن أفعل شيئًا لإنقاذ موسى.

* * *

(من القصر يخرج رئيس الشرطة يتبعه حراس. تنصب منصة فى الميدان).

حـــــاجب : الشرطة تحاكم المتمردين تمهيداً لإحالتهم إلى المحكمة.

(الجمهور يهرع للمشاهدة).

(رئيس الشرطة يجلس على المنصة. يقدم أمامه مجموعة المتمردين وعلى رأسهم موسى بن نصير).

طالب بن سهل : ها هو ذا الأمير، لن يمسه أحد بسوء وأنا حى.

عبد الصمد : تمهل.. ولنتابع الماضى وهو يحاكم المستقبل.

رئيس الشرطة : (للمتمردين) إنكم شباب أرعن، لا إله لكم، وجهركم بالشر يغنى عن مساءلتكم، ستمثلون غداً صباحًا أمام القاضى فى المحكمة.

(رئيس الشرطة يلتفت نحو موسى بن نصير ويقول)

رئيس الشـــرطة : ماذا أوجدك بين هؤلاء الشبان وأنت كهل، ما كنت أتصور أن الكهول قابلون للعدوى بأمراض الشباب. ما اسمك؟

موسى بن نصير : موسى بن نصير.

رئيس الشـــرطة : أى اسم هذا؟

موسى بن نصير : هذا اسمى وأدعى به فى الشرق والغرب.

رئيس الشـــرطة : إنك تستحق بسببه السجن، أأنت غريب؟

موسى بن نصير : نعم.

رئيس الشـــرطة : من أى البلاد؟

موسى بن نصير : من بلاد المغرب.

رئيس الشـــرطة : لا علم لى بها. أنت كاذب، جاسوس وكاذب، ما عملك؟

موسى بن نصير : أمير المغرب.

رئيس الشـــرطة : لن ينفعك ادعاء الجنون.

موسى بن نصير : إنى أعرف أكثر منك بعشرين ألف سنة.

رئيس الشـــرطة : لن ينفعك ادعاء الجنون، إنك متهم بترويج أفكار مستوردة لإفساد شبابنا.

موسى بن نصير : ما قلت لهم إلا الحق وهو أنه لا إله إلا الله.

رئيس الشـــرطة : ها أنت ذا تعترف بكفرك على الملأ فما أنت إلا جاسوس يروج للكفر.

موسى بن نصير : سوف يحل بكم العقاب بعد ساعات ولا خلاص لكم إلا باتباع قولى.

رئيس الشـــرطة : سنرى من الذى سيحل به العقاب، سأفصل رأسك عن جسدك بيدى هذه صباح الغد. (للجنود) أعيدوهم إلى السجن.

(الجنود يسوقون المتهمين إلى القصر).

* * *

(يجيء رجلان وقوران، يقفان على مقربة من طالب بن سهل وعبد الصمد دون أن يفطنا إلى وجودهما).

الأول : سيدى الأستاذ نحن فى ورطة.

الثانى : لكل مشكلة مفتاح.

الأول : قضينا العمر ونحن ندرس لأجيال من طلاب العلم فلسفة تبجل الإله وقدرته، وتحلل الإنسان وفناءه، فكيف يكون موقفنا اليوم أيها الزميل؟

الثانى : نقول فى ترمزين ما قلناه فى الإله.

الأول : وكيف تفسر تناقضنا بين اليوم والأمس؟

الثانى : رأى الإله بقدرته اللانهائية أن يرفع الملكة إلى مرتبة الألوهية.

الأول : ولماذا ينزل الإله عن سلطانه لبشر فان؟

الثانى : لم تعد فانية.

الأول : وإن أدركها الموت؟

الثانى : أعتقد أننا سنسبقها إليه.

الأول : ومحتمل أن تسبقنا هى.

الثانى : نقول إن حكمة الإله لا تناقش.

الأول : وإذا تمادوا فى المناقشة؟

الثانى : نستعين بالشرطة فهى البرهان الأخير لمن لا يقتنع.

الأول : **(ضاحكا)** الآن شرحت صدرى، والآن نستطيع أن نعد الخطبة التى سنلقيها عند الغروب.. **(يذهبان).**

طالب بن سهل : **(متعجبا)** حتى أهل العلم؟!

عبد الصمد : يؤسفنى أيها الأمير أن أذكرك بأن دار الإسلام لا تخلو من أمثالهم.

طالب بن سهل : (دهشا) أأنت من شيعة على بن أبى طالب؟

عبد الصمد : إنى من شيعة الحق ورزقى على الواحد الأحد.

* * *

(يقترب نفر من الشرطة من موقف طالب بن سهل وعبد الصمد).

الشرطى : (لعبد الصمد) أنت العراف؟

عبد الصمد : ما أنا بعراف.

الشرطى : ترامى خبرك إلى جلالة الملكة فقررت أن تسمعك. أبشر بحظك السعيد واتبعنى.

(يتردد عبد الصمد ولكن الجنود تدفعه صوب القصر).

طالب بن سهل : لم يبق سواى، أصبحت وحيداً فى هذه المدينة الميتة، ترى بأى حال تنتهى هذه المغامرة؟

* * *

(ما يكاد يتم قوله حتى تقترب منه امرأة كهلة حسنة المنظر).

المرأة : أبشر أيها الشاب السعيد

طالب بن سهل : ماذا وراءك يا سيدة؟

المرأة : اتبعنى إلى حظك السعيد.

طالب بن سهل : أى حظ سعيد؟

المرأة : لقد رأتك الملكة ترمزين من نافذة قصرها!

طالب بن سهل : (بذهول) الملكة ترمزين؟!

المرأة : وهى تدعوك إلى حظك السعيد، اتبعنى.

(تسير المرأة فيتبعها طالب بن سهل منفعلا بصورة واضحة).

(يهبط الظلام)

٦

(إضاءة)

(بهو العرش. الملكة ترمزين جالسة فوق العرش حجاب. حراس).

(تدخل المرأة).

المرأة : (تنحنى) مولاتى، إنه ينتظر.

الملكة : أذنت له.

(الملكة تشير إلى الحجاب والحراس فينسحبون).

(يدخل طالب بن سهل. ينحنى تحية).

(الملكة تبتسم. تشير إلى مقعد قريب فيجلس عليه. تمعن فيه النظر بإعجاب لا تحاول إخفاءه. طالب يبادلها النظر بتأثر).

ترمزين : العين أصدق رسول وأخلص دليل.

طالب بن سهل : هى كذلك يا مولاتى.

ترمزين : حدثنى عن نفسك.

طالب بن سهل : اسمى طالب بن سهل.

ترمزين : غريب مثل صاحبيك؟

طالب بن سهل : ومن بلاد بعيدة.

ترمزين : ما كنت أتصور أنه يوجد غريب بصورتك وقوامك.

طالب بن سهل : الغرباء مثل رعاياك يسعون ويحبون ويموتون.

ترمزين : لا تجدف إنك استثناء، ما عملك؟

طالب بن سهل : تاجر.

ترمزين : تاجر وعراف وجاسوس . . ماذا جمعكم؟

طالب بن سهل : لقد تورط صاحبنا دون قصد سيئ.

ترمزين : لا تدافع عن مجرم، ولكن لندع هذا الحديث جانبا، قلت إنك تاجر. التاجر شخص ممتاز ومفيد، ولكن موضعك الحقيقى بين الحجاب أو الحراس.

طالب بن سهل : ما أنبل نواياك يا مولاتى!

ترمزين : نحن النساء ننتظر قدرنا منذ البلوغ، وصدقنى فإنك أول رجل فى حياتى.

طالب بن سهل : من السعادة يا مولاتى ما يعز على الأحلام.

ترمزين : (باسمة) فيك جرأة محببة، ما من شاب فى موقفك إلا ويبدى الخجل والتمنع، أما أنت فتجاهر بسعادتك بلا تردد، أصارحك بأنه يعجبنى الشاب المتحلى بأحوال النساء!

طالب بن سهل : (مداريا ابتسامة) أخرجنى الانبهار من الحياء.

ترمزين : بالصدق والصراحة هل تبادلنى عواطفى؟

طالب بن سهل : أجل . . أجل يا مولاتى، ومنذ قديم.

ترمزين : حقا؟ . . لعلك رأيتنى فى احتفال البحيرة؟

طالب بن سهل : رأيت جمالك فى خلوده.

ترمزين : رأيتك من نافذتى، من نظرة عابرة، دلتنى على أغنيتى المفضلة.

طالب بن سهل : ليهنأ كل محب بحبه إكراما لحبنا.

ترمزين : ولكن تجىء المتاعب فى أعقاب الحب!

طالب بن سهل : المتاعب؟

ترمزين : اختيار غريب لرئاسة الحرس قرار مثير للاستياء. (صمت) وزواجى من بشر عقب جلوسى على عرش الآلهة مستحيل، ولكنك ستكون أقرب إلى من أنفاسى المترددة.

طالب بن سهل : (بنبرة غلبها الحزن) ستصفو لنا الأيام.

ترمزين : وجهك ينطق بالأسى على حين يلهج لسانك بالسعادة.

طالب بن سهل : إنى أتساءل هل يسعد إنسان حقا بحب إلهة؟

ترمزين : بين يديك سأظل امرأة!

طالب بن سهل : قلبى يتوجس خيفة.

ترمزين : يا له من قلب ساذج.

طالب بن سهل : لم يحدث ذلك لبشر من قبل.

ترمزين : كأنما يداخلك شك فى قدرتى؟

طالب بن سهل : إنى بشر وأتمنى ألا تتخلى حبيبتى عن بشريتها.

ترمزين : لدى من القوة ما أستطيع أن أطيِّر به مدينة فى الفضاء.

طالب بن سهل : قوة عفريت مذنب؟!

ترمزين : القوة هى القوة بصرف النظر عن مصدرها، ماذا يملك الإله أكثر من ذلك؟

طالب بن سهل : يملك القوة ومصدرها والمسيطر عليها.

ترمزين : إنك تذكرنى بأقوال الخونة!

طالب بن سهل : ما أنا إلا محب يحب حبه ويحرص عليه.

ترمزين : ستجد ألا أصل لمخاوفك وأوهامك.

طالب بن سهل : أتوسل إليك أن ترجعى عن قرارك قبل فوات الفرصة.

ترمزين : أرجع؟
طالب بن سهل : أتوسل إليك، من أجل حبنا، من أجل سعادتنا.
ترمزين : سنكون أقدر على الاستمتاع بها من جميع البشر.
طالب بن سهل : إنها تجربة تنذر بالهلاك.
ترمزين : الهلاك؟!.. ماذا قلت؟
طالب بن سهل : ارحمى قلبى وحبى.
ترمزين : ما أعجب الحب، لو نطق غيرك بما نطقت به لفصلت رأسه عن جسده.
طالب بن سهل : ابقى امرأة لا إلهة.
ترمزين : ستجدنى امرأة وقتما تشاء.
طالب بن سهل : (بحرارة) أصغى إلى باسم الحب، صدقى قلبا يهيم بحبك، فالحب يلهمه الصواب. أقول إن الهلاك معلق فوق رأسك فتجنبيه، خذى الحب ودعى الموت، استجيبى لى لعل معجزة تقع.
ترمزين : (ضاحكة) أيها الرعديد المحبوب، ستشهد التتويج بنفسك، ثم نرجع لنصنع من حبنا الأعاجيب.
طالب بن سهل : (بأسى) لن نذوق من الحب قطرة واحدة.
ترمزين : (بحدة) إنك تتحدث عن الموت كأنه حقيقة واقعة.
طالب بن سهل : لقد رأيته بعينى!
ترمزين : (ساخرة) أأنت عراف أم تاجر؟
طالب بن سهل : أنا محب والمحب يرى ما لا يراه الآخرون.
ترمزين : كفى، لن ننتهى إلى اتفاق، تعلق بمخاوفك حتى تنقشع فى ليلتنا السعيدة، حسبنا ما ضاع فى نقاش عقيم، إنى أنتظر صاحبك العراف الذى أجلت لقاءه لهفتى عليك، لنسمع صوت الغيب الصادق.

(تصفق. يدخل حاجب).

ترمـــــزين : إلىّ بالعراف . **(الحاجب يذهب. عبد الصمد يدخل. يرفع يديه تحية. يلمح طالب بن سهل ولكنه يتجاهله. يجلس عندما تشير إليه الملكة بالجلوس) (لعبد الصمد)** أبلغتنى عيونى المنتشرة فى كل مكان عن قدرتك .

عبد الصمد : ما أنا إلا عبد .

ترمـــــزين : لدى أسئلة عن الغيب قبل أن يسفر لى عن وجهه عند المغيب .

عبد الصمد : ما أنا إلا عبد .

ترمـــــزين : تواضع محمود، أجبنى يا رجل : هل يوجد متمردون آخرون غير الذين قبض عليهم اليوم؟

عبد الصمد : التمرد كامن فى القلوب، جهر به البعض فقبض عليهم، وأخفاه الآخرون وراء أقنعتهم الكاذبة .

ترمـــــزين : (بحدة) ماذا قلت؟

عبد الصمد : أقول ما يخطر لى وإن شئت سكت .

ترمـــــزين : ألا يؤمن بى أحد؟

عبد الصمد : حتى الشيطان فى قمقمه يعبد الإله .

ترمـــــزين : خيبت ظنى بك .

عبد الصمد : حذار من قرارك، سينفجر لعنة مدمرة على الأرض .

ترمـــــزين : وما مصير ترمزين؟

عبد الصمد : مصيرك بيدك .

ترمـــــزين : إنى أحب الحياة .

عبد الصمد : ما عليك إلا أن تحبيها بصدق .

ترمـــــزين : أحبها وأحب الحب .

عبد الصمد : إذن تراجعى عن الموت .

ترمزين : إنى أدرك ما ترمى إليه .

عبد الصمد : ستهلكين عند مغيب الشمس .

ترمزين : أعلم يقينا أنك كاذب ، أتدرى ماذا يصيبك إذا نجوت؟

عبد الصمد : إذا نجوت من الموت فأرسلينى إليه .

(طالب بن سهل يرفع يده مستأذنا فى الكلام).

ترمزين : تكلم يا طالب .

طالب بن سهل : مولاتى ، هذا الرجل يتكلم بثقة ، وقد راهن على صدقه بحياته .

ترمزين : إنى أملك قوة لا تقاوم .

عبد الصمد : عفريتك عبد للإله ، سيغضب لإلهه فيتخلى عنك ولو فقد آخر أمل فى تحرره .

طالب بن سهل : سوف يدمرك فوق عرش الألوهية .

ترمزين : (غاضبة) الآن وضح الحق ، ما أنت يا طالب إلا نسيج فى مؤامرة ، مثل هذا العراف الكاذب ، ومثل صاحبكم الذى قبض عليه وهو يؤلب شعبى علىّ . **(ترمزين تصفق. يدخل حاجب)** أحضروا الجاسوس . **(للرجلين)** إنكم تخافون القوة المسخرة أن تذل شعوبكم ، ولكنى سأعتلى بها عرش الألوهية وأسود الأرض ، الحب نفسه يا طالب لن يغرينى بخيانة مدينتى المقدسة . . **(يحضر موسى بن نصير ويسمع آخر خطابها ثم يقف) (تلتفت إلى موسى بن نصير غاضبة)** ها هو ذا الجاسوس الذى سيفصل رأسه عن جسده غداً **(ثم ملتفتة إلى طالب بن سهل)** أما أنت فإنك شر الثلاثة لقد اتخذ

أحدهما من الجاسوسية وسيلة إلى هدفه، ومارس الثانى الدجل، أما أنت فأهنت الحب المقدس، أنزلته من علياء سمائه وجعلته خدعة دنيئة.

طالب بن سهل : (بحرارة وأسى): أقسم بربى أننى أحبك من كل قلبى، وأننى أتحدى الماضى والواقع لأنقذك من العدم.

ترمزين : هيهات أن أصدقك.

موسى بن نصير : (منفعلا) الوقت يقترب بسرعة مخيفة، وإذا أردنا أن نخوض التجربة المتاحة النادرة وهى تغيير الماضى فما علينا إلا أن نكاشفها بالحقيقة (صمت).

(للملكة) أيتها الملكة.. إنك فى الحقيقة ميتة قد شبع منك العدم.

ترمزين : (تضحك ساخرة) أيها الضال المضلل، بلغنى أنك تدعى الجنون، ولكنك ستنال جزاءك غداة الغد، أنت أنت الميت لا ترمزين.

موسى بن نصير : إنك ميتة منذ عشرين ألف سنة!

ترمزين : (مغرقة فى الضحك) خوفكم من قوتى أذهب عقولكم، فلتذهب إلى الجحيم ولتبق ترمزين ومدينتها إلى الأبد.

عبد الصمد : ما أشق أن تقنع حيا بأنه ميت.

طالب بن سهل : مولاتى، أعيرينا أذنك لتسمعى قصة مدينتك.

ترمزين : أيها المخادع الكذاب هل تشاركهما جنونهما؟ هل ترانى ميتة أيضًا؟

طالب بن سهل : لقد اكتشفنا المدينة وما بها إلا جثث أهلها: ولما استخرجنا العفريت من البحيرة اعترف لنا بأنه هو

الذى أنزل بها الموت المسحور جزاء كفرها، ولكى يثبت لنا صدقه أوقف سحره نهاراً واحداً هو هذا النهار الذى يقترب من نهايته، هكذا دبت فيكم حياة كالحلم لا تلبث أن تنقشع، وسوف يدرككم الفناء كما أدرككم أول مرة.

ترمزين : يا للدجل والكذب والخداع!

عبد الصمد : اعدلى عن قرارك توهب لك الحياة من جديد.

طالب بن سهل : هى الحقيقة يا مولاتى، صدقينا قبل فوات الفرصة النادرة.

ترمزين : أيها الجواسيس الحقراء الحاقدون على عظمة مدينتى الموعودة!

موسى بن نصير : عن أى عظمة تتحدثين؟ ما هى إلا عظمة ذاتك ورجالك، إنك تذلين شعبك كما تذلين الغرباء، حتى أصحاب العقول والإلهام جعلت منهم عبيدا ودمى. انظرى، ها هو ذا المستقبل يتجسد أمام عينيك ويعدك بمعجزة فاستجيبى له، فمن لم يفقه لغة المستقبل دمره الحاضر.

ترمزين : (تخرج القمقم من تحت وسادة) أيها العفريت. اقذف بالحقيقة فى وجوه هؤلاء الجواسيس. (صمت) (مقطبة) أيها العفريت!

(صمت) (ثائرة) فهمت.. ما أنتم إلا سحرة، تسلطتم على لسان العفريت، ولكنى ما زلت مالكته، وسوف يتحرر من سحركم حال قتلكم.

طالب بن سهل : حبيبتى لا تهدرى فرصة لا يجود بها الزمان أبدا،

أمامنا فرصة للحب ولخلق معجزة يفيد منها عالمنا الحى، اقنعى بإنسانيتك وفيها الكفاية من المجد، أطلقى سراح العفريت فما يجوز أن يملكه فرد به ضعف، حررى شعبك، احترمى عقل الإنسان وقلبه، المجد لمن يخدم لا لمن يستخدم، ولنحظ بعد بأغنية الحب الخالدة فلا خالد فى الدنيا إلا أنغامها.

ترمزين : لا يوجد فى الأحياء من يستطيع خداعى.

عبد الصمد : (للقمقم) كاشفها أنت بالحقيقة، دعنا نشهد المعجزة!

(صمت)

صوت العفريت : مولاتى ترمزين.

ترمزين : (بدهشة وسرور) أخيرًا تكلمت.

صوت العفريت : إنى رهن إشارة منك.

ترمزين : أيها العفريت ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

طالب بن سهل : نحن راضون بحكمه ولكن عليك أن تفقهى قوله.

ترمزين : (للقمقم) ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

(صمت)

صوت العفريت : إنك حية بل سيدة الأحياء.

(ترمزين تضحك فى سرور وشماتة)

عبد الصمد : أيها العفريت، ألم تهلك المدينة وصاحبتها منذ عشرين ألف سنة؟

صوت العفريت : كذبت أيها الجاسوس!

ترمزين : يا للنصر.

(تصفق. يدخل حاجب. تأمره بإحضار الجنود)

صوت العفريت : لا يجوز أن تعدمى أحدًا منهم قبل التتويج.

(يدخل الجنود)

ترمزين : خذوا الجواسيس إلى السجن وآتونى برءوسهم لدى عودتى من التتويج.

(تقف. تقترب من طالب وهو ضمن المقبوض عليهم)

(لطالب بن سهل) سوء الحظ لم يدركك وحدك يا طالب.

طالب بن سهل : إنى سيئ الحظ ما فى ذلك من شك.

ترمزين : لا مجد بلا ثمن. (تشير إلى الجنود فيمضون بهم)

(محدثة نفسها فى أسى) ولكن ما أفدح الثمن.

(يهبط الظلام)

ـ ٧ ـ

(إضاءة)

(الميدان)

(حراس.. الجمهور يتطلع نحو العرش. موسيقى يتخللها هتاف كالهدير طبول يعقبها صمت شامل)

(يظهر موكب الملكة ترمزين خارجا من القصر فى هالة بالغة من الكمال والجمال)

(هتاف يستمر حتى تجلس على العرش)

(تشير الملكة إلى كبير الحجاب)

(يتقدم كبير الحجاب ويلقى خطبته)

كبير الحجاب : أيتها الملكة المجيدة ترمزين، سيدة عالمى الأحياء والأموات.

ودعى آخر لحظة من حياة البشر الفانية، وتبوئى عرش

الألوهية الخالد، دمت لنا وللأرض «إلهة خالدة»!

(فجأة يرعد انفجار مروع يعقبه ظلام)

٨

(إضاءة)

(المنظر الأول. منظر الميدان والجثث المتجمدة. موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد)

(موسى وعبد الصمد ينظران فيما حولهما. طالب مستغرق فى النظر إلى ترمزين)

عبد الصمد : مدينة الموت.

موسى بن نصير : مدينة الحلم.

طالب بن سهل : مدينة الحب المستحيل.

عبد الصمد : (منفعلا لـلقمقم) خدعتنا أيها العفريت، ما زال قلبك ينبض بالشر!

صوت العفريت : أبيت أن أضيف إلى ذنوبى ذنبا جديداً.

عبد الصمد : أى ذنب فى هداية امرأة ضالة إلى الصواب.

صوت العفريت : لو فعلت لتعذر على إهلاكها، ولبعثت إلى الوجود مدينة ملعونة هلكت بظلمها لتواصل حياة غريبة متأخرة عن دنياها عشرين ألف سنة، ولعمرى إن ذلك شر من الموت نفسه.

موسى بن نصير : حجة مقبولة فيما أرى، فما يهلك لظلم لا يحق بعثه.

صوت العفريت : حسبنا أن الثائرين قد هاجروا فنجوا ثم جاء عالمكم من ذراريهم .

عبد الصمد : (باسمًا) يبدو أنه قد اندس بينهم نفر من المنافقين والجبناء . . فما أبعد دنيانا عن الكمال .

موسى بن نصير : (ملتفتا نحو طالب بن سهل) أفق أيها الأمير فلا جدوى من التعلق بحب زمان مضى .

صوت العفريت : لقد كفرت عن ذنبى ، أطلقوا سراحى أيها الرجال الصالحون .

موسى بن نصير : عليك أن تقنع بذلك مولانا عبد الملك بن مروان .

صوت العفريت : صدقونى لا يجوز أن يملك قوتى إلا حكيم .

موسى بن نصير : خليفتنا أحكم الحكماء .

صوت العفريت : لا يخلو من أهواء البشر وضعفهم ، ألا ترون كيف يرد على حجج معارضيه بالسيف المسلول؟ (يتبادلون النظر فى صمت).

موسى بن نصير : (للقمقم) إنك قوة لو استغلت للخير لجعلت من دنيانا جنة .

صوت العفريت : ما تسلط علىَّ فرد إلا جعل منى نعمة له ولمن يحب ونقمة على الملايين ، صدقونى ما أحدث عفريت منا شرّاً إلا تنفيذاً لمشيئة إنسان .

(يتبادلون النظر مرة أخرى)

عبد الصمد : لنطلق سراحه .

طالب بن سهل : هل أخيب فى مهمتى كما خبت فى حبى؟!

عبد الصمد : لا تتحمل مسئولية ستسأل عنها أمام رب العالمين .

صوت العفريت : قل لمولاك : من يحكم بالإيمان فلا حاجة به إلى الشيطان .

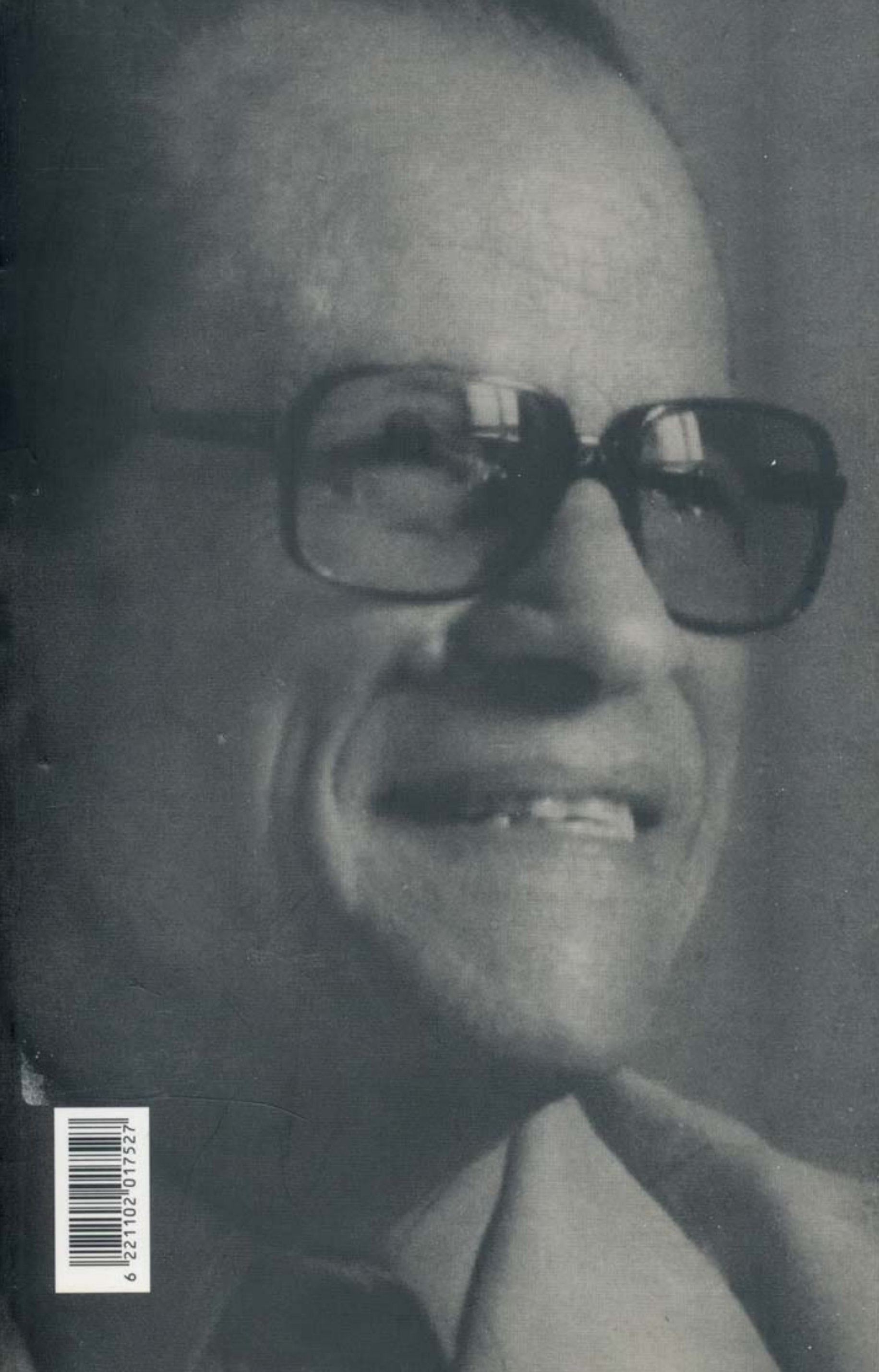
عبد الصمد : انطلق أيها العفريت فلقد نطقت بالحق .

أعمال نجيب محفوظ

١ ـ	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ ـ	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايــــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايــــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايــــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم السـرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايــــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايــــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايــــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــــتمر	روايــــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


6 221102 017527